موسوعة الأعمال الكاملة
لسماحة الإمام
يوسف القرضاوي

المحور الخامس

القرآن وعلومه وتفسيره

غير مرخصة للطباعة

٩٦

العقل والعلم في القرآن الكريم

الإمام يوسف القرضاوي

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

من الدستور الإلٰهي للبشرية

غير مرخصة للطباعة

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤].

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ [سبأ: ٤٦].

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق: ١ ـ ٤].

QaradawiBooks.com

من مشكاة النبوة الخاتمة

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: إنِّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا سلك اللهُ به طريقًا إلى الجنَّة، وإنَّ الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإنَّه ليَسْتَغْفِر للعالم مَنْ في السماوات والأرض، حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، إنَّ العلماء هم ورثة الأنبياء، لم يورثوا دينارا ولا درهما، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذ به، أخذ بحظ وافر**». رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه.

عن أُبَيّ بن كعب، عن النبي ﷺ: «**أنَّ موسى قام خطيبًا في بني إسرائيل، فسُئِل أي الناس أعلم؟ فقال: أنا. فعتب الله عليه؛ إذ لم يرد العلم إليه، فقال له: بلى، لي عبد بمجمع البحرين هو أعلم منك**». متفق عليه.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الَّذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا؛ ليخرج النَّاس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، وصلوات الله وتسليماته على من نزَّل الله عليه الكتابَ تبيانًا لكل شيء وهدًى ورحمةً وبُشرى للمسلمين، وكانت سنته وسيرته: البيان النظريَّ والتطبيق العلميَّ لكتاب الله، ليُبين للناس ما نُزِّل إليهم ولعلهم يتفكرون، وكان خُلُقه القرآن، كما وصفته ألصق النَّاس به عائشة رضي الله عنها[(١)]، وعن سائر آله وأصحابه الَّذين آمنوا به وعَزَّروه ونصروه واتَّبعوا النور الَّذي أُنزل معه، أُولئك هم المفلحون، وعن كل مَن سار على دربه، وانضمَّ إلى حزبه إلى يوم الدين.

(أمَّا بعد)

فلم أزل ـ ولله الحمد والمنَّة ـ منذ فجر شبابي، منذ هيَّأ الله سبحانه أن أرتقي المنبر لأخطب، أو أمسك بالقلم لأكتب، أعتبر القرآن الكريم هو مصدري الأول، ومعتمدي الأساسي، استمدُّ منه الهداية والتسديد، في كل محاضراتي وخطبي، وعامَّة مؤلفاتي وكتبي. ساعدني على ذلك

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٤٦)، وأحمد (٢٤٦٠١).

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

حفظي المبكر للقرآن، وأنا دون العاشرة، واستحضاري لآياته بيُسر، كلما احتجت إلى الاستشهاد بها في مختلف المعاني وشتَّى الموضوعات.

ومع هذا لم يزل في نفسي ـ كما هي أُمنية كل عالِم مسلم ـ أن يكون لي خدمة مباشـرة للقرآن العزيز، بوصفه كتاب الإسلام الأول، وكتاب العربية الأكبر ـ كما قال الشيخ أمين الخولي رَحِمَهُ اللَّهُ (١) ـ والوثيقة السَّماوية الوحيدة الَّتـي تحمل كلمات الله الأخيـرة لهداية البَشـريَّة، ولم يُصِبْها تحريفٌ ولا تبديلٌ بأيِّ وجه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ۝ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

وقد كنتُ نشـرتُ منذ نحو عشـرين عامًا كتابي: «الصبر في القرآن الكريم»، باعتباره حَلقة في سلسلة للدراســات القرآنيَّة، تتناول التفسير الموضوعي للقرآن.

وكان المفروض أن أتبـع هذه الحَلْقة بأخـوات لها في موضوعات قرآنية أخرى، كتبتُ رؤوس أقلامها كما يقولون، مثل «الشكر في القرآن» وهو قرين «الصبر» في القرآن والسُّنَّة. ومثل «الإيمان في القرآن»، ومثل «الدعاء في القرآن»، وغيرها من الموضوعات.

بَيْـدَ أنَّ الشـواغل الفكرية والعلميـة الآنية الَّتي تعرض للإنســان باستمرار، وتفرض عليه أن يكتب في أشـياء يتطلَّبها الوقت، ويُحَدِّدها الموقف ـ أخَّرتني عن إنجاز ما كان في نفسـي، وهو ما يحدث أبدًا مع كثيرٍ من المشروعات العلميَّة والفكريَّة الَّتي أنوي إخراجها للنَّاس. ودليل على محدوديَّة الطاقة البَشرية. وما كلُّ ما يتمنَّى المرء يدركه.

(١) مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب صـ ٣٠٢، نشر دار المعرفة، ط ١، ١٩٦١م.

QaradawiBooks.com

وقد كان من المسـوَّدات الَّتي لديَّ من قديم في الدراسات القرآنيَّة: هذا الموضوع الَّذي أقدمه اليوم للقارئ الكريم «العقل والعلم في القرآن الكريم». وقد شـرح الله صدري لتبييضه وإتمامه على الوجه الَّذي يراه القُرَّاء اليوم بفصوله الستة، معتمدًا على كتاب الله تعالى في المقام الأول.

وسيجد القارئ المسلم ـ وغير المسلم أيضًا ـ مبلغ «العقلانيَّة» ومدى «العلميَّة» في هذا القـرآن. وكيف يغرس هذين المعنييـن الكبيرين في العقول والقلوب، وكيف يُربِّي الأُمة في ضوئهما.

وأرجو الله العليَّ الكبير أن يوفقني لإصدار المزيد من هذه السلسلة، خدمةً لكتاب ربِّنا، وتوسُّلًا إليه سبحانه أن نكون من أهل القرآن، الَّذين هم أهل الله وخاصَّتُه، كما صحَّ في الحديث[(١)]، وأن يكون القرآن شفيعًا لنا يوم القيامة، فقد صحَّ أنَّه يشفع لأصحابه[(٢)].

كما أدعوه جَـلَّ وعلا أن يمدني بروح من لدنـه، حتَّى أكمل كتابي الَّذي كتبت فيه عدة فصـول «كيف نتعامل مع كتـاب الله»، وهو كتاب لا بدَّ منه ليتكامل مع كتابي «كيف نتعامل مع السُّنَّة النبويَّة»، فالقرآن هو الوحيُ المتلو، والسُّنَّة هي الوحي غير المتلو.

أمَّا في التفسير «التحليلي» أو «الموضوعي» كما يسمِّيه شيخنا محمد الغزالي، فقد اقترح عليَّ الإخوة في الجزائر الشـقيقة ـ حين أُعرت إليها

---

(١) إشارة إلى حديث: «**إن لله أهلين من الناس**»، فقيل: من أهل الله منهم؟ قال: «**أهل القرآن هم أهل الله وخاصته**». رواه أحمد (١٢٢٧٩)، وقال مخرِّجوه: إسناده حسن. وابن ماجه في المقدمة (٢١٥)، والنسـائي في الكبرى في فضائل القـرآن (٧٩٧٧)، وصحح إسـناده المنذري في الترغيب والترهيب (٢٢٠٩)، عن أنس.

(٢) إشـارة إلى حديث: «**اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شـفيعًا لأصحابه**». رواه مسلم في صلاة المسافرين (٨٠٤)، وأحمد (٢٢١٤٦)، عن أبي أُمامة.

QaradawiBooks.com

من دولة قَطَر سـنة (١٩٩٠، ١٩٩١) ـ أن أعقد درسًا أُسبوعيًّا في «التفسير» في أقدم جوامع العاصمة، واقترح عليَّ بعضهم أن أبدأ بـ «سورة يوسف» واستجبتُ لذلك، واستمر الدرس عدة أشهر، أنهيتُ فيه معظم السورة، وإن لم أكملها. وقد سُجِّلت هذه الدراسة بالصوت والصورة، ولا أدري ما مصيرها، بعد أن قُطِعَ الطريق بالقوة الغاشـمة على الإسـلاميين في الجزائر، وجرَى عليها ما جرَى، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله!

وبعد عودتي من الجزائر، اقترح عليَّ بعض الإخوة في قطر أن استمر في دروس التفسير في مسجد عمر بن الخطاب، الَّذي أخطب فيه الجمعة، وأن أبدأ بـ «سورة الرعد». وقد سُجِّلت هذه الدروس، وقام أحد الإخوة الأفاضل من علماء الأزهر(١) بنشرها والتعليق عليها، جزاه الله خيرًا.

اللهمَّ اجعل القرآن الكريم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب هَمِّي.

﴿رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [التحريم: ٨].

الفقير إلى الله تعالى

يوسف القرضاوي

ربيع الأول ١٤١٦هـ/ أغسطس (آب) ١٩٩٥م

---

(١) هو الأخ الفاضل الشيخ محمود عوض رَحِمَهُ اللَّهُ، ونشرتها دار البشير، بطنطا.

QaradawiBooks.com

الفصل الأول

مكانة العقل والفكر في القرآن الكريم

- العقل ومجالَيْه في القرآن.
- إشادة القرآن بأُولي الألباب.
- التفكُّر ومجالاته في القرآن.
- الدعوة إلى التذكُّر والاعتبار.
- شـهادات المنصفين مـن المفكريـن الغربيين بعقلانية القرآن.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

العقل ومجاليه في القرآن

مادة (ع. ق. ل) في القرآن الكريم:

جاءت مادة (ع. ق. ل) في القرآن الكريم تسعًا وأربعين مرَّة (٤٩)، كلها ـ إلَّا واحدة ـ جاءت بصيغة الفعل المضارع، وخصوصًا ما اتَّصل به واو الجماعة: «تعقلون»، و«يعقلون».

ففعل «تعقلون» تكرَّر (٢٤) مرَّة، وفعل «يعقلون» تكرَّر (٢٢) مرَّة، وفعل «عَقل»، و«نعقل» و«يعقل» جاء كلٌّ منها مرَّة واحدة.

صيغة «أفلا تعقلون»:

ومن أبرز ما جاء هنا: صيغة الاستفهام الإنكاري الدالَّة على التحريض والإلهاب، تلك الصيغة المنكِرةُ الملهبة المحرِّضة ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ وقد ذكرت في القرآن ثلاث عشرة مرَّة.

منها: قوله في خطاب بني إسرائيل وتقريعهم: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

فإنَّ عمل الإنسان بضدِّ ما يعلم، وضدِّ ما يأمر به غيره، لا يصدر عن إنسان سويٍّ في عقله، ناضج في فكرة، إنَّما هو ضربٌ من الجنون!

QaradawiBooks.com

ومنها: قوله في مُحاجَّة أهل الكتاب في شأن إبراهيم، ومحاولة ضمِّه إليهم بوصفه يهوديًّا أو نصرانيًّا: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [آل عمران: ٦٥]!

فكيف يُنسب السابق إلى اللاحق، والمتقدِّم إلى المتأخِّر؟ إلَّا عند مَن فقد عقله!

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢].

وجاء مثلها بعد الحديث عن بني إسرائيل الَّذين باعوا المثُلَ العليا بالعَرَض الأدنى. قال: ﴿أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

ومثلها: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٠٩].

فالموازنة بين دار الدنيا والدار الآخرة، ترجِّح كفَّة الآخرة، فإنَّها ـ دار الدنيا ـ متاع قليل وزائل، وفي الصحيح: «**ما الدنيا في الآخرة إلَّا مثل ما يجعلُ أحدكم أصبعَه في اليمِّ، فلينظر بماذا يرجع؟**»(١).

فكيف يُتصوَّر أن ترجح كفة الدنيا على الآخرة، إلَّا عند من لا يعقلون؟!

ومنها: قوله تعالى لرسوله: ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦].

فقد أمرَه الله أن يُبيِّن لهم أنَّه مبعوثٌ بهذا القرآن بمشيئة الله لا بمشيئته هو، فقد لبث فيهم أربعين سنة من قبل، ما ادَّعى فيها أنَّه تكلَّم عن الله،

(١) رواه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٥٨)، والترمذي في الزهد (٢٣٢٣)، عن المستورِد أخي بني فِهر.

QaradawiBooks.com

ولا أنَّ وحيًا ينزل عليه، فكيف يُعقل أن يكذب الصدوق بعد أربعين سنة؟ وأن تتعثَّر سيرة المستقيم فجأة، فينحرف ويفجر، بلا سبب ولا مبرِّر، وهو بين أظهرهم يعرفون مدخله ومخرجه، وجلوته وخلوته!

ومنها: قوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠].

فهو يمنُّ على العرب بالقرآن الَّذي نزل بلسانهم، وفيه ذكْرُهم وشرفهم ـ أو فيه تذكيرهم بربهم ورسالتهم ومصيرهم ـ أفلا يعقلون ويدركون قيمة هذه النعمة العظمى؟

ومنها: قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٠].

وفي الآية لفت إلى عمل الله تعالى في الكون، وأبرزُه: الإحياء والإماتة، والمخالفةُ بين اللَّيل والنهار، فهذه من آيات الله الدالة على عموم قدرته، وشمول مشيئته، وبالغ حكمته، لمن كان لديه عقل يعي، ويتدبَّر، أفلا تعقلون بعد ذلك أيها المكابرون والجاحدون؟!

ومنها: قوله تعالى بعد حديث عن قوم لوط، وكيف دمَّر الله عليهم قريتهم، وجعل عاليَها سافلها، ثم قال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨].

وجاءت هذه الصيغة: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ مرَّة على لسان هود، وأُخرى على لسان إبراهيم عليهما السلام.

فهود يقول: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود: ٥١]. يعني أنَّ الَّذي لا يطلب على دعوته أجرًا، ولا يبغي جزاءً لا يكون متهمًا لدى من يعقلون.

QaradawiBooks.com

وإبراهيم يقول لقومه ـ حين سألوه عمَّن حطم أصنامهم ـ ساخرًا منهم:

﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ۞ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۞ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ۞ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۞ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٣ ـ ٦٧].

ومَنْ عبد من دون الله ما لا ينفعه ولا يضرُّه من الأحجار القابلة للكسر حتَّى تكون جذاذًا، والتي لو سُئلت لا تنطق ولا تجيب، فليس أهلًا أن يكون في زمرة مَن يعقلون.

وقريب من هذه الصيغة قوله تعالى بعد حديثٍ عن الشيطان والتحذير منه: ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴾ [يس: ٦٢].

وجاءت الصيغة الإنكاريَّة بفعل الغائب لا فعل المُخاطَب في قوله تعالى: ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ [يس: ٦٨].

كلمة «تعقلون» في القرآن:

وتكررت هذه الكلمة ﴿تَعْقِلُونَ﴾ مرات في القرآن مرتبطة بـ «الآيات» الَّتي بيَّنها الله تعالى ووجوب تعقلها، سواء أكانت آيات مُنزَّلة مسطورة أم آيات مخلوقة منظورة. ويبدو من السياق في معظمها أنَّ المقصود بها الآيات المنزَّلة من الله تعالى، كما في قوله سبحانه:

﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٢].

QaradawiBooks.com

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨].

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور: ٦١].

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٧].

وربَّما كان المقصود منها هنا الآيات الكونيَّة؛ لأنَّها جاءت بعد قوله: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٧].

ومثل ذلك قوله تعالى في الوصايا العشر من سورة الأنعام: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢].

وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣].

فقد أنزل الله القرآن بلسانهم، ليعقلوه بأفئدتهم، لا لمجرَّد أن يسمعوه بآذانهم، دون أن يفكروا فيه ويتدبَّروه.

كلمة «يعقلون» مثبتة ومنفية:

وجاءت هذه المادة بصيغة فعل المضارع للجمع الغائب «يعقلون» اثنتين وعشرين مرَّة، المنفية منها «لا يعقلون» ذمٌّ للذين لا يستخدمون عقولهم الَّتي وهبهم الله تعالى، بل يعطِّلونها جمودًا أو تقليدًا أو جحودًا.

اقرأْ قولَه تعالى في الردِّ على المقلِّدين لآبائهم في شركهم: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

QaradawiBooks.com

وقوله في تصوير غباء هؤلاء: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءًۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡىٌ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]. فهم أشبهُ بالقطيع من الأنعام الَّتي ينعق فيها راعيها، فلا تسمع منه إلَّا صوتًا، ولا تعي حقيقة ما يقول، فقد عطَّلوا أدوات المعرفة عندهم، فلا تسمع آذانُهم الحق، ولا تنطق ألسنتهم به، ولا تراه أعينهم. فهم إذن صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فهم لا يعقلون!

وقال تعالى في وصف الصَّادِّين عن الحق من أهل الكتاب: ﴿وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ﴾ [المائدة: ٥٨].

لأنَّ الَّذي يسخر من نداء الصلاة، الداعي إلى الوقوف بين يدي الله، ويتخذُها هزوًا ولعبًا، لا يمكن أن يكون عاقلًا.

وقال تعالى في بيان أباطيل المشركين وما فعلوه في تحريم ما أحلَّ الله من الأنعام: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

وقال تعالى في وصف المشركين الَّذين انحطَّ بهم الشرك عن درجة الإنسانيَّة لما ألغى من عقولهم ومداركهم: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢].

وقال سبحانه لرسوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [يونس: ٤٢].

فهم يستمعون إليه بآذانهم، وعقولهم غائبة، فهم في حقيقة أمرهم صم.

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [يونس: ١٠٠]. فكل الأنفس قابلةٌ للإيمان

QaradawiBooks.com

والاهتداء، إلَّا أنفس الَّذين ألغوا عقولهم، فقد جعل الله عليهم الرِّجس، أي النجاسة والقذر، وهو رجْس معنويٌّ، وعقوبة قدريَّة، جزاءً لتعطيل العقول.

وقال ﷻ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣]. ومن إنصاف القرآن أنَّه حكم على الأكثر لا على الكل، ليدل على أنَّه قد توجد قلَّة عندها شيء من العقل، ولكنَّها مغمورة وضائعة في الأكثريَّة الغبية، ولهذا قيل: للأكثر حكم الكل.

وقال تبارك وتعالى يخاطب رسوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤].

وما ذلك إلَّا لأنَّهم لم يتأدَّبوا بما ينبغي في مخاطب صفوة الرُّسُل، وسيد الخلق، لم يصبروا قليلًا حتَّى يخرج إليهم.

وقال سبحانه في وصف اليهود: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤]؛ إذ العقلُ الواعي يقتضي من أهله أن تَجتمع قلوبُهم على هدف واحد، ومنهج واحد؛ لا أن تجتمع أجسامهم وقلوبُهم متفرقة.

وجاءت كلمة «يعقلون» مثبتة، ولكنَّها منفية معنًى؛ لأنَّها جاءت بعد صيغة الاستفهام الإنكاري في قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۝ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣، ٤٤].

QaradawiBooks.com

الآيات الكونيَّة مجالٌ لعمل العقل:

وأمَّا المثبت من هذه الصيغة «يعقلون» فجاء في مقام التأمُّل لآيات الله الكونيَّة، المبثوثة في عوالم الأفلاك والجماد والنبات والحيوان والإنسان.

نقرأ في ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

ومثلها قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٤].

وقوله سبحانه: ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٥].

وقوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

وقوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ۞ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ٦٦، ٦٧].

وننتقل من الأرض ونباتها وحيوانها، إلى السماء بشمسها وقمرها ونجومها، فنقرأ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢].

QaradawiBooks.com

وننتقل من الحاضر بما فيه، إلى الماضي وإلى التاريخ.

ونقرأ تعقيبًا على قوم لــوط: ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةً لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٥]، فالعقل مطلـــوبٌ هنا للاعتبار بالتاريخ وأيام الله فيه.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

فليس المهم أن تسير في الأرض، وأن تجوبَها من شرقها إلى غربها، ومن شمالها إلى جنوبها، وأن تطَّلع على آثار الأمم فيها، إنَّما المهم أن يكون لك قلب يعقل ويبصر، وأُذن تسمع وتعي.

وفي مقام آخر نقرأ قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨].

وبهذا غطَّى «العقل» كلَّ الجوانب: الكون علويُّه وســفليُّه، الإنسانُ بحاضره وماضيه، آيات الله الكونيَّة والتنزيليَّة، فمن لم يستخدم عقله في هذه النواحي كلها، كان خليقًا ألَّا يهتدي إلى الحق، وأن يسير في ركاب أهل الضلال والإضلال، وأن يقول مع أهل الشــقاء في النار يوم القيامة ما حكاه الله عنهـــم: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠، ١١].

* * *

QaradawiBooks.com

إشادة القرآن بأُولي الألباب والنُّهى

ومن أروع ما هدى إليه القرآن في جانب الفكر والعلم: تنويهه بـ «أُولي الألباب» و«أُولي النُّهَى» أي أصحاب العقول، وإشادته بهم في مواضع شتَّى من سوره المكية والمدنية على سواء.

ولقد ذكر بعض الكاتبين أنَّ القرآن الكريم اهتم بفعل «عقل» وما يُشتق منه مثل قوله: «يعقلون» أو «تعقلون»، ولكنَّه لم يذكر «العقل» باعتبارها مَلَكة أو جوهرًا في الإنسان تصدر عنه العمليات العقلية المختلفة من التَّفَكُّر والتذكر والاعتبار ونحوها.

وهذا صحيح إذا نظرنا إلى لفظة «العقل»، ولكن إذا نظرنا إلى المعنى المقصود بها، رأينا ذلك في الكتاب العزيز منصوصًا عليه بوضوح في هذه الكلمة «الألباب» أي: العقول، وهي: جمع «لُبٍّ»، وهو: ما يقابل القشر، فكأنَّ القرآن يشير هنا إلى أنَّ الإنسان قسمان: قشر ولُبٌّ، فالجسم هو: القشر، والعقل هو: اللُّبُّ.

وقد وردت كلمة: ﴿أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أو ﴿أُولِي الْأَلْبابِ﴾ في القرآن ست عشرة مرَّة. تسعة منها في القرآن المكي، وسبعة في القرآن المدني[1].

---

(١) هذا بناءً على ما رجحناه من أن سورة الرعد مكية كما يدل على ذلك سياقها وموضوعها وموضعها بين سور «الٓر» وكلها مكيَّة.

QaradawiBooks.com

من الثماني المدنيَّة أربع مرات جاءت في صيغة النداء.

الأولى: في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

وما ذلك إلَّا لأنَّ القصاص في ظاهره قتل نفس، فكيف يكون حياة؟ هذا ما يعقله أُولو الألباب: أنَّ نفسًا تُقتل ليحيا بها مجتمع، لما في هذه العقوبة من ردع للقتلَة، وشفاءٍ لصدور أهل المقتول.

يقول الإمام البقاعي: «الألباب: العقول الَّتي تنفع أصحابها بخلوصها ممَّا هو كالقشر. قال الحَرَّاليُّ(١): وهو باطن العقل الَّذي شأنه أن يلحظ أمر الله في المشهودات، كما شأن ظاهر العقل أن يلحظ الحقائق من المخلوقات، فهم الناظرون إلى ربهم في آياته»(٢).

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

فالزاد المعروف إنَّما يكون من الطعام والشراب، فكيف الزاد هو التقوى، بل هي خير الزاد؟ هذا ما يعقله أولو الألباب الَّذين ناداهم هنا ليتَّقوه.

قال الإمام البقاعي: ﴿يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ «أي: العقول الصافية، والأفهام النيِّرة الخالصة، الَّتي تجرَّدت عن جميع الخلائق الجسمانيَّة، فأبصرت جلالة التقوى، فلزمتها»(٣).

---

(١) علي بن أحمد بن الحسن الحرَّالي التجيبي، أبو الحسن: مفسر، من علماء المغرب (ت٦٣٨هـ).

(٢) نظم الدرر (٣٢/٣)، نشر دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند، ١٩٧٥م.

(٣) المصدر السابق (١٤٧/٣).

QaradawiBooks.com

الثالثة: قولـــه: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ١٠٠].

إنَّ كثيرًا من النَّــاس يهتمون بالكــم والعدد، ولا يهتمــون بالكيف والنوع، ولكنَّ أولي الألباب هم الَّذين يعنيهم الكيف، ويهمهم الطيب وإن كان قليلًا. لهذا أمرهم الله هنا بالتقوى رجاء الفلاح في الدنيا والآخرة.

الرابعة: قوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۞ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الطلاق: ١٠، ١١].

والخطاب لأولي الألباب هنا ليتبيَّنوا قدر الذكر الَّذي أنزله الله إليهم، مجسَّمًا في رســول يمثل الإيمان الحيَّ بِسُنَّته وســيرته، ويُخرجهم من الظلمات إلى النور.

والآيات الأربعــة الأُخرى نجد منهــا آية في ســورة البقرة: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]. وهي ترشد إلى أنَّ الحق من ينتفع بالحكمة هم أُولو الألباب، الَّذين يضعون الأشياء في مواضعها، ويعطون كلَّ ذي حقٍّ حقَّه.

وفي سورة آل عمران ذكر أُولو الألباب مرتين:

مرة فــي أولها في مقــام الحديث عــن الآيات المتشــابهات، فهم لا يهلكون عندها كما يفعل الَّذين في قلوبهم زيْغ، ممن يتَّبعون ما تشابه من القرآن، بــل هم يردُّون المتشــابهات إلى المحكمــات الَّتي هنَّ أمُّ الكتاب ومعظمه، وهذا من ثمار رسوخهم في العلم وتمكُّنهم منه، فهم

QaradawiBooks.com

كما وصفهم القــرآن: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

ومرة أخرى في أواخر الســورة في مقام الحديث عــن آيات الله في هذا الكون المنظور، وما فيها من مجال رحْب للتأمُّل والتفكُّر، والانتقال منها إلى أنَّ هذا العالم لم يُخلق باطلًا ولا عبثًا، بل خُلق لحكمة عرفها أُولو الألباب: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۞ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

وأمَّا الآيات المكيَّة فإليك الحديث عنها.

في ختام سورة يوسف، ورد ذكر أُولي الألباب في مقام استفادتهم من عبر التاريخ، ومن قصص القرآن، وما اشــتمل عليه من بيان سنن الله في النَّاس والحياة، فالجُهَّال والغافلــون والأغبياء تمر عليهم هذه الأحداث، فلا تُنبِّه فيهم غافلًا، ولا تُحرِّك منهم ساكنًا، كما قال تعالى في أواخر هذه الســورة: ﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]، أمَّا أولو الألباب فهم وحدهم الَّذين يحسنون قراءة القصص القرآني، وقراءة التاريــخ، وبالتالي قراءة الواقع: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

وفي سورة الرعد، ورد ذكرُ أُولي الألباب في مقام معرفة ما أنزل الله تعالى إلى رسوله، وأنَّه الحق من ربه، الَّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفــه: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الرعد: ١٩].

QaradawiBooks.com

وقد وصفت الآية الكريمة أُولي الألباب بجملة من الفضائل الخُلُقيَّة الرفيعة، فربطت بين الكمال العقلي والكمال الخُلُقي، وهو ما نلحظه في نفي الجنون عن النبيِّ ﷺ، الَّذي اتَّهمه به المشركون، بقوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ٢]، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وفي ختام أوصاف أُولي الألباب في هذا السّياق قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ [الرعد: ٢٢، ٢٣].

وفي ختام أوصاف أُولي الألباب وأدعيتِهم في خواتيم سورة آل عمران، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ١٩٥] إلى أن قال: ﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

فهذه الآيات كلُّها تدلُّنا على أنَّ أهل الجنَّة هم أُولو الألباب، أي أصحاب العقول، وليس أهل الجنَّة ولا أكثرهم «هم البُلْه» كما يُذكر ذلك في حديث لا يصحُّ ولا يثبت. فهذا دين العقل والعقلاء.

وفي ختام سورة إبراهيم حديثٌ عن القرآن وما تضمَّنه من بلاغ مبين للناس، ومن إنذار لهم بهذا القرآن، ومن إعلام لهم بوحدانيَّته تعالى في إلٰهيَّته، وهو ما بُعِث به الرُسُل، ونزلت به الكتب، وقامت له القيامة، وانتصبت سوق الجنَّة والنار، وليذكر في النهاية ـ بهذا القرآن العظيم ـ أُولو الألباب، الَّذين هم أوْلى النَّاس بتذكُّر ما فيه واستحضاره واسترجاعه، فيقول تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

QaradawiBooks.com

ومثلُ هذا الحديث عن الكتاب العزيز جاء في سورة «صٓ» في قوله سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [صٓ: ٢٩].

فإذا كانت الألباب تسيح متفكِّرة في هذا العالم ـ عالم الخلق ـ ما تُبصر منه وما لا تُبصر، فإنَّها جديرة بأن تسيح متدبِّرة متذكِّرة في هذا القرآن الَّذي يجسِّد عالم الأمر، فكلاهما مشتمل على آيات الله تعالى، تلك آياتٌ من فعله، وهذه آيات من قوله. تلك تُعرف بالتعقل والتَّفكُّر، وهذه تُعرف بالتدبر والتذكر، ولذا جاء في موضع آخر قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ٨٢]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

وجاء في ذكر أُولي الألباب مرَّة أُخرى في هذه السورة «صٓ»، في مقام الحديث عن عبد الله أيُّوب وصبره على ما ابتلاه الله به: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ [صٓ: ٤٤]. وكيف كافأه الله تعالى على صبره ورضاه بقضاء ربه، وعوَّضه بإعادة أهله ـ ومثلهم معهم ـ إليه، فقال تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [صٓ: ٤٣].

وفي سورة الزمر جاء ذكر أُولي الألباب مرَّات ثلاثًا:

مرَّة في مقام الحديث عن قُوَّام اللَّيل الَّذين يصفُّون أقدامهم لربهم خائفين راجين، والناس مستغرقون في نومهم أو في لياليهم الحمر، عالمين بأنَّهم الغانمون الرابحون، وأنَّ غيرهم هم المغبونون الخاسرون، وهذا هو العقل حقًّا: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

والمرَّة الثانية في مقام الحديث عن عباد الله من أهل التوحيد الَّذين اجْتنبوا الطاغوت والأوثان أن يعبدوها، وأنابوا إلى الله وحده، فبشَّرهم

QaradawiBooks.com

الله تعالى بما هم أهل له من كرامته ومثوبته، ونسبهم إلى عبوديَّته تشريفًا لهم وتكريمًا، ووصفهم بأنَّهم: ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٨]، فهم لا يقفون عند «الحسَن»، بل يتطلعون أبدًا إلى «الأحسن»، كما قال تعالى في أكثر من سورة:

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢، هود: ٧]، وكما قال: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: ٥٥].

وفي هذا قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨].

فوصفهم بثلاث خصال: التوحيد أو اجتناب الطاغوت، والإنابة إلى الله، واتِّباع أحسن القول.

وكافأهم بثلاث مثُوبات: البُشْرى من الله، ووصفُهم بالهداية، بل حصر الهداية فيهم، كما تدل عليه الصيغة، وكذلك قصر صفة «أولو الألباب» عليهم.

والمرَّة الثالثة والأخيرة في السورة، جاءت في مقام الحديث عن الماء الَّذي أنزله الله من السماء، وسلكه ينابيع في الأرض، وكيف أخرج الله به زرعًا مختلفًا ألوانه، انتهى به الأمر إلى أن صار حطامًا، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٢١].

وآخر ما جاء في الآيات المكية كان في مقام الحديث عن التوراة، الكتاب الَّذي أنزله الله على كليمه موسى نورًا وهدًى للناس في زمنه، وكيف جعله الله هدًى وذكرى للعقلاء في ذلك العصر، وبهذا ربط القرآن بين كتب الله تعالى جميعًا ورُسُله. وهذا هو مقتضى الإيمان كما جاء به

QaradawiBooks.com

القرآن، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ۝ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [غافر: ٥٣، ٥٤].

فهذه هي المرَّات الستَّ عشرة، الَّتي جاء فيها ذِكْر أُولي الألباب في القرآن، وهي تدلُّ بغاية الوضوح على عقلانيَّة هذا القرآن، وعقلانيَّة رسالته.

وهذا بالإضافة إلى ما جاء به القرآن عن أصحاب العقول تحت اسم «أُولي النُّهَى»، والنُّهَى: جمع «نُهْية» وهي اسم للعقل، سمِّيَ بذلك؛ لأنَّه ينهي صاحبه عما لا يليق بالإنسان أن يفعله، كما سمِّي «عقلًا» لأنَّه يعقله ويحجزه عما لا ينبغي.

وقد وردت هذه اللَّفظة في القرآن مرتين، كلتاهما في سورة «طه».

الأولى في مقام حوار موسى مع فرعون، ثم استطرد إلى الحديث عن الله سبحانه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٣، ٥٤].

فهذا في مقام الحديث عن آيات الله في الكون، وخصوصًا في عالم النبات والأحياء.

والأخرى في مقام الحديث عن القرون الخالية، وما نزل بهم من بأس الله الَّذي لا يُرَدُّ عن القوم المجرمين، وكيف يعتبر اللاحقون بما أصاب السابقين من دمار وهلاك. وهذا هو موقف أُولي النُّهى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ١٢٨].

QaradawiBooks.com

وهناك موضع واحد جاء فيه الحديث عن العقل في القرآن باسم «الحِجْر» والمادة تدلُّ على معنى المنع، فقيل للعقل: حِجْر؛ لكون الإنسان في منعٍ منه ممَّا تدعو إليه نفسه، كما قال الراغب[1].

أمَّا هذه المرة، فقد جاءت في سورة الفجر، في قوله تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ﴾ [الفجر: ١ ـ ٥].

العقل باسم الفؤاد:

كما جاء الحديث عن العقل في القرآن باسم «الفؤاد» مفردًا ومجموعًا، باعتباره وسيلة من وسائل العلم الأساسيَّة الثلاث: السمع والبصر والفؤاد.

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وقال عزَّ من قائل: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

وقد تكرَّر السمع والأبصار والأفئدة في سور شتَّى.

وكثيرًا ما يُذكر «القلب» بدل «الفؤاد» في مواضع عدَّة من كتاب الله.

كما في قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧].

(١) المفردات في غريب القرآن مادة (ح. ج. ر).

QaradawiBooks.com

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ [الأنعام: ٤٦].

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [النحل: ١٠٨].

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٦].

﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الكهف: ٥٧].

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

* * *

QaradawiBooks.com

التفكر ومجالاته في القرآن

ومن الكلمات القرآنيَّة الَّتي لها دلالتها هنا: كلمة «فكر» وما اشتقَّ منها. فالقرآن ـ في عشرات الآيات من سوره المكيَّة والمدنيَّة ـ دعا إلى التَّفَكُّر ـ دعوة قوية، أي: إلى إعمال الفكر، لا إلى تعطيله وتجميده.

قال الراغب في «المفردات»: الفكرة قوَّة مطرقة للعلم إلى المعلوم، والتَّفَكُّر: جوَلان تلك القوة بحسب نظر العقل، وذلك للإنسان دون الحيوان، ولا يقال إلَّا فيما يمكن أن يحصل له صورة في القلب، ولهذا رُوِيَ: «**تَفكَّروا في آلاء الله، ولا تَفكَّروا في الله**»[1]؛ إذ كان الله مُنزَّهًا أن يوصف بصورة.

ونقل الراغب عن بعض الأدباء محاولة لبيان الأصل الحسِّي لاستعمال العرب كلمة «الفكر» فقال: «إنَّها مقلوب عن كلمة «الفَرْك»، غير أنَّ الفرك يُستعمل في المُحسَّات، على حين يُستعمل الفكر في المعاني والمعقولات، وهو فَرك الأُمور وبحثها، طلبًا للوصول إلى حقيقتها»[2]!

(١) رواه أبو الشيخ في العظمة (٢)، وابن بطة في الإبانة (١٠٨)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٦/٦٦)، وحسَّنه الألباني في الصحيحة بمجموع الطرق (١٧٨٨)، ومعنى الحديث صحيح بالإجماع.

(٢) انظر: مفردات ألفاظ القرآن مادة (ف. ك. ر).

QaradawiBooks.com

الكون كلُّه مجال للتفكير:

دعا القرآن إلى التفكير بأساليب شتَّى، وفي كل المجالات، فيما عدا التَّفَكُّر في الله تعالى، إذ التَّفَكُّر في ذاته سبحانه تبديدٌ لطاقة العقل فيما لا يمكنه إدراكه، فحسبه أن يفكِّر في مخلوقاته في السماوات والأرض وفي نفسه، يقول سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الروم: ٨].

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۞ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

فتفكُّر هؤلاء من أُولي الألباب في خلق السماوات والأرض وما فيهما من روعة النظام، ودقة الإحكام، هداهم إلى أنَّ الله ما خلقهما إلَّا لحكمة، لم يخلقهما لعبًا ولا عبثًا ولا باطلًا، ولهذا قالوا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١].

بل ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلَّا بالحقِّ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ۞ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

وكذلك ينبغي للعقل أن يتفكر في آيات الله تعالى في أرضه وسمائه، وفي شمسه وبحره ونجومه، وفيما تشتمل عليه الأرض من حيوان ونبات، وجبال وأنهار وبحار.

يقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ۖ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣].

QaradawiBooks.com

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٠، ١١].

﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ۝ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٨، ٦٩].

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣].

فالكون كلُّه، بما فيه ومَن فيه: مسرحٌ للفكر، يصول فيه ويجول.

«التفكُّر» في الجوانب المعنويَّة:

ولا يقف التَّفكُّر عند الجوانب الماديَّة، بل يتجاوزها إلى الجوانب المعنوية، كما في العلاقة بين المرء وزوجه، الَّتي اعتبرها القرآن آية من آيات الله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

فمن آيات الله تعالى أن خلق للإنسان من جنسه زوجًا يسكنُ إليها، كما تسكن إليه، كما ربط بينهما بوشائج المودَّة والرحمة، حتَّى يصبح أحدهما وكأنَّه جزء من صاحبه: ﴿هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ﴾ [البقرة: ١٨٧].

غير مرخص للطباعة نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ومن هذه الجوانب: صنع الله في الأنفس عند النوم، وعند الموت: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢].

فالنوم هو الموتة الصغرى، والموت هو النومة الكبرى.

ومن ذلك: التَّفَكُّر فيما يضرب الله من أمثال، يُقَرِّب بها المعاني، ويجعل المعقول في صورة المحسوس، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

ومن ذلك: المثل الَّذي ضربه تعالى في سورة يونس بقوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

ومن ذلك: المثل الَّذي ضربه الله لمن لم يعمل بعلمه، ومَثَّلَهُ بالكلب.

يقول تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

[الأعراف: ١٧٥، ١٧٦].

QaradawiBooks.com

«التَّفكُّر» في الآيات التنزيليَّة:

وكما أنَّ الآيات الكونيَّة مجال التفكُّر، فإنَّ الآيات التنزيليَّة هي مجال آخر للتفكر، تلك آيات مشهودة منظورة، وهذه آيات مسموعة ومقروءة.

يقول تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

ويقول تعالى بعد ضرب المثل للمنفق المُرائي بمن احترقت جنَّتُه أحوجَ ما كان إليها هو وذُرِّيته الضعفاء: ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

قال البقاعي في تفسيره «نظْم الدُّرر»: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾: «أي ليكون حالكم حال مَن يُرجى أن يحمل نفسه على الفكر، ومن يكون كذلك ينتفع بفكره. قال الحَرَّاليُّ: فتبنون الأُمور على تثبيت، لا خير في عبادة إلَّا بتفكر، كما أنَّ الباني لا بدَّ أن يفكر في بنائه، كما قال الحكيم: أول الفكرة آخر العمل، وأول العمل آخر الفكرة. كذلك من حقِّ أعمال الدين ألَّا تقع إلَّا بفكرة في إصلاح أوائلها السابقة، وأواخرها اللاحقة. فكانوا في ذلك صنفين، بما يُشعر به ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ مطابقين للمثل، متفكِّر مضاعفٌ حرثه وجنَّته، وعاملٌ بغير فكرة، تستهويه أهواء نفسه، فتلحقه الآفة في عمله، في حرْثه وجنَّته من سابقه أو لاحقه»(١).

ومن هنا نرى كثرة الآيات أو الدلائل الَّتي نَصَبها الله في الكون لهَدْي عباده إليه، وتدلهم على الحق الَّذي أنزل الله به كتبَه، وبعث به رُسُلَه.

---

(١) نظم الدرر (٤/٨٨، ٨٩).

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

ويقول سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

ويقول عز وجل: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠].

وهذا تحريضٌ على التَّفكُّر وخصوصًا في أمر الوحي وإثبات النبوة، والتحقُّق من أمر محمد ﷺ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٤].

وهناك مجال آخر للتفكر، وهو الأمثال الَّتي يضربها الله للناس، ووراءها من العبر ما وراءها. قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

وسبب تكثير الأدلَّة ـ كما يقول الإمام البقاعي في تفسيره ـ: «أنَّ عقول النَّاس متفاوتة، فجعل سبحانه وتعالى العالَم ـ وهو المُمْكنات الموجودة ـ وهي جملة ما سواه، الدالة على وجوده وفعله بالاختيار على قسمين: قسم من شأنه أن يُدْرَك بالحواسّ الظاهرة، ويُسمَّى في عُرف أهل الشرع: الشهادة والخلق والمُلك، وقسم لا يُدْرَك بالحواس الظاهرة، ويُسمَّى: الغيب والأمر والملكوت، والأول: يدركه عامَّة الناس، والثاني: يدركه أُولو الألباب الَّذين عقولهم خالصةٌ عن الوهم والوساوس، فالله سبحانه وتعالى ـ بكمال عنايته ورأفته ورحمته ـ جَعَلَ العالَم بقسميه محتويًا على جمل وتفاصيل من وجوه متعددة، وطرق متكثِّرة، تعجز القوى البَشريَّة عن ضبطها، ويستدلُّ بها على وحدانيَّته، بعضها أوضح من بعض؛ ليشترك

QaradawiBooks.com

الكل في المعرفة، فيحصل لكلٍّ بقدر ما هُيِّئ له، اللَّهُمَّ إلَّا أن يكون ممن طُبِع على قلبه، فذلك ـ والعياذ بالله سبحانه وتعالى ـ هو الشقي»[1].

وينقل العلَّامة البقاعي عن الإمام أبي الحسن الحَرَّالي في كتابه «المفتاح» قوله: «اعلم أنَّ الآياتِ والأحوالَ تضاف وتتَّسق لمن اتَّصف بما به أدرك معناها، ويُؤنَّب عليها مَن تقاصر عنها، وينفي منالها عمَّن لم يصل إليها، وهي أطوار أظهرها آيات الاعتبار البادية لأُولي الأبصار؛ لأنَّ الخلق كله إنَّما هو عَلَم للاعتبار منه ـ لا أنَّه موجود للاقتناع به: ﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٧، ٨] اتَّخذوا ما خُلق للعبرة به إلى ربِّه كسبًا لأنفسهم حتَّى صار عندهم وعند أتباعهم آياتهم، لا آية خالقه: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨]، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]».

ثم يلي آيات الاعتبار ما ينال إدراك آيته العقل الأدنى ببداهة نظره: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢]. جمع الآيات لتعدُّد وجهها في مقصد البيان.

ثم يلي ما يدرك ببداهة العقل: ما يحتاج إلى فكر يثيره العقل الأدنى، لشغل الحواس بمنفعته عن التَّفكُّر في وجه آيته: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۞ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٠، ١١].

(١) نظم الدرر (٢/٣٠٠، ٣٠١).

QaradawiBooks.com

أفرد الآية لاستناد كثرته إلى وحدة الماء ابتداءً، ووحدة الانتفاع انتهاءً.

ثم يلي ما يُدرك بفكر العقل الأدنى: ما يُقبل بالإيمان ويكون آية أمر قائم على خَلق، وهو ما يدرك سمعًا؛ لأنَّ الخلق مرئي والأمر مسموع: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [النحل: ٦٤، ٦٥].

هذه آية حياة القلوب بنور العلم والحكمة الَّذي أخذ سمعًا عند تقرُّر الإيمان، وعند هذا الحد يتناهى العقل إلى فطرة الأشد وتعلو بداهته، وتترقى فطره إلى نظر ما يكون آية في نفس الناظر؛ لأنَّ محار غيب الكون يُردُّ إلى وجدان نقص الناظر، وكما أنَّ الماء آية حياة القلوب صار الشرابان: اللَّبن والخمر آيتين على أحوال تخصُّ القلوب بما يغذُوها من الله غذاءَ اللَّبَن وينشيها نشوةَ السكر، منبعثًا من بين فرْث ودم نزول الخلق المقام عن الأمر القائم عليه: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً﴾ الآيتين إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ٦٦، ٦٧].

وهذا هو العقل الأعلى، وأفرد الآية لانفراد موردها في وجد القلب، وكما للعقل الأدنى فكرة تنبئ عن بداهته، فكذلك للعقل الأعلى فكرة تنبئ عن عليِّ فطرته: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ﴾... إلى قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٨، ٦٩]، وهذا العقل الأعلى هو اللبُّ الَّذي عنه يكون التذكُّر بالأدنى من الخلق للأعلى من الأمر: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٣].

QaradawiBooks.com

وفي مقابلة كل من هذه الأوصاف أضدادٌ يَرِد البيان فيها بحسب مقابلتها، وكذلك حكم وصف المسلمين فيما يظهر أن: «لا أنْجى للعبد من إسلامه نفسه لربِّه»، ووصف المحسنين فيما يظهر قيام ظاهر العبد بربِّه، ووصف الموقنين فيما وجد يقينه العبد من نفسه أو عاين ابتداءه بظاهر حسِّه: ﴿الٓمٓ ۞ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١، ٢].

من استغنى بما عنده من وجْد لم يتفرغ لقبول غيب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨]، ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۚ﴾ [المائدة: ٩٣]، ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]، ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٣]، «**فإذا أحببته كنت سمعه الَّذي يسمع به، وبصره الَّذي يبصر به**»[1]، ﴿وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٤]، ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥].

ولجملة هذه الأوصاف أيضًا أضْدادٌ، يرد بيان القرآن فيها بحسب تقابلها، ويجرى معها إفهامه، وما أوصله خفاء المسمع والمرأى إلى القلب هو فقهه، ومَن فقد ذلك وُصف سمعه بالصمم وعينه بالعمى، ونفي الفقه عن قلبه، ونُسب إلى البهيمية، ومَن لم تنل فكرته أعلام ما غاب عنه عيانه نفي عنه العلم: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾ [الكهف: ١٠١]، ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ...﴾ الآية إلى

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٠٢)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]، ﴿يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ...﴾ الآية إلى قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧]، نفـي العلم فيما ظهرت أعلامـه، والفقه فيما خفي أمره، ومراد البيان عن أضدادها هذه الأوصاف بحسـب تقابلها، وهذا الباب لمن يستفتحه من أنفع فواتح الفهم في القرآن»(١).

التفكُّر المخلص مثْنى وفُرادى:

ومن أروع الآيات الَّتي حثَّت على التَّفَكُّر قوله تعالى في سورة سبأ من القرآن المكي: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

يأمر اللهُ خاتمَ رسـله في هذه الآية: أن يعِظ قومه ويُذَكِّرهُم وُيُرغِّبهم في خصلة واحدة، لا يريد منهم الآن غيرهـا، حتَّى يعرفوا حقيقة نبوَّته: أصدقٌ هي أم كذب؟ وحقيقة شخصيته: أمجنونٌ يهْذي أم رسولٌ يَهْدي؟ هذه الخصلة الواحدة المطلوبة مكوَّنة من خطوتين: أولى وثانية.

الخطوة الأولى: أن يقوموا لله مَثْنَى وفُـرَادى، والقَوْمة تعني: النهضة والعزيمة.

والخطوة الثانية: أن يتفكَّروا. أي: يُعملوا عقولهم ولا يجمِّدوها.

ومعنى الخطوة الأولى ـ القَوْمة لله ـ أن ينهضوا بقوة، ويتجرَّدوا من أهوائهم وشهوات أنفسهم، واعتباراتهم النفعيَّة الماديَّة، ومصالحهم الآنية

(١) نظم الدرر للبقاعي (١١/٢٠٠ ـ ٢٠٤).

QaradawiBooks.com

والشخصية، ويتوجَّهوا إلى الله مخلصين في طلب الحقيقة، ولم يكن القوم ملحدين ولا جاحدين لوجود الله تعالى، بل كانوا مُقرِّين بوجوده وخالقيته لهم وللسماوات والأرض، وتدبيره لأمر الكون، إنَّما كانت آفتهم في الشِّرك الَّذي أصمَّهم وأعمى أبصارهم. فلا غَرْو أن يطلب إليهم القرآن هذه القوْمة لله متحرِّرين من حُب الدنيا، وحُب الذات، والتقليد الأعمى، وهذا التجرُّد أو الإخلاص في طلب الحقيقة سيضيء لهم السبيل للوصول إليها، ويكشف الغواشي والأقنعة عن وجهها.

وهذه القوْمة لله يجب أن تكون بعيدة عن التأثير الجماهيري والغوغائي، وتأثير «العقل الجَمعي» كما يُسمِّيه علماء النفس، والتحرر من عواطف المجاملة ومراعاة الخواطر، ومشاعر الخوف والطمع، والخجل من مخالفة الآباء، أو مخالفة الكبراء، أو الخروج عن الخطِّ العام، والخشية من الذمِّ أو الإنكار، وحب المَحْمَدة والثناء، إلى آخر هذه العوائق، بل الأغلال الَّتي تكبِّل الناس، وتحول بينهم وبين التَّفَكُّر الحُرِّ المستقل.

ولهذا وعظهم أن يقوموا لله «مثنى وفرادى، ثم يتفكروا»، ومعنى هذا: أن يفكر كل واحد مع نفسه بمعزل عن تأثير الآخرين، أو مع صاحبٍ له يتجاوران في هدوء. وبدأ بقوله: «مَثْنَى» دلالة على أنَّ الحوار والأخذ والرد الثنائي هنا قد يكون أجدى؛ لأنَّ المرء يسمع من صديقه وجليسه، ولا يأبى أن يسلم له إذا أقنعه، ولكنَّه قد يرفض الهزيمة إذا كانت أمام الجمهور.

فهذا التفكير الهادئ المستقل المخلص في طلب الحقيقة: جديرٌ أن يهديَ صاحبه إليها، وَفق سُنَّة الله؛ أنَّ من طلب شيئًا بجدٍّ وإخلاص من طريقه الصحيح لا بدَّ أن يجده، فإنَّ مَن جَدَّ وجَد، ومَن سار على الدرب وصل.

QaradawiBooks.com

أجل، سينتهي به هذا التَّفَكُّر لا محالة إلى أنَّ صاحب هذه الدعوة الجديدة ليس بمجنون كما يزعمون، وما به أي جِنَّة، كيف وهو كما قال الله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ۝ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾ [القلم: ٢ ـ ٤].

إنَّ صاحب الخُلُق العظيم يستحيل أن يكون مجنونًا؛ لأنَّ المجنون لا ينضبط له سلوك، ولا يتَّزن له قولٌ ولا فعل. أمَّا صاحب الخُلُق العظيم، فكل كلمة عنده بميزان، وكل فعل عنده بمقدار، لا يضع النَّدى في موضع السيف، ولا السيف في موضع النَّدى، لا يمزح حيث ينبغي الجد، ولا يسالم حيث تنبغي الحرب، ولا يحارب حيث يجب السلام، يعطي لكلِّ ذي حقٍّ حقَّه، فهو لا يضيع حقَّ الرب، ولا يهمل حقَّ الخلق، ولا ينسى حقَّ النفس، يسأل الله صلاح دينه الَّذي هو عصمة أمره، وصلاح دنياه الَّتي فيها معاشه، وصلاح آخرته الَّتي إليها معاده(١)، وبهذا يتمِّم مكارم الأخلاق الَّتي بُعِث ليتمِّمَها. وهذا لا يتمُّ إلَّا بأعلى أنواع العقل.

وقد ألَّف الأستاذ عبَّاس محمود العقاد رَحِمَهُ اللهُ كتابًا سمَّاه «التفكير فريضة إسلامية» وهو تعبير صحيح شرعًا، فإنَّ الله تعالى كما أمرنا بالتعبُّد وإقامة الشعائر من الصلاة والزكاة، أمرنا بالتَّفَكُّر والتفكير في الآيات الكثيرة الَّتي سقناها، سواء جاءت باسم التَّفَكُّر أو النظر أو الرؤية، ولهذا قال مَنْ قال من السَّلف: تفكُّر ليلة خير من إحيائها(٢). وقال غيره: تفكُّر ساعة خير من عبادة سنة(٣)!

---

(١) إشارة إلى الحديث: «**اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي...**». رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٢٠)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه أبو الشيخ في العظمة (٤٢)، من قول ابن عباس: تفكر ساعة خير من قيام ليلة.

(٣) رواه أبو الشيخ في العظمة (٣٨)، من قول وهب بن مُنَبِّه.

QaradawiBooks.com

قال العلَّامة البِقَاعي في تفسير هذه الآية: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾: «... أي: فاسمعوا ولا تنفروا خوفًا من أن أُمِلَّكم ﴿أَن تَقُومُواْ﴾ أي: توجِّهوا نفوسكم إلى تعرف الحق، وعبَّر بالقيام إشارة إلى الاجتهاد ﴿لِلَّهِ﴾ أي: الَّذي لا أعظم منه، على وجه الإخلاص واستحضار ما له من العظمة، بما له لديكم من الإحسان، لا لإرادة المغالبة، ﴿مَثۡنَىٰ﴾ أي: اثنين اثنين ﴿وَفُرَٰدَىٰ﴾ أي: واحدًا واحدًا. مَنْ وثق بنفسه في رصَانة عقله، وأصَالة رأيه، قام وحده، ليكون أصفى لسرِّه، وأعونَ على خلوص فكره، ومَنْ خاف عليها ضمَّ إليه آخر؛ ليذكِّرَه إن نسي، ويقوِّمَه إن زاغ».

قال: ولما كان هذا القِسْم أكثر وجودًا في النَّاس قدَّمه.

«ولم يذكر غيرهما من الأقسام إشارة إلى أنَّهم إذا كانوا على هاتين الحالتين كان أجدر لهم بأن يعرفوا الحق، من غير شائبة حظ، ممَّا يكون في الجَمْع الكثير من الجدال واللَّغط المانع من تهذيب الرأي، وتثقيف الفكر، وتنقية المعاني.

ولما كان ما طُلب منهم هذا لأجله عظيمًا، جديرًا بأن يُهتمَّ له هذا الاهتمام، أشار إليه بأداة التراخي، فقال: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ أي: تجتهدوا بعد التأنِّي وطول التروِّي في الفكر...»[1].

سَعَة مجالِ الفكر في نظر القرآن:

يقول الإمام الغزالي في بيان مجال الفكر: «الموجودات المخلوقة منقسمة إلى: ما لا يُعرف أصلها، فلا يمكننا التَّفَكُّر فيها، وكم من

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٥/٥٢٩، ٥٣٠).

QaradawiBooks.com

الموجـودات الَّتي لا نعلمهـا، كما قـال الله تعالـى: ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٨]، ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦]، وقال: ﴿وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦١].

وإلى ما يُعرف أصلها وجملتها، ولا يُعرف تفصيلها، فيمكننا أن نتفكر في تفصيلها. وهي منقسمة إلى ما أدركناه بحسِّ البصر، وإلى ما لا ندركه بالبصر. أمَّا الَّذي لا ندركه بالبصر. فكالملائكة والجن والشياطين والعرش والكرسي وغير ذلك. ومجال الفكر في هذه الأشياء ممَّا يضيق ويغمض.

فلنعـدل إلى الأقرب إلى الأفهـام، وهي المُـدْركَات بحسِّ البصر. وذلك هو السـماوات السبع وما بينهما، فالسـماوات مُشاهَدة بكواكبها وشمسـها وقمرها، وحركتها، ودورانها في طلوعها وغروبها، والأرض مُشاهَدة بما فيها من جبالها ومعادنها وأنهارها وبحارها وحيوانها ونباتها، وما بين السـماء والأرض وهو الجوُّ مُدرَك بغيومها وأمطارها وثلوجها ورعدها وبرقها وصواعقها وشُهبها وعواصف رياحها، فهذه هي الأجناس المُشاهَدة من السماوات والأرض وما بينهما، وكل جنس منها ينقسم إلى أنواع، وكل نوع ينقسم إلى أقسـام، ويتشعب كل قسم إلى أصناف. ولا نهاية لانشـعاب ذلك وانقسـامه في اختلاف صفاته وهيئاتـه، ومعانيه الظاهـرة والباطنـة. وجميع ذلـك مجال الفكـر. فلا تتحـرَّك ذَرَّة في السماوات والأرض من جماد ولا نبات ولا حيوان ولا فلك ولا كوكب إلَّا والله تعالى هو محرِّكها، وفي حركتها حكمة أو حكمتان أو عشـر أو ألف حكمة، كل ذلك شـاهد لله تعالـى بالوحدانيَّـة، ودالٌّ على جلاله وكبريائه، وهي الآيات الدالَّة عليه.

وقد ورَد القــرآن بالحثّ علــى التَّفَكُّر في هذه الآيــات كما قال تعالــى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وكما قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ﴾ [الروم: ٢٠ ـ ٢٥، وفصلت: ٣٧ ـ ٣٩، والشورى: ٢٩ ـ ٣٢ وغيرها] من أول القرآن إلى آخره.

فلنذكر كيفيَّة الفكر في بعض الآيات:

فمن آياته: الإنســان المخلوق مــن النطفة، وأقرب شــيء إليك نفسُــك، وفيك من العجائب الدالَّة على عظَمة الله تعالى ما تنقضي الأعمال في الوقوف على عُشر عُشــيره وأنت غافل عنه، فيا مَنْ هو غافل عن نفســه وجاهل بها كيف تطمع في معرفة غيرك؟ وقد أمرك الله تعالى بالتدبُّر في نفسك في كتابه العزيز فقال: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريــات: ٢١]، وذكر أنَّك مخلوق من نطفة قذرة، فقال: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۝ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾ [عبس: ١٧ ـ ٢٢]، وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم: ٢٠]، وقال تعالــى: ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ۝ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ [القيامة: ٣٧، ٣٨]، وقــال تعالــى: ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [المرسلات: ٢٠ ـ ٢٢].

وقــال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [يس: ٧٧]، وقــال: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإنســان: ٢]، ثم ذكر: كيف جعــل النطفة علقــة، والعلقة مُضغة، والمضغة عظامًا، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً ... ﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٤] الآية.

QaradawiBooks.com

فتكرار ذكر النُّطفة في الكتاب العزيز ليس ليُسْمع لفظه ويُترك التَّفَكُّر في معناه، فانظــر الآن إلى النطفة وهي قطــرة من الماء قذرة لو تُرِكت ســاعة ليضربَها الهواء فســدت وأنتنــت، كيف أخرجهــا ربُّ الأرباب من الصلب والترائب، وكيف جمع بين الذكر والأنثى، وألقى الأُلفة والمحبة في قلوبهم، وكيف قادهم بسلسلة المحبة والشهوة إلى الاجتماع، وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع»[1]، إلى آخر ما ذكره في كتاب التَّفَكُّر، وغدونا الآن ندركه أكثرَ وأعمق، لما مَلَّكه لنا العلم من وسائل وأسباب.

ذكر الإمام ابن القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «مفتاح دار الســعادة» في وجوه فضل العلم: «ما ثبت عن بعض السَّــلف أنَّه قال: تفكُّر ســاعة خير من عبادة ستِّين سنة».

وسأل رجلٌ أمَّ الدَّرْداء بعد موته عن عبادته، فقالت: كان نهاره أجمعه في بادية التَّفَكُّر!

وقال الحسن: تفكُّر ساعةٍ خيرٌ من قيام ليلة[2].

وقال الفضيل: التَّفَكُّر مرآةٌ تُرِيكَ حسناتِكَ وسيئاتكَ[3].

وقيل لإبراهيم: إنَّك تُطيل الفكرة! فقال: الفكرة مخُّ العمل[4]!

وكان سفيان بن عُيَيْنة كثيرًا ما يتمثَّل:

إذا المــرءُ كانــت لــه فكرةٌ ... ففي كلِّ شــيء له عِبْـرَة[5]!

(١) إحياء علوم الدين (٤/٤٣٥، ٤٣٦)، نشر دار المعرفة، بيروت.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في الزهد (٣٦٣٧١).

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٨/١٠٩)، عن فضيل من قول الحسن.

(٤) المصدر السابق (٨/١٠٨).

(٥) المصدر السابق (٧/٣٠٦).

QaradawiBooks.com

وقال الحسن في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ١٤٦] قال: أمنعهم التفكُّر فيها.

وقال بعض العارفين: لو طالعتْ قلوبُ المُتَّقين بفكرها إلى ما قُدر في حُجُبِ الغيب من خير الآخرة لم يصْفُ لهم في الدنيا عيش، ولم تقرَّ لهم فيها عَيْن.

وقال الحسن: طولُ الوَحْدة أتمُّ للفكرة، وطولُ الفكرةِ دليلٌ على طريق الجنَّة.

وقال وهب: ما طالت فكرةُ أحدٍ قطُّ إلَّا عَلِمَ، وما علم امرؤ قطُّ إلَّا عمل(١).

وقال عمر بن عبد العزيز: الفكرةُ في نِعم الله من أفضلِ العبادة(٢).

وقال عبد الله بن المبارك لبعض أصحابه وقد رآه مُفَكِّرًا: أين بلغتَ؟

قال: الصراط!

وقال بشرُ بن الحارث: لو فَكَّر الناسُ في عظَمةِ الله ما عَصَوْه(٣).

وقال ابن عبَّاس: ركعتان مقتصدتان في تفكُّر خيرٌ من قيام ليلةٍ بلا قلب(٤)!

---

(١) رواه أبو الشيخ في العظمة (٥٦)، تحقيق رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري، نشر دار العاصمة، الرياض، ط١، ١٤٠٨هـ.

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٣١٤/٥).

(٣) المصدر السابق (٣٣٧/٨).

(٤) رواه أبو الشيخ في العظمة (٤٤).

QaradawiBooks.com

وقال أبو سليمان: الفكرُ في الدنيا حجابٌ عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية، والفكرة في الآخرة تورث الحكمة وتُجلي القلوب(١).

وقال ابن عبَّاس: التَّفَكُّر في الخير يدعو إلى العمل به.

وقال الحسن: إنَّ أهل العلم لم يزالوا يعودون بالذِّكْر على الفِكْر، وبالفكر على الذِّكْر، ويُناطقون القلوبَ، حتَّى نطقت بالحكمة(٢).

ومن كلام الشافعي: استعينوا على الكلام بالصمت، وعلى الاستنباط بالفِكْر(٣).

قال العلَّامة ابن القَيِّم: «وهذا لأنَّ الفكرةَ عملُ القلب، والعبادة عملُ الجوارح، والقلب أشرفُ من الجوارح، فكان عملُه أشرفَ من عمل الجوارح.

وأيضًا فالتَّفَكُّر يُوقع صاحبه من الإيمان على ما لا يوقعه عليه العمل المجرَّد، فإنَّ التَّفَكُّر يوجب له من انكشاف حقائق الأمور، وظهورها له، وتميُّز مراتبها في الخير والشرِّ، ومعرفة مفضولها من فاضلها، وأقبحها من قبيحها، ومعرفة أسبابها الموصلة إليها، وما يقاوم تلك الأسباب ويدفع موجِبَها، والتمييز بين ما ينبغي السَّعْي في تحصيله وبين ما ينبغي السَّعْي في دفع أسبابه، والفرق بين الوهم والخيال المانع لأكثر النفوس من انتهاز الفرص بعد إمكانها، وبين السبب المانع حقيقة، فيشتغل به دون الأول، فما قطع العبد عن كماله وفلاحه وسعادته العاجلة والآجلة قاطع أعظم من الوَهْم الغالب على النَّفْس والخيال الَّذي هو مركبها، بل بحرها الَّذي لا تنفكُّ سابحة فيه، وإنَّما يقطع هذا العارض بفكرةٍ صحيحة وعزمٍ صادق

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢٧٨/٩).

(٢) المصدر السابق (١٩/١٠).

(٣) إحياء علوم الدين (٤٢٤/٤، ٤٢٥).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

يميِّز به بين الوهم والحقيقة، وكذلك إذا فكَّر في عواقب الأُمور، وتجاوز فِكْرَه مبادئَها؛ وضعها مواضعها، وعلم مراتبها، فإذا ورد عليه وارد الذنب والشهوة، فتجاوز فِكْرَه لذَّته وفرحَ النَّفْس به إلى سوء عاقبته، وما يترتَّب عليه من الألم والحزن الَّذي لا يُقاوم تلك اللـذَّةَ والفرحة، ومَنْ فَكَّر في ذلك، فإنَّه لا يـكاد يُقْدِم عليه، وكذلـك إذا ورَد على قلبـه وارد الراحة والدَّعَة والكسل والتقاعد عن مشقَّة الطاعات وتعبها حتَّى عَبَر بفكره إلى ما يترتَّب عليها من اللذَّات والخيرات والأفراح الَّتي تغمر تلك الآلام الَّتي في مبادئها بالنسـبة إلى كمال عواقبها، وكلَّما غاص فِكْرُه في ذلك اشتدَّ طلبُه لها، وسَهُل عليه معاناتها، واستقبلها بنشاطٍ وقوَّةٍ وعزيمة»(١).

قال ابن القَيِّم(٢): «إذا عُـرف هذا، فالفِكْر هو إحضـار معرفتين في القلب، ليستثمر منهما معرفة ثالثة.

ومثال ذلك: إذا أحضر في قلبه العاجلةَ وعَيْشَها ونعيمَها وما يقترن به من الآفات وانقطاعه وزواله، ثم أحضر في قلبه الآخِرَةَ ونعيمَها ولذَّاتها ودوامَه، وفضَّله على نعيـم الدنيا، وجزم بهذيـن العِلْمين أثمر له ذلك عِلْمًا ثالثًا، وهو أنَّ الآخرةَ ونعيمَها الفاضـلَ الدائمَ أولى عند كلِّ عاقلٍ بإيثاره من العاجلة المُنْقطعة المُنَغَّصة».

ثُمَّ له في معرفة الآخرة حالتان:

إحداهما: أن يكون قد سمع ذلك من غيره من غير أن يباشر قلبَه برْدَ اليقين به ولم يُفْض قلبـه إلى مكافحة حقيقة الآخـرة، وهذا حال أكثر الناس، فيتجاذبه داعيان:

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/١٨٠، ١٨١)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) وما قاله هنا تلخيص لما قاله الغزالي في كتاب التفكر من «الإحياء» مع تنقيح وزيادة.

QaradawiBooks.com

أحدهما: داعي العاجلــة وإيثارها، وهو أقــوى الداعييْن عنده؛ لأنَّه مُشَاهَد له محســوس، وداعي الآخرة، وهو أضعف الداعِيَيْن عنده؛ لأنه داعٍ عن سماعٍ، لم يُبَاشر قلبُه اليقينَ به، ولا كافحه حقيقته العِلْمِيَّة، فإذا تركَ العاجلةَ للآخرةِ تُريه نَفْسُــه بأنَّه قد ترك معلومًا لمظنونٍ أو متحقِّقًا لموهومٍ، فلسانُ الحال ينادي عليه: لا أدعُ ذَرَّة منقودة لدُرَّة موعودة!

وهذه الآفة هي الَّتي منعت النفوس من الاستعداد للآخرة، وأن يسعى لها ســعيها. وهي من ضعفِ العالم بها وتيقُّنهــا، وإلَّا فمع الجزم التامِّ الَّذي لا يخالج القلب فيه شــكٌّ، لا يقع التهاون بها وعدم الرغبة فيها، ولهذا لو قُدِّم لرجلٍ طعام في غاية الطِّيب واللذَّة وهو شديدُ الحاجة إليه، ثم قيل له: إنَّه مسموم. فإنَّه لا يُقدم عليه، لعلمه بأنَّ سوءَ ما تجني عاقبة تناوله تربُو في المضرَّة على لذَّة أَكْله.

فمال بال الإيمان بالآخرة لا يكون في قلبه بهذه المنزلة؟! ما ذاك إلَّا لضعف شجرة العلم والإيمان بها في القلب وعدم استقرارها فيه.

وكذلك إذا كان سائرًا في طريق فقيل له: إنَّ بها قطَّاعًا ولصوصًا يقتلون من وجدوه، ويأخذون متاعه، فإنَّه لا يسلكها إلَّا على أحد وجهين: إمَّا ألَّا يُصَدِّق المُخْبِر، وإمَّا أن يثق من نفســه بغلبتهم وقهرهم والانتصار عليهم، وإلَّا فمع تصديقه للخبر تصديقًا لا يُتمارى فيه، وعلمِه من نفســه بضعفه وعجزه عن مقاومتهم، فإنَّه لا يســلكها، ولو حصل له هذان العلمان فيما يرتكبه من إيثار الدنيا وشــهواتها، لم يُقــدم على ذلك، فعلــم أنَّ إيثاره للعاجلة وترْكَ استعداده للآخرة لا يكون قطُّ مع كمال تصديقه وإيمانه أبدًا.

الحالة الثانية: أن يتيقَّن ويجزم جزمًا لا شــكَّ فيه بأنَّ له دارًا غير هذه الدار، ومعادًا له خُلــق، وأنَّ هذه الدار طريق إلــى ذلك المَعاد،

QaradawiBooks.com

ومنزل من منازل السائرين إليه، ويعلم مع ذلك أنَّها باقية، ونعيمها وعذابها لا يزول، ولا نسبة لهذا النعيم والعذاب العاجل إليه إلَّا كما يُدخل الرجل أصبعه في اليم ثم ينزعها(١)، فالذي تعلق بها منه هو كالدنيا بالنسبة إلى الآخرة، فيثمر له هذا العلم إيثارَ الآخرة وطلبها والاستعداد التامَّ لها، وأن يسعى لها سعيها، وهذا يسمَّى تفكُّرًا وتذكُّرًا ونظرًا وتأمُّلًا واعتبارًا وتدبُّرًا واستبصارًا، وهذه معانٍ متقاربة تجتمع في شيء وتتفرَّق في آخر.

ويسمَّى تفكُّرًا؛ لأنَّه استعمال الفكرة في ذلك وإحضاره عنده.

ويسمَّى تذكُّرًا؛ لأنَّه إحضار للعلم الَّذي يجب مراعاته بعد ذهوله وغيبته عنه، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

ويسمَّى نظرًا؛ لأنَّه التفات بالقلب إلى المنظور فيه.

ويسمَّى تأمُّلًا؛ لأنَّه مراجعة للنظر كرّةً بعد كرَّة حتَّى يتجلَّى له وينكشف لقلبه.

ويسمَّى اعتبارًا وهو افتعال من العبور؛ لأنَّه يعبر منه إلى غيره، فيعبر من ذلك الَّذي قد فكر فيه إلى معرفة ثالثة، وهي المقصود من الاعتبار، ولهذا يسمَّى عبرة وهي على بناء الحالات كالجِلسة والرِّكبة والقِتلة إيذانًا بأنَّ هذا العلم والمعرفة قد صار حالًا لصاحبه يَعْبُر منه إلى المقصود منه.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٦]، وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [النور: ٤٤].

(١) إشارة إلى حديث: «**والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه...**»، سبق تخريجه صـ١٤.

QaradawiBooks.com

ويسمَّى تدبرًا: لأنَّه نظر في أدبار الأمور، وهي أواخرها وعواقبها، ومنه تدبُّر القول. وقال تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ٨٢].

وتدبُّر الكلام: أن ينظر في أوله وآخره، ثم يعيد نظره مرَّة بعد مرَّة، ولهذا جاء على بناء التفعُّل كالتجرُّع والتفهُّم والتبيُّن.

وسمِّي استبصارًا، وهو استفعال من التبصُّر، وهو تبيُّن الأمر وانكشافه، وتجلِّيه للبصيرة.

وكلٌّ من التذكُّر والتَّفَكُّر له فائدة غير فائدة الآخر، فالتذكر يفيد تكرار القلب على ما علمه وعرفه ليرسخ فيه ويثبت ولا ينمحي فيذهب أثره من القلب جملة، والتَّفَكُّر يفيد تكثير العلم واستجلاب ما ليس حاصلًا عند القلب، فالتفكُّر يحصِّله والتذكُّر يحفظه.

ولهذا قال الحسن: ما زال أهل العلم يعودون بالتذكُّر على التَّفَكُّر، وبالتَّفَكُّر على التذكُّر، ويُناطقون القلوبَ حتَّى نطقت بالحكمة[1]. فالتَّفَكُّر والتذكُّر بذَار العلم، وسقيُه: مطارحته، ومذاكرته: تلقيحه. كما قال بعض السَّلَف: ملاقاةُ الرجالِ تلقيحٌ لألبابها[2]. فالمذاكرة بها لقاح العقل.

فالخير والسعادة في خزانةٍ مفتاحها التَّفَكُّر؛ فإنَّه لا بدَّ من تفكُّر، وعلمٍ يكون نتيجة الفكر، وحالٍ يَحْدُثُ للقلب من ذلك العلم، فإنَّ كلَّ مَنْ علم شيئًا من المحبوب أو المكروه لا بدَّ أن يبقى لقلبه حالة، وينصبغ بصبغةٍ من علمه، وتلك الحال توجب له إرادة، وتلك الإرادة توجب وقوع العمل.

(١) سبق تخريجه صـ٤٩.

(٢) رواه أبو طاهر السلفي في الطيوريات (٥٢٢).

QaradawiBooks.com

فهاهنا خمسة أمور: الفكر وثمرته العلم، وثمرتهما الحالة الَّتي تحدث للقلب، وثمرة ذلك الإرادة، وثمرتها العمل. فالفكر ـ إذن ـ هو المبدأ والمِفْتاح للخيرات كلِّها.

وهذا يكشف لك عن فضل التَّفَكُّر وشرفه، وأنَّه من أفضل أعمال القلب وأنفعها له، حتَّى قيل: تفكُّرُ ساعةٍ خيرٌ من عبادة سنة[1]. فالفكر هو الَّذي ينقل من موت الغفلة إلى حياة اليقظة، ومن المكاره إلى المحابِّ، ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة، ومن سجن الدنيا إلى فضاء الآخرة، ومن ضيق الجهل إلى سَعَة العلم ورحْبه، ومن مرض الشهوة والإخلاد إلى هذه الدار إلى شفاء الإنابة إلى الله والتجافي عن دار الغرور، ومن مصيبة العَمى والصَّمم والبَكَم إلى نعمة البصر والسمع والفهْم عن الله والعقْل عنه، ومن أمراض الشبهات إلى بَرْد اليقين وثَلَج الصدور.

وبالجملة، فأصل كلِّ طاعة إنَّما هي الفكر، وكذلك أصل كل معصية إنَّما يحدث من جانب الفكرة؛ فإنَّ الشيطان يصادف أرض القلب خالية فارغة، فيبذر فيها حَبَّ الأفكار الرَّدِيَّة، فيتولَّد منه الإرادات والعزوم، فيتولَّد منها العمل، فإذا صادف أرض القلب مشغولة ببَذْر الأفكار النافعة فيما خُلِقَ له، وفيما أُمِرَ به، وفيما هيِّئ له وأُعِدَّ له من النعيم المقيم أو العذاب الأليم، لم يجد لبَذْره مَوْضعًا. وهذا كما قيل:

أَتَاني هَوَاها قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الهَوَى ... فصادفَ قلبًا فارغًا فتمكَّنا[2]!

---

(١) سبق تخريجه صـ٤٣.

(٢) انظر: مفتاح دار السعادة (١/١٨١ ـ ١٨٣). والبيت ليزيد بن الطثرية وينسب لغيره، انظر: شعره صـ ٩٥، صنعة حاتم صالح الضامن، نشر مطبعة أسعد، بغداد.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الدعوة إلى التذكُّر والاعتبار

وكما رأينا القرآن دعـا وأكَّد الدعوة إلى التَّفَكُّـر، رأيناه كذلك دعا وأكَّد الدعوة إلى التذكُّر.

والتذكُّر من عمليات العقل العليا، والذاكرة هي الخزانة الَّتي يحتفظ الإنسان فيها بمعارفه ومعلوماته، ليستجلبها عند الحاجة.

ولا يستغني الإنسـان عن الذاكرة والتَّفكُّر في حياتـه الدنيويَّة أو الدينيَّة، ومن فقد ذاكرته فإنَّما فقد نفسه؛ لأنَّه أصبح بلا ماضٍ ولا تاريخ.

والفرق بين التَّفَكُّر والتذكُّر: أنَّ التفكُّر يعمل لتحصيل معرفة جديدة، والتذكُّر يعمل لجلب معرفة قديمة ذُهِلَ عنها، أو غشيتها الغفلة والنسيان.

والغفلة شرُّ داء يصيب الإنسان، فيذهله عن الحقائق الكبيرة والمهمات الخطيرة حتَّى ينساها تمامًا، وكأنَّه لا يعرفها أو لا يعلم عنها شيئًا.

ولهذا وصف الله الكفَّار من أهل جهنَّم الَّذين عطَّلوا أدوات المعرفة عندهم من القلوب والأبصار والأسماع بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، فدلَّ علـى أنَّ الغفلة هي أصل الداء وجرثومة البلاء.

وقال عن أمثالهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [النحل: ١٠٨].

نسخة تجريبية

وَوصف أكثر النَّاس بقولـه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٦، ٧].

وقال عن فرعونَ وجنوده: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

وقد يعبِّر القرآن عن هذه الغفلة بالنسيان، الَّذي يصيب بعض النَّاس حتَّى إنَّه لينسى ربَّه الَّذي خلقه فسوَّاه، وأسبغ عليه نعمهُ ظاهرة وباطنة.

قال تعالى في وصف المنافقين: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧]. والله تعالى لا ينسى، كما قال على لسان موسى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]، وإنَّما يعني نسيانُه لهم: الإهمالَ والترك، فيكونون كالشيء المنسيِّ المهمل.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩].

لقد كانت عقوبةُ الله تعالى لهم على نسيانهم له أن أنساهم أنفسهم وذواتِهم، وأيُّ عقوبة أعظم، وأيُّ مصيبة أكبر من أن ينسى الإنسان حقيقة نفسه فلا يعرف لها غايةً في الوجود ولا رسالةً في الحياة، ولا يجد فرقًا بينهم وبين الأنعام؟ فهو يعيش في هذه الدار ميتًا وهو في صورة الحي، معدومًا وهو في عِداد الموجودين.

ومن أجل هذا كان من مهمَّة الرسول «التذكير» كما أنَّ من مهمته الإنذار والتبشير، قال تعالى لرسوله: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ﴾ [الغاشية: ٢١]، كما قال له: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞ﴾ [هود: ١٢].

وقال سبحانه: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]،

QaradawiBooks.com

﴿ فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴾ [الأعلى: ٩]، ﴿ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [قٓ: ٤٥].

ومن هنا سُمِّيَ القرآن «تذكرة» في أكثر من آية: ﴿طه ۞ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۞ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ﴾ [طه: ١ ـ ٣].

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [الحاقة: ٤٨].

﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ۞ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ [المدثر: ٥٤، ٥٥].

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴾ [المزمل: ١٩، والإنسان: ٢٩].

ولقد تكرَّر في سورة القمر قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴾ [القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠].

وأحيانًا يعبَّر عن القرآن وآياته بأنَّه «ذكرى».

قال تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٩٠].

﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٢].

فهو ذكرى للعالمين عمومًا من حيث هدف إنزاله، وذكرى للمؤمنين خصوصًا من حيث الانتفاع به.

﴿ وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [هود: ١٢٠].

والكتب السـماويَّة كلُّها تحمل هذه الذكرى لمن يعقلونها، كما قال تعالى:

QaradawiBooks.com

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ۝ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [غافر: ٥٣، ٥٤]، بل آياتُ الله تعالى في الآفاق وفي الأنفس وسننه في الكون والمجتمع، وأحداثُه في التاريخ ومصاير الأمم، كلها موضع للذكرى والتذكر مثل آياته المنزَّلة في كتبه على رُسله.

يقـول تعالـى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٢١].

وقال تعالى بعد أن ذكر السـماء والأرض والجبال والنبات، وكيف أحسن الله خلقها وأتقن صُنْعَها: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [قَ: ٨].

وقال تعالى فـي قصَّة أيُّوب وكيف عافاه الله بعد ابتلاء وشـفاه بعد سقم، وكشف ما به من ضرٍّ وأعاد إليه أهله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [صَ: ٤٣].

وقد تكرر في القرآن مراتٍ عدَّة: أنَّ التذكُّر من صفات أولي الألباب، بل إنَّه مقصور عليهم مخصوص بهـم؛ كما تفيده صيغة «إنَّما» أو صيغة «ما» و«إلَّا».

يقول تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد: ١٩].

QaradawiBooks.com

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

فالتذكر هنا مثل التَّفكُّر يشمل عالم الخلق وعالم الأمر، يشمل آيات الله المنظورة وآياته المسطورة، آياته في المصحف الصامت وهو: **الكون**، وآياته في المصحف الناطق وهو: **القرآن**.

يؤكد هذا قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

﴿هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

فالتذكُّر إذن من عمل العقلاء أولي الألباب، لا من عمل غيرهم، فهم الَّذين يتفكَّرون ويتذكَّرون.

وقد قال الإمام الغزالي: «فكلُّ متفكِّر متذكِّر، وليس كلُّ متذكِّر متفكِّرًا.

وفائدة التذكُّر أو التَّذْكار: تكرار المعارف على القلب، واسترجاع ما فات منها بالذهول والنسيان والغفلة؛ لترسخ وتثبت ولا تنمحي عن القلب.

وفائدة التَّفَكُّر: تكثير العلم، واستجلاب معرفةٍ ليست حاصلة من قبل، فهذا هو الفرق بين التذكُّر والتَّفَكُّر(١).

ولقد حضَّ القرآن على التذكُّر في آيات وفيرة بهذه الصيغة الخاصة المحرِّضة: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أو ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

نقرأ في ذلك قوله تعالى على لسان الخليل إبراهيم في مُحاجَّة قومه: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠].

(١) انظر: إحياء علوم الدين (٤/٤٢٦) وما بعدها.

QaradawiBooks.com

وقوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: ٤].

وفي موضع مماثل يقول: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣].

ويقول تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٤].

وفي مقام آخر: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧].

وفي مقام المحاورة مع المشركين: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤، ٨٥].

وفي حوار آخر: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الصافات: ١٥٣ ـ ١٥٥].

وفي موضع آخر: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

كما بيّنت الآيات الكريمة أنَّ التذكُّر كان هو العلّة المرجوّة من كثير ممَّا أنزل الله أو ما فصَّله أو ما بيّنه من آيات وأحكام، وما صنعه في خلقه من أحوال وأفعال. اقرأ في ذلك: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ١].

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

QaradawiBooks.com

﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١].

﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧].

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨].

﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٥].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٣].

﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٦].

ومع هذا التَّحضيض والتحريض، ومع هذا البيان وضرب الأمثال فإنَّ القرآن يقرِّر أنَّهم قليلًا ما يتذكَّرون، فالغفلة هي الغالبة، والنسيان هو المتحكِّم.

يقول سبحانه: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٦].

ويقول تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

ويقول عن التوحيد: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

ويقول عن القرآن: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة: ٤١، ٤٢].

QaradawiBooks.com

هذه الحملة القرآنيَّة المكثَّفة من أجل الدعوة إلى «التذكُّر» بهذه الأساليب المتنوِّعة والصور الجمَّة المتعدِّدة تدلُّنا على ضرورة التذكُّر للإنسان في الحياة عامة وفي الحياة الدينيَّة خاصة.

فإنَّما يستفيد من نور الوحي، ومن هداية الله، ومن هدي رسوله، من تذكَّر فنفعته الذكرى، فخشي الله تعالى، كما قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعلى: ١٠].

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ [عبس: ٣، ٤].

وقال تعالى في وصف عباد الرحمٰن: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣].

وقال في وصف المُتَّقين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

أي: تذكروا جلال الله تعالى وعظمتَه، واطِّلاعه عليهم ووقوفهم غدًا بين يديه، فإذا هم مبصرون للغاية، مبصرون للطريق، مبصرون لما يجيب ولما هم فيه، وهذا الإبصار هو الَّذي يُضيء لهم السبيل، ويكفُّهم عن السير في ركاب الشيطان.

يقول العلَّامة الزَّبيدي في «شرح الإحياء» في بيان أهمية التذكر:

«اعلم أنَّ القلب إذا انتبه من غفلته، وتيقظ من رقدته، تذكر ما كان نسيه وانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣] فجعل الإنابة شرطًا للانتفاع بالتذكر، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، فجعل للتذكر ثلاثة أسباب: إلقاء السمع، وحضور القلب، وشهوده للفهم.

QaradawiBooks.com

فعلى هذا يكون حقيقة التذكُّر استدعاء ما كان موجودًا عنده، ثم نسيه، وتكراره على القلب حتَّى يثبت ويرسخ.

وسبب ذلك: أنَّ العلوم كلها مركوزة في النفوس بالفطرة، وهي كامنة فيها ككمون النار في الحجر، والنخلة في النواة، وذلك أنَّها قابلة لإدراك العلوم كلِّها، فالمُعلِّم لا يُحدث لها شيئًا من خارج، وإنَّما يخرج بالتعليم ما هو كامن فيها، وإنَّما طرأ عليه النسيان بسبب اغترابها في عالم الشهادة؛ عالم الخيال والظلمة، فمتى سكت عنها حركة الخيال وظلمة الشهوات تجلى لها عالمها الَّذي هو من أمر الله تعالى المنزَّه عن الخيالات والأوهام، وعن الجهات والمقدار، فحينئذٍ تذكر ما أودعه عندها سيِّدها ومالكها وهاديها من الاعتراف بوجوده ووحدانيَّته، وكلِّ صفة تليق بعظمته وكبريائه، فمن حُرِمَ مثل هذا الاستبصار فقد خاب من الرحمة بطريق النظر والاعتبار؛ فإنَّه تعالى أمرنا على لسان أنبيائه عليهم السلام بالتذكار، ثم لم يَكِلْنا إلى أنفسنا حتَّى نبَّهنا فقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ [صٓ: ٦٥، ٦٦].

والتذكُّر يتعلَّق بالعقد والقول والفعل والترك، وهو واجب فيما يجب من ذلك.

وما دام المريد مفتقرًا إلى التَّفَكُّر فلا بدَّ من التذكُّر؛ لأنَّ التفكُّر هو استمداد الأنوار من الأذكار، وبشرف التذكُّر يشرف متعلَّقه.

وعلامة صحة التذكَّر: موافقة الشرع في جميع مراتبه، فمتى وقع له غير ذلك فليعلم خطأه»[١].

(١) إتحاف السادة المتقين شرح إحياء علوم الدين للسيد مرتضى الزبيدي (٣١٦/١٣)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

شهادات المنصفين من المفكرين الغربيين بعقلانية القرآن

إنَّ العقلانيَّة في القــرآن أمر واضح تمام الوضــوح لا يخطئه أيُّ قارئ للقرآن بريء من العصبية والتقليد، بل يجدها مبثوثة في ثنايا ســوره مكِّيَّة كانت أو مدنيَّة، وهذا ما وجدنا كثيرين من غير المســلمين شهدوا به، وآخر من قرأنا لهم ذلك ما قاله كبير المستشرقين الفرنسيين المعاصرين ـ أو كما يعبر هو عن نفسه بأنَّه «مستعرب» وليس «مستشرق» ـ وهو العالم الاجتماعي الكبير المعروف في عالم الفكر والثقافة الأســتاذ «جاك بيرك» الَّذي ترجم معاني القرآن إلى اللغة الفرنســيَّة، بعد أن قضى في ذلك عشــرين عامًا أو تزيد، وقال في ذلك: «لقد تبيَّنت لي بوضوح عقلانيَّة القرآن في كل ســورة من سوره وفي كل آية من آياته، وذلك ثمرة مصاحبة ومعايشة طويلة للقرآن».

وهناك شــهادة أخرى أكثر تفصيلًا وبيانًا نجدها فــي فصل العقيدة القرآنيَّة مــن كتاب الكاتــب اليهودي الماركســي الفرنســي المعروف «ماكسيم رودنســون» الَّذي ألَّفه عن «الإسلام والرأسمالية»، فرغم ما في الكتاب من مآخذ نجده ينصف الإســلام أو القرآن في هذا الجانب، ولا بأس أن أنقل بعض فقرات من هذا الفصل.

يقول «رودنسون»: «القرآن كتاب مقدَّس تحتلُّ فيه العقلانيَّة مكانًا جِدّ كبير، فالله لا ينفك فيه يناقش ويقيم البراهين، بل إنَّ أكثر ما يلفت النظر

نسخة إلكترونية

QaradawiBooks.com

هو أنَّ الوحي نفسه، هذه الظاهرة الأقل اتسامًا في العقلانيَّة في أي دين، الوحي الَّذي أنزله الله على مختلف الرسل عبر العصور وعلى خاتمهم محمد، يعتبره القرآن هو نفسه أداةً للبرهان، فهو في مناسبات عديدة يكرِّر لنا أنَّ الرسل قد جاؤوا بالبيِّنات(١).

فإذا تساءلت: ما الَّذي يضمن صحَّة الدلالة في هذه البيِّنات بدا لك أنَّ هذه الضمانة ـ لدى محمد ـ تكمن في معايير من التلاحم الداخلي من التوافق الجوهري بين مختلف ما أُنزل من وحي في حِقب مختلفة على شعوب مختلفة، وبواسطة رسل مختلفين، بل إنَّ الوحي الَّذي أنزل على محمد نفسه يضمنه أنَّه متماثل جوهريًّا مع الوحي الَّذي أنزل على غيره من قبل(٢).

والذي يبدو له أمرًا وثَّقه التاريخ وهو لا يألو يتَّحدى معارضيه أن يأتوا بوحي مثله(٣)؛ وحي يحمل نفس السِّمات الإلٰهية شكلًا ومضمونًا: أن يأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى ممَّا أنزل على موسى وعلى محمد(٤).

فإذا لم يقبلوا بهذه المعايير ففي المستطاع اللجوء إلى محاكمة تماثل «الرهان» المعروف لدى «باسكال»، وذلك هو ما يفعله «مؤمن من آل

---

(١) كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [المائدة: ٣٢].

(٢) كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣]، وقوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

(٣) كما في قوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤]، وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٣٨].

(٤) يشير إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [القصص: ٤٩].

QaradawiBooks.com

فرعون يكتم إيمانه» دفاعًا عن موسى: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ﴾ [غافر: ٢٨].

والقرآن ما ينفك يُقَدِّم البراهين العقلانيَّة على القدرة الإلٰهيَّة: ففي خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار، وتولُّد الحيوان ودوران الكواكب والأفلاك، وتنوُّع خيرات الحياة الحيوانيَّة والنباتيَّة تنوعٌ رائع التطابق مع حاجات البشر: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠](١).

وأحد الأمثلة النموذجيَّة على هذه المحاكمات، نجده في دحض ناموس التثليث المسيحي، فالقرآن يرفض هذا الناموس استنادًا إلى ما كان محمَّد ﷺ يعتقد أنَّه التاريخ(٢)، وإلى ما ينسب للمسيح ذاتِه من قول ينفي به عن نفسه صفة الألوهيَّة، وليس هذا فحسْب، بل إنَّ المسيحيين مدعوون إلى أن «لا يغلوا» في دينهم فلا يقولوا بما لا يعقل: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٧١]، و﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ﴾ [المائدة: ٧٥].

ولكنَّهما كانا بشرًا كالآخرين: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥]، و﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ

(١) والصواب الإشارة للآية ١٦٤ من سورة البقرة: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فهي التي تتطابق ما ذكره الكاتب.

(٢) ينطلق الكاتب من فكرة مسلَّمة عنده وعند كل المستشرقين، وهي بشرية القرآن، وأنَّ محمدًا مؤلفه، وكل الدلائل تكذب هذه الفكرة الزائفة، وليس هنا موضع مناقشتها.

QaradawiBooks.com

﴿فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ١٧]، ولذلك: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ [النساء: ١٧١].

يقول المؤلف: وفعل «عقل» ـ بمعنى: ربط الأفكار بعضها ببعض، حاكم، فهم البرهان العقلي ـ يتكرَّر في القرآن حوالي خمسين مرَّة، ويتكرر ثلاث عشرة مرَّة هذا السؤال الاستنكاري وكأنَّه لازمة: «أفلا تعقلون؟». والكفَّار أولئك الَّذين يرفضون الاستماع إلى دعوة محمَّد ﷺ يوصفون بأنَّهم «قوم لا يعقلون»؛ لأنَّهم قاصرون عن أيِّ جهد عقليٍّ يهزُّ تقاليدهم الموروثة[1]، وهم بهذا كالعجماوات الأنعام، بل أكثر عجمة[2].

ولذلك كان الأب «هنري لامنس» على حقٍّ في قوله: «إنَّ محمدًا ليس بعيدًا عن اعتبار الكفر عاهة من عاهات الفكر البشري»!

فالكفار ـ ككلِّ المحافظين في كل العصور ـ يقولون: إنَّه يكفيهم أن يتَّبعوا ما كان عليه آباؤهم، ومحمَّد ـ ككلِّ المجدِّدين ـ تستثيره هذه الحماقة: أفلا يدركون أنَّ آباءهم قد أهملوا فكرهم قبل أن يضعوا قواعد حياتهم[3]؟

(١) كما في قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يونس: ٤٢، ٤٣].

(٢) ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]، ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۝ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣، ٤٤].

(٣) كقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

QaradawiBooks.com

ولذلك يكره الله هؤلاء النَّاس الَّذيـن لا يريدون أن يعيدوا النظر في أسس تفكيرهم(١).

ولئن كان يرسل الآيات على وجوده وإرادته، وأهمُّها الآيات المنزلة على نبيه محمد فلكي يفهمها الناس، ويجعلوا منها أساسًا لتفكيرهم(٢).

ونرى الله يقدِّم البيِّنة الفاصلة، ثم يختتم البرهان بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨].

ولما كان الإنسان حرًّا فأقصى ما يسع الله فعله هو أن يضع أمامه هذه الآيـات، هذه البيِّنات الَّتي سـتكون حاسـمة قاطعة بمجرد أن يُعملوا حواسَّهم وملَكة المحاكمة فيهم، فإن فعلوا فلعلَّها تهديهم إلى الإيمان(٣).

فإنِ اهتدَوا كانوا «عالِمين»(٤)، وكان لهم نصيب ممَّا جاء الرسول من العلم(٥).

---

(١) كقوله: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢].

(٢) كقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٩]، ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ۝ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٤، ٣٥]، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣].

(٣) ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

(٤) ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

(٥) ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠]، ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦٠، ٦١].

QaradawiBooks.com

هذا العلم الَّذي هو نقيض الجاهليَّة والجهل؛ جهل الإنسان البدائي قبل الوحي(١) الَّذي يأتي بالحق والصدق(٢).

وأمَّا من ظلَّ على كفره فهو الجاهل بإرادته ذلك الَّذي ﴿يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ [الحج: ٨، لقمان: ٢٠].

ولأمثال هذا يجب أن يقال: ﴿هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

على أنَّ الفهم العقلي للحقيقة لا يكفي وحده، فيهود المدينة مثلًا كانوا يفهمون الدعوة كل الفهم ولكنَّهم كانوا لا يلبثون أن يحرفوها عامدين(٣).

وكذلك ينبغي الانتقال من العقل المحض إلى العقل العملي، وإدراك أنَّ الخير والمصلحة هما في اتباع ما أمر به الله، والالتحام بالجماعة الَّتي يبنيها رسوله بأمر منه»(٤).

وينقل «رودنسون» عن دراسة لـ «شارل توراي» عن مصطلحات اللاهوت في القرآن قوله: «من الصعب أن يتصوَّر المرء لاهوتًا أكثر «دقَّة

---

(١) ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]، ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤].

(٢) ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ٢]، ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣].

(٣) ﴿أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

(٤) انظر: الإسلام والرأسمالية صـ ١٣٤ ـ ١٣٨، فصل: العقيدة القرآنية، ترجمة نزيه الحكيم، نشر دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٦٨م.

QaradawiBooks.com

رياضية»، ودقَّة الرياضيات تفترض العقلانيَّة، وهذا بالطبع لا يعني أنَّ كلَّ الأشياء في هَذْي العقيدة القرآنيَّة تُدْرك بالعقل، فكثير منها لا يبلغه العقل، وهذه بالذات آية من آيات الله على قدرته، وعلى إحاطة علمه، وهذه الأشياء الَّتي لا قبل للعقل البشري أن يدركها بقوته وحدها، يكشف الله للناس عن بعضٍ منها بواسطة أنبيائه، أمَّا باقيها فيظل إلى الأبد في عالم الغيب، ومهمة العقل هي أن يفهم صدق ما تقوله رسالات الرسل عن المجهول الَّذي لا طاقة له على معرفته، وأن يدرك أيضًا أنَّ مصلحته هي في إطاعة تعاليمهم.

وهنا ـ بالطبع ـ يظهر الإيمان هذا العنصر اللاعقلاني والضروري مع ذلك لكل دين وربما لكل عقيدة غير دينيَّة فأنت واجد أناسًا يبدون متماثلين في المواهب متماثلين في الظروف، ثم يقفون أمام ظاهرة واحدة فتكون لهم مواقف مختلفة، بعضهم يؤيد وبعضهم ينكر، بعضهم يؤيد بجماع قلبه، وبعضهم بطرف لسانه ولا معدى لنا عن تفسير لهذا الاختلاف، فإذا نحن كافحنا غير المؤمنين فلا بدَّ لنا كيما ندينهم ونتوعَّدهم بالعقاب من أن نعترف لهم ببعض المسؤولية في رفض الإيمان وهذا ـ في الأديان يصطدم بناموس القوة الإلٰهية المطلقة، ويضع المرء أمام معضلة لا حلَّ لها هي معضلة الخيار بين اتهام السماء بالعجز النسبي وبين اتهامها بالظلم.

أمَّا فكرة الإيمان في القرآن فتقف عند الاعتصام العنيد عبر فعل إرادي يأخذ بجماع النفس، بهذا الإيمان الَّذي منحه الله مجانًا لعباده.

ولكنَّ الإيمان يظل على صلة مباشرة بالاقتناع العقلي، وآية ذلك: أنَّ كافرين ظلوا دهرًا طويلًا على كفرهم، فأنزل الله من آياته مصائب

QaradawiBooks.com

حاقت بهم، فكفروا بإشراكهم الماضين وقال الله: إنَّهم أصبحوا مؤمنين ثم أضاف أنَّهم آمنوا بعد فوات الأوان، فلن ينجيهم إيمانهم من العذاب(١).

إنَّ الآيات الَّتي تروي ذلك تحمل الدليل على أنَّ هنالك تماثلًا بين الإيمان وبين الاقتناع «العقلاني» أمام البينة، وما يفعله الله هو الإذن للبينة الموضوعية بأن تحدث أثرها المقنع(٢).

وجدير بالتأمُّل أنَّ نفس الآية الَّتي تبرر التسامح وتشير إلى هذه المشيئة الربانيَّة، تتحدَّث في الوقت نفسه عن العقل والاقتناع العقلاني: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ۝ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ٩٩، ١٠٠]»(٣).

وبعد حديث طويل عن العهدين القديم والجديد وموقف الآباء والأحبار من العلاقة بين الإيمان والعقل، ينقل عن القدِّيس الشهير «توما الأكويني» في القرن الثالث عشر الميلادي قوله: «إنَّ صفات الله غير المرئيَّة يحيط بها الإيمان بطريقة لا يستطيعها العقل الطبيعي حين يرقى من المخلوقات إلى الخالق».

(١) ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ۝ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥]، ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

(٢) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٧ ـ ٢٩].

(٣) الإسلام والرأسمالية صـ ١٣٩، ١٤٠.

QaradawiBooks.com

مثلًا إذا رفض المرء ـ أو لم يرد حقًّا ـ أن يؤمن إلَّا بواســطة العقل الإنساني فإنَّ إدخال العقل يحطُّ من قدر الإيمان».

ويعقِّب «رودنسون» على ذلك بقوله: «في مقابل هذا تبدو العقلانيَّة القرآنيَّة صلبة كأنَّها الصخر»[1].

* * *

(١) الإسلام والرأسمالية صـ ١٥٠.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الفصل الثاني

فضل العلم ومنزلة العلماء في القرآن

- معنى العلم وأقسامه.
- فضل ومنزلة أهله في القرآن.
- كل الأنبياء آتاهم الله العلم.
- الصلة بين العلم والإيمان.

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

- العلم سبيل اليقين.
- العلم شرط لكل منصبٍ قياديٍّ.
- ذمُّ كل أمر قام على غير علم.
- العلم المذموم في القرآن.

QaradawiBooks.com

فضل العلم ومنزلة العلماء في القرآن

مادة «ع ل م» في القرآن:

من قرأ القرآن الكريم وجد مادة «ع ل م» تشيع في سوره المكيَّة والمدنيَّة على سواء، بكل مشتقَّاتها اسمًا وفعلًا ومصدرًا، مئات المرات.

ففعل «تعلمون» في خطاب الجمع تكرر ٥٦ مرَّة، بالإضافة إلى ٣ مرات بصيغة «فستعلمون»، و٩ مرات بصيغة «تعلموا»، و٨٥ مرَّة بصيغة «يعلمون»، و٧ مرَّات «يعلموا»، ونحو ٤٧ مرَّة تكرَّر فعل «علم» وما يُشتقُّ منه وما يتعلَّق به.

كما تكرَّرت صفة «عليم» مُعرَّفة ومُنكَّرة (١٤٠) مرَّة، وكلمة «علم» معرفة ومنكرة (٨٠) مرَّة. وهناك صيغ أخرى تكررت كثيرًا أيضًا.

وكلُّ هذا التكرار لهذه المادة ومشتقَّاتها دليل مؤكَّد على فضل العلم وبالغ أهميته في نظر القرآن الكريم.

وفي هذا الفصل من دراستنا هذه نحاول أن نلقيَ بعض الضوء على معنى العلم وفضلِه وأهميته، ومكانة العلماء، من خلال آيات القرآن العظيم.

QaradawiBooks.com

معنى العلم وأقسامه:

قال الإمام الراغب في «مفردات القرآن»: «العلم: إدراك الشيء بحقيقته، وذلك ضربان:

أحدهما: إدراك ذات الشيء (وهو الَّذي يسمِّيه علماء المنطق: التصوُّر).

والثاني: الحكم على الشيء بوجود شيء هو موجود له، أو نفي شيء هو منفيٌّ عنه، (وهو الَّذي يسمِّيه المناطقة: التصديق، فهذا يعني إدراك النسبة، وذلك إدراك المفرد)».

قال: «**فالأول**: هو المتعدِّي إلى مفعول واحد، نحو: ﴿لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡ﴾ [الأنفال: ٦٠].

والثاني: المتعدِّي إلى مفعولين، نحو قوله: ﴿فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ﴾ [الممتحنة: ١٠]».

كما قسم الراغب العلم من وجه آخر إلى ضربين: نظريٍّ وعمليٍّ.

«**فالنظريُّ**: ما لا يتطلَّب شيئًا أكثر من العلم به، فإذا علم فقد كمل، مثل العلم بموجودات العالم.

والعملي: ما لا يتم إلَّا بأن يعمل به، كالعلم بالعبادات والأخلاقيات ونحوها.

قال: ومن وجه آخر، ضربان: عقلي، وسمعي»(١).

ويعني بالعقلي: ما كان طريقه العقل والنظر، وبالسمعي: ما كان طريقه الوحي والنبوَّة.

---

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن مادة (ع. ل. م).

نسخة مجانية
غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

وقال بعض أهل اللغة: العلم والمعرفة والشعور كلُّها بمعنى واحد.

قال الزَّبيدي في «تاج العروس»: «والأكثر من المحققين يفرقون بين الكل. والعلم عندهم أعلى الأوصاف؛ لأنَّه الَّذي أجازوا إطلاقه على الله تعالى، ولم يقولوا: «عارف» ـ في الأصح ـ ولا «شاعر». والفروق مذكورة في مصنفات أهل الاشتقاق.

قال: ووقع خلاف طويل الذيل في «العلم». حتَّى قال جماعة: إنَّه لا يُحدُّ (أي: لا يُعرَّف) لظهوره وكونه من الضروريات. وقيل: لصعوبته وعسره. وقيل: غير ذلك، ممَّا أورده بما له وما عليه الإمام أبو الحسن اليوسي في «قانون العلوم»، وأشار في «الدر المصون»[١] إلى أنَّه إنَّما يتعدَّى بالباء، لأنَّه يراعى فيه أحيانًا معنى الإحاطة. قاله شيخنا[٢].

وقال المُناوي في «التوقيف»: العلم هو الاعتقاد الجازم الثابت المطابق للواقع، أو هو: صفة توجب تمييزًا لا يحتمل النقيض، أو هو: حصول صورة الشيء في العقل[٣].

وفي «البصائر»[٤]: المعرفة إدراك الشيء بتفكر وتدبر لأثره، وهي أخص من العلم، والفرق بينهما وبين العلم من وجوه لفظًا ومعنًى.

أمَّا اللفظ ففعل المعرفة يقع على مفعول واحد، وفعل العلم يقتضي مفعولين، وإذا وقع على مفعول كان بمعنى المعرفة.

---

(١) الدر المصون (٦٤٢/٢)، تحقيق د. أحمد محمد الخراط، نشر دار القلم، دمشق.

(٢) أبو حيان الأندلسي، شيخ السمين الحلبي صاحب الدر المصون.

(٣) التوقيف على مهمات التعاريف صـ ٢٤٦، نشر عالم الكتب، القاهرة، ط ١، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

(٤) بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي (٤٧/٤ ـ ٥١)، نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة.

QaradawiBooks.com

وأمَّا من جهة المعنى فمن وجوه:

أحدها: أنَّ المعرفة تتعلق بذات الشيء، والعلم يتعلق بأحواله.

والثاني: أنَّ المعرفة في الغالب تكون لما غاب عن القلب بعد إدراكه، فإذا أدركه قيل: عرفه، بخلاف العلم، فالمعرفة تشبه الذكر النفسي، وهو حضور ما كان غائبًا عن الذكر، ولهذا كان ضدها: الإنكار، ومنه: ﴿**فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ**﴾ [يوسف: ٥٨]، ﴿**يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ**﴾ [النحل: ٨٣]، وضد العلم: الجهل.

والثالث: أنَّ المعرفة علم لعَيْنِ الشيء مفصلًا عما سواه، بخلاف العلم، فإنَّه قد يتعلق بالشيء مجملًا.

قال: وبينهما فروق أخرى غير ما ذكرنا»(١).

وقال الراغب في «المفردات»: «المعرفة والعرفان: إدراك الشيء بتفكر وتدبر لأثره، وهو أخص من العلم، ويضاده الإنكار، ويقال: فلان يعرف الله، ولا يقال: يعلم الله ـ متعدِّيًا إلى مفعول واحد ـ لما كان معرفة البشر لله هي بتدبُّر آثاره دون إدراك ذاته. ويقال: الله يعلم كذا، ولا يقال: يعرف كذا، لمَّا كانت المعرفة تُستعمل في العلم القاصر المتوصَّل به بتفكر. وأصله من «عرفت الشيء» أي: أصبت عَرفه. أي: رائحته. أو من: أصبت عُرفه. أي خده. يقال: عرفت كذا. قال تعالى: ﴿**فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ**﴾ [البقرة: ٨٩]، ﴿**فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ**﴾ [يوسف: ٥٨]، ﴿**فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ**﴾ [محمد: ٣٠]، ﴿**يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ**﴾ [البقرة: ١٤٦].

---

(١) تاج العروس للزبيدي مادة (ع. ل. م).

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

قال: «والعارف في تعارُف قــوم (أي في اصطلاحهم) هو: المختص بمعرفة الله، ومعرفة ملكوته، وحُسن معاملته تعالى»[١].

«وأيًّا كان حدُّ «العلم» وتعريفه واختلاف المتخصصين في ذلك، وفي تحديد الفرق بينــه وبين المعرفة، فالذي يعنينا منــه هنا هو المعنى العام الَّذي ذكره الإمام الراغب، وهو: إدراك الشيء بحقيقته، فكل إدراك وكشف وتبيُّن للمجهول من أيِّ نوع وفي أيِّ مجــال، حتَّى تتضح حقيقته بالقدر الممكن للإنسان، فهو داخل في معنى «العلم»، الَّذي يتحدَّث عنه القرآن.

فضل العلم:

لا يُعرف دين مثل الإســلام، ولا كتاب غير القرآن، أشــاد بالعلم، وحثَّ عليه، ورغَّب فــي طلبه، ونوَّه بمكانة أهلــه، وأعلى من قدْرهم، وبيَّن فضل العلم وأثره في الدنيا والآخرة، وحضَّ على التعلم والتعليم، ووضع لذلك كلِّــه القواعد الحاكمــة، والأحكام الضابطــة، وذلك في مصادر الإسلام الأساسيَّة: القرآن الكريم، والسُّنَّة النبويَّة.

دلالة آيات الوحي الأولى:

وحســبنا أنَّ أول آيــات نزلــت مــن الوحــي الإلٰهــي علــى قلب رسول الله ﷺ، أشارت إلى فضل العلم، حيث أمرت بالقراءة، وهي مفتاح العلم، ونوَّهت بـ «القلم» وهو أداة نقــل العلم، وذلك قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

---

(١) المفردات في غريب القرآن مادة (ع. ر. ف).

QaradawiBooks.com

إنَّ أول سورة أنزلها الله في كتابه سورة العلق، فذكر فيها ما منَّ به على الإنسان من تعليمه ما لم يعلم، فذكر فيها فضله بتعليمه وتفضيله الإنسان بما علَّمه إيَّاه، وذلك يدلُّ على شرف التعليم والعلم، فقال تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ [العلق: ١ ـ ٣].

وخصَّ الإنسان من بين المخلوقات لما أودعه من عجائبه، وآياته، الدالة على ربوبيته وقدرته، وعلمه وحكمته، وكمال رحمته، وإنَّه لا إلٰه غيره، ولا ربَّ سواه، وذكر هنا مبدأ خلقه من علق؛ لكون العلقة مبدأ الأطوار الَّتي انتقلت إليها النطفة، فهي مبدأ تعلق التخليق، ثم أعاد الأمر بالقراءة مخبرًا عن نفسه بأنَّه ﴿ٱلۡأَكۡرَمُ﴾، وهو الأفعل من الكرم، وهو كثرة الخير، ولا أحد أوْلى بذلك منه سبحانه، فإنَّ الخير كله بيديه، والخير كله منه، والنِّعم كلها هو مُوليها، والكمال كلُّه والمجد كلُّه له، فهو الأكرم حقًّا.

ثم ذكر تعليمه عمومًا وخصوصًا، فقال: ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ [العلق: ٤]، فهذا يدخل فيه تعليم الملائكة والنَّاس.

ثم ذكر تعليم الإنسان خصوصًا، فقال: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ٥].

فاشتملت هَذِه الكَلِمَات على أنَّه معطي الموجودات كلها بجمِيعِ أقسامها، فإنَّ الوجود له مراتب أربعة:

إحداها: مرتبتها الخارجيَّة المَدْلُول عَلَيْهَا بقوله: ﴿خَلَقَ﴾.

المرتبَة الثَّانِيَة: الذهنيَّة الْمَدْلُول عَلَيْهَا بقوله: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ٥].

QaradawiBooks.com

المرتبة الثالثة والرابعة: اللفظيَّة والخطيَّة، فالخطيَّة مصرَّح بها في قوله: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٤]، واللفظيَّة من لوازم التعليم بالقلم، فإنَّ الكتابة فرع النطق، والنطق فرع التصوُّر.

فاشتملت هذه الكلمات على مراتب الوجود كلها، وأنَّه سبحانه هو معطيها بخلقه وتعليمه، فهو الخالق المعلم، وكل شيء في الخارج فبخلقه وُجِد، وكل علم في الذهن فبتعليمه حصل، وكل لفظ في اللسان، أو خط في البنان، فبإقداره وخلقه وتعليمه.

وهذا من آيات قدرته، وبراهين حكمته لا إلٰه إلَّا هو الرحمٰن الرحيم. والمقصود أنَّه سبحانه تعرَّف إلى عباده بما علَّمهم إيَّاه بحكمته من الخط واللفظ والمعنى، فكان العلم أحدَ الأدلَّة الدالة عليه، بل من أعظمها وأظهرها، وكفى بها شرفًا وفضلًا له»[(١)].

القسم بالقلم:

ومن أوائل ما نزل من القرآن: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١]، فأقسم بالقلم، والقسم به يدلُّ على أهميته، فإنَّ الله تعالى لا يقسم بشيءٍ إلَّا ليَلْفِتَ الأنظار إلى قيمته وخطره.

لا يستوي عالم وجاهل:

وفي القرآن المكيِّ أيضًا يقول تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [الزمر: ٩]، ففرَّق بين أهل العلم وأهل الجهل، فلا يستويان، بغضِّ النظر عن مضمون العلم، المهمُّ أنَّه لا يستوي عالم وجاهل، كما لا يستوي الأعمى والبصير، والظلمات

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم (٥٨/١).

QaradawiBooks.com

والنور، والظلُّ والحَـرُور، والأحيـاء والأموات، والإنســان والبهيمة، وأصحاب الجنَّة وأصحاب النَّار!

أهل العلم أهل الخشية من الله:

وفي القــرآن المَكِّي نقرأ أيضًـــا: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، بهــذه الصيغة الحاصرة الَّتــي أفادها كلمة «إنَّمــا» بمعنى أنَّه لا يخشــى اللهَ من عباده إلَّا العلماءُ الَّذين عرفوا عظمتــه، وقدروه حقَّ قدره، وأهل الخشية هم الَّذين ذكر الله جزاءهم بقوله: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨].

وقال ابن مسعود: كفى بخشية الله علمًا، وكفى بالاغترار بالله جهلًا[١]!

شهادة الله والملائكة وأولي العلم بالتوحيد:

وفي القرآن المدنــي نقرأ قولــه تعالــى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨].

يقول الإمام الغزالي: «فانظر كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفســه، وثنَّى بالملائكة، وثلَّث بأهل العلم، وناهيك بهذا شرفًا وفضلًا، وجلاءً ونبلًا»[٢].

وقال العلَّامة ابن القيِّم مُعلقًــا على هذه الآية الكريمة، وهي قول الله تعالى:

(١) رواه ابن أبي شيبة في الزهد (٣٥٦٧٤).

(٢) إحياء علوم الدين (١/٤، ٥).

QaradawiBooks.com

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨]:

«استشهد سبحانه بأولي العلم على أجلِّ مشهود عليه، وهو توحيده، فقال: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾، وهذا يدلُّ على فضل العلم وأهله من وجوه.

أحدها: استشهادهم دون غيرهم من البشر.

والثاني: اقتران شهادتهم بشهادته.

والثالث: اقترانها بشهادة الملائكة.

والرابع: أنَّ في ضمن هذا تزكيتهم وتعديلهم، فإنَّ الله لا يستشهد من خلقه إلَّا العدول، ومنه الأثر المعروف عن النبيِّ ﷺ: «**يحمل هذا العلم من كلِّ خَلَفٍ عُدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين**»(١).

الخامس: أنَّه وصفهم بكونهم أولي العلم، وهذا يدلُّ على اختصاصهم به، وأنَّهم أهله وأصحابه، ليس بمستعارٍ لهم.

---

(١) رواه ابن وضاح في البدع حديث رقم (١)، والبيهقي في الشهادات (٢٠٩/١٠)، وصحَّحه الألباني في مشكاة المصابيح (٢٤٨)، عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري. والحديث ذكره الإمام ابن القيم في مفتاح دار السعادة، وقوّاه لتعدد طرقه (١٦٣/١، ١٦٤). وكذلك العلَّامة ابن الوزير الذي استظهر صحته أو حُسْنه، لكثرة طرقه مع ما نقل من تصحيح الإمام أحمد له، والحافظ ابن عبد البر، وترجيح العقيلي لإسناده، مع سعة اطلاعهم وأمانتهم، فهذا يقتضي التمسك به. انظر: الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم (٢١/١ ـ ٢٣)، نشر دار المعرفة، بيروت.
وانظر كلامنا عن هذا الحديث في كتابنا: كيف نتعامل مع السُّنَّة النبوية صـ ٣٦ ـ ٤١، نشر دار الشروق، ط ٥، ٢٠٠٨م.

QaradawiBooks.com

السادس: أنَّه سبحانه استشهد بنفسه، وهو أجلُّ شاهد، ثم بخيار خلقه، وهم ملائكته والعلماء من عباده، ويكفيهم بهذا فضْلًا وشرفًا.

السابع: أنَّه استشهد بهم على أجلِّ مشهود به وأعظمِه وأكبرِه، وهو شهادة أن لا إلٰه إلَّا الله. والعظيم القدر إنَّما يستشهد على الأمر العظيم أكابرَ الخلق وساداتهم.

الثامن: أنَّه سبحانه جعل شهادتهم حُجَّة على المنكرين، فهم بمنزلة أدلَّته وآياته وبراهينه الدالَّة على توحيده.

التاسع: أنَّه سبحانه أفرد الفعل المتضمِّن لهذه الشهادة الصادرة منه ومن ملائكته ومنهم، ولم يعطف شهادتهم بفعل آخر غير شهادته، وهذا يدلُّ على شدَّة ارتباط شهادتهم بشهادته، فكأنَّه سبحانه شهد لنفسه بالتوحيد على ألسنتهم وأنطقهم بهذه الشهادة، فكان هو الشاهد بها لنفسه إقامةً وإنطاقًا وتعليمًا، وهم الشاهدون بها له إقرارًا واعترافًا وتصديقًا وإيمانًا.

العاشر: أنَّه سبحانه جعلهم مؤدِّين لحقِّه عند عباده بهذه الشهادة، فإذا أدُّوها فقد أدَّوا الحقَّ المشهودَ به، فثبت الحقُّ المشهودُ به، فوجب على الخلق الإقرار به، وكان ذلك غاية سعادتهم في معاشهم ومعادهم. وكل من ناله الهدى بشهادتهم وأقرَّ بهذا الحق بسبب شهادتهم، فلهم من الأجر مثل أجره. وهذا فضلٌ عظيم لا يدري قدره إلَّا الله، وكذلك كلّ من شهد بها عن شهادتهم، فلهم من الأجر مثل أجره أيضًا.

فهذه عشرة أوجه في هذه الآية»[1].

---

(١) مفتاح دار السعادة (٤٨/١، ٤٩).

QaradawiBooks.com

تفضيل آدم على الملائكة بالعلم:

وممَّا نبَّه عليه القرآن، ولم يُذكَـر في كتابٍ دينيٍّ غيره، أنَّ الله تعالى فضَّل آدم أبا البشـر، وجعله في الأرض خليفة، وقدَّمـه على الملائكة المتفرغين لعبادة الله تعالى، وذلك بما خصَّـه من العلم، الَّذي تفوَّق به على الملائكة في الاختبار الَّذي عقده الله تعالى بينه وبينهم.

يقول ابن القَيِّم في بيان الوجه التاسع والعشرين:

«إنَّه سبحانه لما أخبر ملائكته بأنَّه يريد أن يجعل في الأرض خليفة قالوا له:

﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۞ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۞ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٠ ـ ٣٢] إلى آخر قصَّة آدم.

وأمر الملائكة بالسـجود لآدم، فأبى إبليس فلعنـه الله وأخرجه من السماء».

قال ابن القَيِّم: «وبيان فضل العلم من هذه القصة من وجوه.

أحدها: أنَّه سـبحانه ردَّ علـى الملائكة لما سـألوه كيف يجعل في الأرض من هم أطوع له منه؟ فقال: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، فأجاب سؤالهم بأنَّه يعلم من بواطن الأمور وحقائقها ما لا يعلمونه، وهو العليم الحكيم، فظهر مـن هذا الخليفة من خيار خلقه ورُسـله وأنبيائه وصالحـي عباده والشـهداء والصدِّيقين والعلماء، وطبقـات أهل العلم

QaradawiBooks.com

والإيمـان، من هو خيرٌ مـن الملائكـة، وظهر من إبليس من هو شـرُّ العالمين، فأخرج سبحانه هذا وهذا، والملائكة لم يكن لها علم لا بهذا ولا بهذا، ولا بما في خلق آدم وإسكانه الأرض من الحِكم الباهرة.

الثاني: أنَّه سـبحانه لما أراد إظهار تفضيل آدم وتمييزه وفضْله، ميَّزه عليهم بالعلم، فعلَّمه الأسـماء كلها، ثم عرضهم على الملائكة، ﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١].

جاء في التفسـير أنَّهم قالوا: لن يخلق ربُّنا خلقًا هـو أكرم عليه منَّا! فظنُّوا أنَّهم خيـرٌ وأفضل من الخليفة الَّذي يجعلـه الله في الأرض، فلما امتحنهم بعلم ما علَّمه لهـذا الخليفة، أقرُّوا بالعجز وجهل ما لم يعلموه. فقالوا: ﴿سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢]، فحينئذٍ أظهر لهم فضل آدم بما خصَّه به من العلم، فقال: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ﴾ [البقرة: ٣٣]، أقرُّوا له بالفضل.

الثالث: أنَّه سـبحانه لما أن عرَّفهم فضـل آدم بالعلم وعجزهم عن معرفة ما علمه قال لهـم: ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ [البقـرة: ٣٣]، فعرَّفهم سـبحانه نفسـه بالعلم، وأنَّه أحاط علمًا بظاهرهم وباطنهم، وبغيب السماوات والأرض، فتعرَّف إليهم بصفة العلم، وعرَّفهـم فضل نبيِّه وكليمه بالعلم، وعجزهم عمَّا آتاه آدم من العلم، وكفى بهذا شرفًا للعلم.

الرابع: أنَّه سبحانه جعل في آدم من صفات الكمال ما كان به أفضل من غيره من المخلوقات، وأراد سبحانه أن يُظْهر لملائكته فضلَه وشرفَه، فأظهر لهم أحسـن ما فيه، وهو علمه، فدلَّ على أنَّ العلم أشرف ما في الإنسان، وأنَّ فضلَه وشرفَه إنَّما هو بالعلم.

QaradawiBooks.com

ونظير هذا ما فعله بنبيِّه يوسف عليه السلام، لمَّا أراد إظهار فضله وشرفه على أهل زمانه كلهم، أظهر للملك وأهل مصر مِن علمه بتأويل رؤْياه ما عجز عنه علماء التعبير، فحينئذٍ قدَّمه ومكَّنه، وسلَّم إليه خزائن الأرض، وكان قبل ذلك قد حبَسه على ما رآه من حُسْن وجهه وجمال صورته، ولَمَّا ظهر له حُسْن صورة علمه وجمال معرفته أطلقه من الحبس، ومكَّنه في الأرض. فدلَّ على أنَّ صورة العلم عند بني آدم أبهى وأحسن من الصورة الحسيَّة ولو كانت أجمل صورة»(١).

كلُّ الأنبياء آتاهم الله العلم:

وفي عدد من قصص الأنبياء والمؤمنين في القرآن يتبيَّن لنا قيمة العلم وفضله عند الله، وعند الناس، وأثره في الدين وفي الدنيا معًا، وكل الأنبياء والرسل في القرآن آتاهم الله العلم، وإنْ رفع الله بعضهم درجات.

نوح عليه السلام:

في قصَّة نوح نراه يجادل قومه بعلم وحُجَّة قويَّة، فيفحمهم، ولا يجدون أمامهم ما يجيبون به، أو يردون به على حجَجه، فماذا كان موقفهم؟

﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ [هود: ٣٢، ٣٣].

إبراهيم الخليل عليه السلام:

وفي قصَّة إبراهيم، يقول الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٥]، إلى أن يقول:

(١) مفتاح دار السعادة (١/٥٢، ٥٣).

QaradawiBooks.com

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣].

ويحكي القرآن حواره لأبيه، وقوله له: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ٤٣].

وهذا يدلُّ على أنَّ الجاهل يجب أن يتَّبع العالم، فالعالم هو القائد، والجاهل هو المقُود، ولو كان هو الأكبر سنًّا، أو مقامًا، بل لو كان هو الأب الوالد، ينبغي أن يتَّبع ابنه لعلمه.

لوط عليه السلام:

وفي قصَّة لوط، قال تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأنبياء: ٧٤].

وقد رأينا ثمار حكمته وعلمه في حواره مع قومه، الَّذي ذُكر في سورة الشعراء، وسورة هود، وغيرهما من السور.

يوسف الصديق عليه السلام:

وفي قصَّة يوسف يقول الله تعالى في شأنه: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢]، ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٢١]، وقد بشَّره أبوه من قبل حين قصَّ عليه رؤياه وهو صبي، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [يوسف: ٦].

وقد كان علم التأويل ـ تأويل الرؤى والأحلام ـ هو السبب الَّذي هيَّأه الله لإنقاذ يوسف من السجن، وإظهار براءته من كلِّ تهمة، وتقريب

QaradawiBooks.com

الملك له، وجعله على خزائن الأرض، كما طلب يوسف نفسه، حين قال له الملك: ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ۞ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٤، ٥٥].

فذكر له الصفتين الأساسيتين المطلوبتيْن من كل من يتولى منصبًا ذا بال، إداريًّا أو ماليًّا أو سياسيًّا، وهما: الحفظُ والعلمُ، والحفظ مردُّه إلى الأمانة ومراقبة الله، والعلم مردُّه إلى الخبرة والكفاية في أداء العمل بإتقان واقتدار.

موسى كليم الله عليه السلام:

وفي قصَّة موسى يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [القصص: ١٤]، فزاد هنا كلمة ﴿وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾ ولم يقل ذلك في شأن يوسف.

يقول ابن القيِّم في ذلك: «ولما كان الَّذي آتاه موسى من ذلك أمرًا عظيمًا، خصَّه به على غيره، ولا يثبت له إلَّا الأقوياء أولو العزم، هيَّأه له بعد أن بلغ أشدَّه واستوى، يعني: تمَّ وكملت قوته»(١).

وقد تجلَّى أثر ما آتاه الله من الحكمة والعلم في كلِّ مراحل حياته وكلِّ جوانب حياته عليه السلام.

كما نرى ذلك واضحًا في حواره مع ربه الجليل سبحانه: ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۞ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ﴾ [طه: ١٧، ١٨].

(١) مفتاح دار السعادة (٥٧/١).

QaradawiBooks.com

فهو يطيل الجواب مع ربِّـه تلذُّذًا بحلاوة المناجـاة، ثم يغلبه أدب العبوديَّة فيطوي الكلام، ويقول: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ﴾ [طه: ١٨].

ثم يدعو ربَّه بعد أن أمره بالذهاب إلى فرعون الطاغية، دعاءً جامعًا لما يحتاج إليه الداعية في موقفه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ۞ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ۞ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ۞ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ۞ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ۞ هَٰرُونَ أَخِي ۞ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ۞ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ۞ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ۞ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ۞ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا﴾ [طه: ٢٥ ـ ٣٥].

ونرى ذلك واضحًا في حـواره مع فرعون: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۞ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۞ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ۞ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٤٩ ـ ٥٢].

انظر إلى جواب موسـى عن ربِّه عَزَّوَجَلَّ، كيف وصفه في هذه الجملة القصيرة بأجلِّ وأدلِّ ما يوصف به سبحانه. فهو الَّذي أعطى كلَّ شيء في هذا الكون ما به تمام خلقه وكمال وجوده، ثم أعطاه الهداية الَّتي يصلُ بها إلى غايته الَّتي خُلق لها. سـواء أكان هذا الشيءُ من عالم الإنسان أم من عالم الحيوان أم من عالم النبات أم من عالم الجمادات، وسواءٌ أكان من عالم الأرض أم من عوالم الأفلاك، من العقلاء أم غير العقلاء.

ثم انظر جوابه عن القـرون الأولى، فلم يتورَّط فيما لا سـبيل إلى علمه من أنباء القـرون الخوالي، ووكَل علمها إلى مـن لا تخفى عليه خافية: ﴿قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

وفي سورة الشـعراء حوار أطول من هذا مع فرعون، تبيَّن به فضل ما آتاه الله موسـى من علم وحكمة: ﴿أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۞ قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ ۞ وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ وَأَنتَ

QaradawiBooks.com

مِنَ الْكَافِرِينَ ۝ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ۝ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ۝ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ۝ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۝ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۝ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ۝ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ۝ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ۝ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ۝ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء: ١٧ - ٣٤].

داود وابنه سليمان عليهما السلام:

وفي قصَّة داود وابنه سليمان نجد حديثًا عن العلم في أكثر من موضع.

ففي أول قصَّة داود في سورة البقرة يقول تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وفي سورة (صٓ) يقول تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ۝ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ۝ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ۝ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ [صٓ: ١٧ - ٢٠].

وفي سورة الأنبياء يقول تعالى: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ۝ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٨، ٧٩].

فخصَّ سليمان بفهم القضيَّة، وإدراك الصواب فيها، وأثنى على كلٍّ منهما بما آتاه الله من حكم وعلم.

QaradawiBooks.com

وفي سورة النمل يقول تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٥، ١٦].

ووراثة سليمان لداود هنا إنَّما أُريد بها وراثته في علمه، فقد جاء في الحديث: «**إنَّ الأنبياءَ لم يورِّثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنَّما وَرِثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر**»(١).

وفي قصَّة سليمان نجد أثر العلم مرَّة أخرى في نقل عرش ملكة سبأ من اليمن، حيث نقلها إلى الشام حيث يقيم سليمان: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ۞ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ۞ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾ [النمل: ٣٨ ـ ٤٠].

وهنا نجد العفريت الجنِّي عرض على سليمان أن يأتيه بعرش الملكة قبل أن يقومَ من مجلس الحكم، وعرض ﴿ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ عليه أن يأتيه به قبل أن يغمض عينه، أي: في لمح البصر، وكان هذا ـ كما ذكر القرآن ـ بوساطة علم عنده من الكتاب، فلم يوصف بشيء أكثر من هذا، ولم يذكر لنا القرآن أنَّه ملك أو عفريت، فدلَّ على أنه

(١) رواه أحمد (٢١٧١٥)، وقال مخرِّجوه: حسن لغيره. وأبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢) كلاهما في العلم، وابن ماجه في المقدمة (٢٢٣)، وابن حبان في العلم (٨٨)، وقال السخاوي في المقاصد الحسنة (٧٠٣): وصحَّحه ابن حبان والحاكم وغيرهما، وحسنه حمزة الكتاني، وضعفه غيرهم بالاضطراب في سنده، لكن له شواهد يتقوى بها. عن أبي الدرداء.

QaradawiBooks.com

إنسيٌّ، وأنَّه بواسطة العلم فاق الجنِّي، فالإنسان بوسائله العلمية يفعل ما لا تفعله الجان، كما نرى في عصرنا، كيف فاق الإنسان بكثير ما صنعه الجن لسليمان: ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ﴾ [سبأ: ١٣].

الخضر صاحب موسى:

وقال تعالى في شأن الخضر صاحب موسى، الَّذي لقيه مع فتاه: ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾ [الكهف: ٦٥]، فأثنى عليه بما آتاه سبحانه من رحمةٍ من عنده، وما علَّمه من عِلْم من لدنه.

المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام:

وقال تعالى في شأن عيسى: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ [المائدة: ١١٠]. فهذا يقوله تعالى في معرض الامتنان عليه وتذكيره بنعمِه.

وقال في مقام تبشير أمِّه به عند ولادته لتقرَّ به عينها: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٨].

محمد خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم:

وقال تعالى في خطاب خاتم رُسله محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾ [النساء: ١١٣].

وقال تعالى له: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦].

QaradawiBooks.com

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

وفي أربع آيات من كتاب الله في «البقـرة، وآل عمران، والجمعة»[(١)]، بيَّنتْ أنَّ من وظيفته ﷺ: تلاوة آيات الله، وتزكية الأمة، وتعليمهم الكتاب والحكمة، وزادت آية منها: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

تنويه القرآن بفضائل أولي العلم:

وينوِّه القرآن بشأن أهل العلم، ويعبِّر عنهم بـ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ ويُضفي عليهم جملة من الفضائل والمزايا الفكرية والإيمانيَّة والأخلاقيَّة كانوا أحقَّ بها وأهلها.

فهؤلاء الَّذين أوتوا العلم هم الَّذين ينكشف لهم الحق الَّذي أنزله الله على محمد، فيرونه واضحًا هاديًا إلى صراط الله، يقول تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦].

ومثله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤].

فهنا نجد العلم أثمر الإيمان، فأثمر الإيمانُ الإخباتَ لله تعالى.

(١) [البقرة: ١٢٩و١٥١]، و[آل عمران: ١٦٤]، و[الجمعة: ٢].

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وهؤلاء الَّذيـن أوتوا العلم هم الَّذين يتجاوبـون مع القرآن العظيم، فتخشـع له قلوبهم، وتدمع له أعينهم، وتخر لـه جباههم، فهم بعلمهم يعرفون قدره، وينزلونه منزلة من أنفسـهم. يقـول تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ۝ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٦ ـ ١٠٩].

والقرآن في صدور هؤلاء من أهل العلم ليس مجرَّد كلام محفوظ، بل هو آيات بيِّنات، دالةٌ أوضح الدلالـة على عظمة من تكلَّم به، ودالة كذلك على صدق منْ أُرسل به، ودالة كذلك على الحق الَّذي جاء به، يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٧ ـ ٤٩]..

وأولو العلم المحمودون في القرآن هم الَّذين لا يخدعهم المظهر عن الجوهر، ولا الكم عن الكيف، ولا القشـور عن اللباب، ولا المادة عن الروح، ولهذا نراهم حين خرج قارون ذو الكنـوز الطائلة على قومه في زينته الباهرة، وموكبه الحافل، وأبَّهته الساحرة، وقال الَّذين يريدون الحياة الدنيا: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: ٧٩].

كان موقف هؤلاء من أهل العلم الحقيقي موقفـًا مخالفًا تمامًا، لم يغرَّهم هذا البريق، ولم يطمعهم هذا السـراب فيحسبوه ماءً، بل سجَّل لهم القرآن هذا الموقف الرائع: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠].

QaradawiBooks.com

وأولو العلم هؤلاء هم الَّذين قرنهم القرآن بأهل الإيمان، ورفعهم جميعًا درجات عنده، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾ [المجادلة: ١١].

قيل في تفسيرها: يرفع الله المؤمن العالم على المؤمن غير العالم. ورفعة الدرجات تدل على الفضل، إذ المراد به كثرة الثواب عند الله، وبها ترتفع الدرجات. ورفعتها تشمل الحسيَّة والمعنويَّة، في الدنيا والآخرة. ففي الدنيا بعلوِّ المنزلة وحسن الصِّيت، وفي الآخرة بعلوِّ المنزلة في الجنة.

وفي صحيح مسلم عن نافع بن عبد الحارث الخزاعي ـ وكان عامل عمر على مكَّة ـ أنَّه لقيه بعسفان، فقال له: من استخلفت؟ فقال: استخلفت ابن أبزى مولى لنا. فقال عمر: استخلفت مولى؟ قال: إنَّه قارئ لكتاب الله، عالم بالفرائض. فقال عمر: أما إنَّ نبيَّكم قد قال: «**إنَّ الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا، ويضع به آخرين**»[1].

العلم حياة ونور:

اعتبر القرآن العلم حياةً ونورًا، والجهل موتًا وظلمة، في آيات كثيرة، وضرب لذلك الأمثال، ومن المعلوم: أنَّ الشرَّ كلَّه سببه عدم الحياة والنور، وأنَّ الخير كلَّه سببه النور والحياة. فإنَّ النور يكشف عن حقائق الأشياء، ويبيِّن مراتبها، والحياة: هي المصحِّحة لصفات الكمال، الموجبة لتسديد الأقوال والأعمال، كما يقول المحقق ابن القيِّم. فكل

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٨١٧)، وأحمد (٢٣٢)، عن عمر بن الخطاب.

نسخة مجانية غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

ما تصرف من الحياة فهو خير كله، كالحياء الَّذي سببه كمال حياة القلب، وضده: الوقاحة والفُحش، وسببه: موت القلب وعدم نفرته من القبيح، وكالحياء الَّذي هو المطر الَّذي به حياة كل شيء.

قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، كان ميتًا بالجهل قلبه، فأحياه بالعلم، وجعل له من الإيمان نورًا يمشي به في النَّاس.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٨، ٢٩].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

فأخبر أنَّه روح تحصُل به الحياة، ونورٌ يحصل به الإضاءة والإشراق، فجمع بين الأصلين، الحياة والنور.

وقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

QaradawiBooks.com

وقال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [التغابن: ٨].

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء: ١٧٤].

وقال تعالى: ﴿قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ۝ رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الطلاق: ١٠، ١١].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [النور: ٣٥].

فضرب سبحانه مثلًا لنوره الَّذي قذفه في قلب المؤمن ـ كما قال أُبي بن كعب رضي الله عنه ـ مثل نوره في قلب عبده المؤمن، وهو نور القرآن والإيمان، الَّذي أعطاه إيَّاه، كما قال في آخر الآية: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖ﴾ [النور: ٣٥]؛ يعني: نور الإيمان على نور القرآن، كما قال بعض السلف: يكاد المؤمن ينطق بالحكمة وإن لم يسمع فيها بالأثر، فإذا سمع فيها بالأثر كان نورًا على نور(١).

وقد جمع الله سبحانه بين ذكر هذين النُّورين، وهما: الكتاب والإيمان، في غير موضع من كتابه، كقوله: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

---

(١) مجموع الفتاوى (٤٥/٢٠)، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، نشر مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

QaradawiBooks.com

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، ففَضْل الله الإيمان، ورحمته القرآن.

وقوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقد تقدمت هذه الآيات.

وقال في آية النور: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ﴾ [النور: ٣٥]؛ وهو نور الإيمان على نور القرآن.

وفي حديث النَّوَّاس بن سمعان رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ: «**إنَّ الله ضرب مثلًا صراطًا مستقيمًا، وعلى كَنَفَي الصراط سُوران لهما أبواب مفتَّحة، على الأبواب ستور، وداع يدعو على الصراط، وداع يدعو فوقه:** ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [يونس: ٢٥]، **والأبواب الَّتي على كنفي الصِّراطِ: حدودُ الله، فلا يقع أحد في حدود الله حتَّى يكشف الستر، والَّذي يدعو من فوقه: واعظُ ربِّه**». رواه الترمذي، وهذا لفظه(١). والإمام أحمد ولفظه: «**وذلك الداعي على رأس الصراط: كتاب الله، والداعي من فَوْقِ الصراط: واعظُ الله في قلبِ كلِّ مسلم**»(٢)، فذكر الأصلين وهما داعي القرآن وداعي الإيمان.

وقال حُذَيْفة: حدَّثنا رسول الله ﷺ: «**إنَّ الأمانة نزلت في جَذْر قلوبِ الرجال، ثم نزل القرآنُ، فعلموا من الإيمان، ثم علموا من القرآن**»(٣).

---

(١) رواه الترمذي في الأدب (٢٨٥٩)، وقال: حسن غريب. وصحَّحه الألباني في المشكاة (١٩١).

(٢) رواه أحمد (١٧٦٣٤)، وقال مخرِّجوه: حديث صحيح. وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٣٨٨٧).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٤٩٧)، ومسلم في الإيمان (١٤٣).

QaradawiBooks.com

وفي الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ: «**مَثَلُ المؤمن الَّذي يقرأ القرآن كمَثَلِ الأُتْرُجَّة، طعمها طيِّب وريحُها طيِّب، ومَثَلُ المؤمن الَّذي لا يقرأ القرآن كمثل التَّمْرة، طعمها طَيِّب ولا ريحَ لها، ومثل المنافق الَّذي يقرأ القرآن كالريحانة، رِيحُها طيِّب وطعمُها مُرٌّ، ومَثَلُ المنافق الَّذي لا يقرأ القرآن كمثل الحَنْظلة، طعمها مُرٌّ ولا ريحَ لها**»[(١)].

فجعل النَّاس أربعة أقسام: أهل الإيمان والقرآن وهم خيار الناس. الثاني: أهل الإيمان الَّذين لا يقرؤون القرآن وهم دونهم، فهؤلاء هم السعداء. والأشقياء قسمان، أحدهما: من أوتي قرآنًا بلا إيمان فهو منافق. والثاني: من لم يؤتَ قرآنًا ولا إيمانًا.

والمقصود أنَّ القرآن والإيمان هما نور يجعله الله في قلب من يشاء من عباده، وأنَّهما أصل كل خير في الدنيا والآخرة، وعلمهما أجلُّ العلوم وأفضلها، بل لا علم في الحقيقة ينفع صاحبه إلَّا علمهما، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣، والنور: ٤٦][(٢)].

* * *

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأطعمة (٥٤٢٧)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٩٧).

(٢) مفتاح دار السعادة (٥٣/٢ ـ ٥٥).

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الصلة بين العلم والإيمان

العلم في نظر القرآن ليس مناقضًا للإيمان، ولا عدوًّا له، بل هو يسير مع الإيمان جنبًا إلى جنب، ولهذا عطف القرآن الإيمانَ على العلم في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٦].

وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، فعطف هنا أهلَ العلم على أهل الإيمان.

وقد قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، فأمر أن تكون القراءة باسم الله الخالق، فهي قراءة مؤمنة، وبتعبير آخر: علمٌ في حضانة الإيمان.

بل يرى القرآن أنَّ العلم دليل الإيمان، فهو يهدي إليه ويدلُّ عليه، فالإنسان في القرآن يعلم فيؤمن، أي يقتنع عقله، فيؤمن قلبه، يقول تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٤].

هكذا رتَّب القرآن هذه الثلاثة ـ العلم والإيمان والإخْبات ـ حين عطفها بعضها على بعض بحرف «الفاء» الَّتي تفيد الترتيبَ والتعقيب، كما يقول علماء العربية.

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

فالمرء بعقله وفكـره يعلم أنَّ القرآن هو الحـقُّ المنزَّل من عند الله، فيترتَّب على هذا العلم أن يؤمن به، ويترتَّب على هذا الإيمان أن يُخبت له قلبه. فالمعرفة تسبق الشعور، والشعور يسبق الحركة، سواء أكانت حركة القلب أم حركة الجسم.

العلم الحقيقي يهدي إلى الإيمان:

العلم الحقيقي في نظر القرآن يدفع إلى الإيمان، ويشدُّ أزره، يقول تعالى:

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦].

ويقول تعالى عن القرآن: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ۝ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٦ ـ ١٠٩].

العلم عندنا دين، والدِّين عندنا علم:

فليس بين العلـم والإيمان ـ أو بين العلم والديـن ـ صراعٌ، كالذي عرفته أوروبا فيما سمِّي عندهم «القرون الوسطى»، وإنَّما هنا إخاء بينهم، فالعلم يؤيِّد الإيمان، والإيمان يبـارك العلم، فإنَّ الحق لا يناقض الحق. وكما أقول أبدًا: إنَّ العلم عندنا دين، والدين عندنا علم.

أمَّا أنَّ العلم عندنا دين، فإنَّ كتاب ربنا، وسنة نبيِّنا، يدعواننا إلى العلم، ويعتبرانه عبادة وفريضة، سـواء أكان علم ديـن أم علم دنيا، علمًا مصدره الوحـي، أم علمًا مصـدره الكون، فالوحـيُ أمر الله،

QaradawiBooks.com

والكونُ خلق الله، ولا تعارض بين خلقه وأمره سبحانه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وأمَّا أنَّ الدين عندنا علم، فلأنَّه لا يقوم على التقليد واتباع الأجداد والآباء، أو السادة والكبراء، بل يحاربُ القرآنُ ـ بأبلغ الأساليب ـ التقليدَ الأعمى والتبعيَّة المطلقة للآخرين، وينادي كلَّ ذي عقيدة أن يبنيَ عقيدته على البرهان واليقين، لا على الظنِّ والتخمين: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]، ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٢٤]. ﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٣]، ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

والعلم المقترن بالإيمان يبني ولا يهدم، ويحيي ولا يميت، ولهذا نجد سليمان عليه السلام حين جيء إليه بعرش ملكة سبأ ـ عن طريق العلم ـ قبل أن يرتدَّ إليه طرفه، لم يقل ما قال الإنسان المغرور: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ﴾ [القصص: ٧٨]، أو إنَّما جاءني به علمائي وخبرائي، بل قال ما ذكره القرآن: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

ومثل ذلك: موقفُ ذي القرنين، حين بنى سدَّه العظيم مستعينًا بالله أولًا، ثم بقوة الشعب ثانيًا: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ﴾ [الكهف: ٩٥]، فلمَّا استكمل البناء، قال بتواضع المؤمنين: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨].

وهذا بخلاف العلم الَّذي وصل إليه الغرب اليوم، فهو ـ لانقطاع صلته بالإيمان ـ غدا معولَ هدم، وأداة تهديد للبشريَّة.

QaradawiBooks.com

صحيحٌ أنَّ الإنســان اســتطاع بوســاطة العلم أن يصعد إلى القمر، ويجلب منه أتربة وصخورًا وآثارًا، يُحلِّلها ويدرسها، ولكنَّه رغم ذلك لم يستطع أن يوفر لنفسه السعادة والسكينة على ظهر الأرض.

أثر العلم في الاهتداء والفضيلة:

وإذا كان شأنُ العلم أنَّه يهدي إلى الإيمان، ويُرشد إلى الحق، ويدلُّ على الصراط المستقيم، كما ذكر القرآن الكريم عن ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ في أكثر من آية من آياته، فلماذا نرى من النَّاس من يعرف الحق ولا يتبعه؟ ومن يعرف الإيمان ولكنَّه لا يؤمن، ولا ينضمُّ إلى قافلة المؤمنين؟!

تُرى ما الموانع الَّتي تمنع بعض النَّاس أن يؤمنوا بعدما علموا، وأن يســيروا في ركب الحق بعدما انكشــف عنــه قناعه، وأضــاء لهم نوره وشعاعه؟

اختلاف سقراط وأرسطو:

هنا نذكر ما اختلف فيه الفلاسفة الكبار قديمًا، مثل سقراط وأرسطو.

فسقراط يرى أنَّ الفضيلة هي «المعرفة»، فإذا عرف الإنسان الفضيلة معرفة راسخة، اقتنع بها عقله، واطمأنَّ إليها قلبه، فإنَّه لا بدَّ أن يتمسك بها. وإلَّا كان الخلل في معرفته، لا بدَّ أنَّها معرفة سطحيَّة، لم تتغلغل في عقله، إذ لا يُتصوَّر من العاقل أن يتأكد أنَّ النار تحرق، ثم يُقدم عليها.

وأرســطو يخالف أُســتاذَه ـ ســقراط، ويقــول: إنَّ المعرفة وحدها لا تؤدي إلى الفضيلة، فكم من أناس يعرفون الفضيلة ويعملون عكسها، تدفعهم إلى ذلك غرائزهم وشهواتهم، أو إلْفهم وعوائدهم، أو نحو ذلك، ممَّا يدلُّ على أهمية عنصر «الإرادة» بجوار عنصر «المعرفة».

QaradawiBooks.com

اختلاف علماء الإسلام في القضية:

والعجيب أنَّ هــذه القضية اختلــف فيها أيضًا علماء الإســلام، وعرض لهــا الإمام ابن القَيِّم بتفصيل وسَــعة في كتابــه «مفتاح دار السعادة، ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة» وكتب فيها نحو عشرين صفحة.

وممَّا قاله هناك: «وهنا اختُلِف في مسألة عظيمة، وهي: أنَّ العلم هل يستلزم الاهتداء، ولا يتخلف عنه الهدى، إلَّا لعدم العلم أو نقصه؟ وإلَّا فمع المعرفة الجازمة لا يتُصوَّر الضلال، أو أنَّه لا يســتلزم الهدى، فقد يكون الرجل عالمًا، وهو ضالٌّ على عمد؟

هذا ممَّا اختلف فيه المتكلِّمون، وأرباب السلوك، وغيرهم».

القول الأول: «العلم يستلزم الهداية»:

«فقالت فرقة: مَنْ عرف الحقَّ معرفةً لا يشكُّ فيها استحال ألَّا يهتدي، وحيث ضلَّ فلنقصان علمه».

احتجاجات هذا الفريق:

«واحتجُّوا من النصوص بقولــه تعالى: ﴿لَّـٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [النساء: ١٦٢]، فشهد تعالى لكلِّ راسخٍ في العلم بالإيمان.

وبقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

وبقوله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ: ٦].

QaradawiBooks.com

وبقوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ﴾ [آل عمران: ١٨].

وبقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓ﴾ [الرعد: ١٩]. فهنا قسم النَّاس قسمين:

أحدهما: العلماء بأنَّ ما أُنزل إليه من ربِّه هو الحق.

والثاني: العُمْيُ، فدلَّ على أنَّه لا واسطة بينهما.

وبقوله تعالى في وصف الكفار: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

وبقوله: ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [التوبة: ٩٣].

وبقوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞ﴾ [البقرة: ٧]. وهذه مدارك العلم الثلاث قد سُدَّت عليهم.

وكذلك قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وهذا في القرآن كثير ممَّا يُبيِّن فيه منافاة الضلال للعلم.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ [محمد: ١٦].

فلو كانوا علِموا ما قال الرسول لم يسألوا أهل العلم: ماذا قال؟ ولَمَا كان مطبوعًا على قلوبهم.

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنعام: ٣٩].

QaradawiBooks.com

وقال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨]، فهذه شهادة من الله تعالى لأُولي العلم بالإيمان به وبكلامه.

وقال تعالى عن أهل النار: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]. فدلَّ على أنَّ أهلَ الضلال لا سمع لهم ولا عقل.

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، أخبر تعالى أنَّه لا يعقل أمثاله إلَّا العالمون، والكفار لا يدخلون في مسمَّى العالمين فهم لا يعقلونها.

وقال تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ [الروم: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ [البقرة: ١١٨].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

ولو كان الضلال يجامع العلم لكان الَّذين لا يعلمون أحسن حالًا من الَّذين يعلمون، والنص بخلافه.

والقرآن مملوء بسلب العلم والمعرفة عن الكفار، فتارة يصفهم بأنَّهم «لا يعلمون»، وتارة بأنَّهم «لا يعقلون»، وتارة بأنَّهم «لا يشعرون»، وتارة بأنَّهم «لا يفقهون»، وتارة بأنَّهم «لا يسمعون».

والمراد بالسمع المنفي سمعُ الفهم، وهو سمع القلب لا إدراك الصوت، وتارة بأنَّهم «لا يبصرون»، فدلَّ ذلك كله على أنَّ الكفر مستلزم للجهل، منافٍ للعلم لا يجامعه، ولهذا يصف سبحانه الكفار بأنَّهم

QaradawiBooks.com

«جاهلون»، كقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

وقوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وقال النبيُّ ﷺ لما بلغ قومه من أذاه ذلك المبلغ: «**اللَّهُمَّ اغفرْ لقومي فإنَّهم لا يعلمون**»(١).

وفي الصحيحين عنه: «**مَن يُرد الله به خيرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّين**»(٢)، فدلَّ على أنَّ الفقه مستلزم لإرادة الله الخير في العبد.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: كفى بخشية الله علمًا، وبالاغترار بالله جهلًا(٣).

قالوا: فهذا القرآن والسُّنَّة وإطلاق السَّلَف من الصحابة والتابعين يدلُّ على أنَّ العلم والمعرفة مستلزم للهداية، وأنَّ عدم الهداية دليل على الجهل وعدم العلم.

قالوا: ويدل عليه أنَّ الإنسان ما دام عقله معه لا يؤثر هلاك نفسه على نجاتها، وعذابها العظيم الدائم على نعيمها المقيم، والحِسُّ شاهدٌ بذلك.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧٧)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٩٢)، عن ابن مسعود.
(٢) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (٧١)، ومسلم في الكسوف (١٠٣٧)، عن معاوية.
(٣) رواه ابن المبارك في الزهد (٤٦)، وابن أبي شيبة في الزهد (٣٥٦٧٤).

QaradawiBooks.com

ولهذا وصف الله سبحانه أهل معصيته بالجهل في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧].

قال سفيان الثوري: كل مَن عمل ذنبًا من خلق الله فهو جاهل، كان جاهلًا أو عالمًا، إن كان عالمًا فمَن أجهل منه؟ وإن كان لا يعلم فمثل ذلك.

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: ذنبُ المؤمن جهلٌ منه. قال قتادة: أجمع أصحابُ رسولِ الله ﷺ أنَّ كلَّ شيءٍ عُصِيَ اللهُ فيه فهو جهالة. وقال السُّدِّي: كلُّ مَن عصى الله فهو جاهل[١].

قالوا: ويدلُّ على صحَّة هذا: أنَّ مع كمال العلم لا تصدر المعصية من العبد، فإنَّه لو رأى صبيًّا يتطلَّع عليه من كوَّة لم تتحرَّك جوارحه لمواقعة الفاحشة، فكيف يقع منه حال كمال العلم بنظر الله إليه، ورؤيته له، وعقابه على الذنب، وتحريمه له، وسوء عاقبته؟ فلا بدَّ من غفلة القلب على هذا العلم، وغيبته عنه. فحينئذٍ يكون وقوعه في المعصية صادرًا عن جهلٍ وغفلةٍ ونسيانٍ مضادٍّ للعلم.

والذنب محفوفٌ بجهلين: جهل بحقيقة الأسباب الصارفة عنه، وجهل بحقيقة المفسدة المترتبة عليه. وكل واحد من الجهلين تحته جهالات كثيرة، فما عُصِيَ الله إلَّا بالجهل، وما أُطِيعَ إلَّا بالعلم، فهذا بعض ما احتجَّت به هذه الطائفة».

* * *

(١) هذه الآثار ذكرها ابن القيم في مفتاح دار السعادة (٩٠/١).

QaradawiBooks.com

القول الآخر: «العلم لا يستلزم الهداية»:

«وقالت الطائفة الأُخرى: العلم لا يستلزم الهداية، وكثيرًا ما يكون الضلال عن عمدٍ وعلمٍ لا يشك صاحبه فيه، بل يؤْثر الضلال والكفر، وهو عالِم بقبحه ومفسدته».

أدلَّة هذا الفريق:

«قالوا: وهذا شيخ الضلال، وداعي الكفر، وإمام الفَجَرة، إبليس عدوُّ الله، قد علم أمر الله له بالسجود لآدم ولم يشكَّ فيه، فخالفه وعاند الأمر، وباء بلعنة الله وعذابه الدائم، مع علمه بذلك ومعرفته به، وأقسم له بعزَّته أنَّه يغوي خلقه أجمعين، إلَّا عبادَه منهم المخلَصين، فكان غير شاكٍّ في الله، وفي وحدانيَّته، وفي البعث الآخر، وفي الجنَّة والنار، ومع ذلك اختار الخلود في النار واحتمال لعنة الله وغضبه وطرده من سمائه وجنَّته، عن علمٍ بذلك ومعرفةٍ لم يحصل لكثير من الناس. ولهذا ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الحجر: ٣٦]، وهذا اعتراف منه بالبعث وإقرارٌ به، وقد علمَ قَسَم ربه: ليملأنَّ جهنم منه ومن أتباعه. فكان كفْره كفرَ عنادٍ محضٍ لا كفر جهل.

وقال تعالى إخبارًا عن قوم ثمود: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧]، يعني بَيَّنَّا لهم وعَرَّفناهم فعرفوا الحقَّ وتيقَّنوه وآثروا العمى عليه، فكان كفر هؤلاء عن علم.

وقال تعالى حاكيًا عن موسى أنَّه قال لفرعون: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، أي هالكًا على قراءة مَن فتح التاء وهي قراءة الجمهور،

QaradawiBooks.com

وضمَّها الكسائي وحده[1]. وقراءة الجمهور أحسن وأوضح وأفخم معنى، وبها تقوم الدلالة، ويتمُّ الإلزام، بتحقق كفر فرعون وعناده. ويشهد لها قوله تعالى إخبارًا عنه وعن قومه: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٣، ١٤]، فأخبر سبحانه أنَّ تكذيبهم وكفرَهم كان عن يقين ـ وهو أقوى العلم ـ ظلمًا منهم وعُلُوًّا لا جهلًا.

وقال تعالى لرسوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، يعني أنَّهم قد عرفوا صدقك وأنَّك غير كاذب فيما تقول، ولكن عاندوا وجحدوا بالمعرفة، قاله ابن عبَّاس رضي الله عنهما والمفسِّرون. قال قتادة: يعلمون أنَّك رسول ولكن يجحدون. قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ۝ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٠، ٧١]، يعني: تكفرون بالقرآن وبمن جاء به وأنتم تشهدون بصحَّته وبأنَّه الحق، فكفركم كفر عِناد وجحود عن علم وشهود لا عن جهل وخَفاء.

وقال تعالى عن السَّحَرة من اليهود: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢]، أي: علموا من أخذ السحر وقبله لا نصيب له في الآخرة ومع هذا العلم والمعرفة فهم يشترونه ويقبلونه ويتعلَّمونه.

(١) الحجة للقراء السبعة لأبي عليّ الفارسي (١٢٢/٥)، تحقيق بدر الدين قهوجي وبشير جويجابي، نشر دار المأمون للتراث، دمشق، ط ٢، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

QaradawiBooks.com

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ [البقرة: ١٤٦]، ذكر هذه المعرفة عن أهل الكتاب في القِبْلة كما في سورة البقرة، وفي التوحيد كقوله في الأنعام: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۞ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُ﴾ [الأنعام: ١٩، ٢٠]، وفي الكتاب أنَّه مُنزَّل من عند الله، لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأنعام: ١١٤].

وقال تعالى: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٨٦].

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: هم قريظة والنضير ومَنْ دان بدينهم، كفروا بالنبي ﷺ بعد أن كانوا قبل مبعثه مؤمنين به، وشهدوا له بالنبوَّة. وإنَّما كفروا بغيًا وحسدًا[(١)].

قال الزجَّاج: أعلم الله عز وجل أنَّه لا جهة لهدايتهم؛ لأنَّهم قد استحقُّوا أن يضلوا بكفرهم؛ لأنَّهم كفروا بعد البيِّنات[(٢)]. ومعنى (كَيْفَ يَهْدِيهِمْ) أي: أنَّه لا يهديهم؛ لأنَّ القوم عرفوا الحقَّ وشهدوا به وتيقَّنوه، وكفروا عمدًا، فمن أين تأتيهم الهداية؟ فإنَّ الَّذي تُرتجى هدايته مَن كان ضالًّا ولا يدري أنَّه ضال، بل يظنُّ أنَّه على هدى، فإذا عرف الهدى اهتدى. وأمَّا مَن عرف الحق وتيقنه، وشهد به قلبه، ثم اختار الكفر والضلال عليه، فكيف يهدي الله مثل هذا؟

(١) تفسير الرازي (٢٨٣/٨)، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٣، ١٤٢٠هـ.

(٢) معاني القرآن للفراء (٤٣٩/١)، تحقيق عبد الجليل عبده شلبي، نشر عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

QaradawiBooks.com

وقال تعالى عن اليهود: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩]، ثم قال: ﴿بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [البقرة: ٩٠]. قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: لم يكن كفرهم شكًّا ولا اشتباهًا، ولكن بَغيًا منهم حيث صارت النبوة في ولد إسماعيل(١).

ثم قال بعد ذلك: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١]، فلما شبَّههم في فعلهم هذا بمن لا يعلم، دلَّ على أنَّهم نبذوه عن علم، كفعل مَنْ لا يعلم. تقول إذا خاطبت مَن عصاك عمدًا: كأنَّك لم تعلم ما فعلت، أو كأنَّك لم تعلم بنهيي إيَّاك.

وقال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ۝ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦].

قالوا: فهل بعد هذه الآية بيان؟ فإنَّ هذا آتاه الله آياته فانسلخ منها، وآثر الضلال والغي، وقصَّته معروفة حتَّى قيل: إنَّه كان أُوتي الاسم الأعظم، ومع هذا فلم ينفعه علمه، وكان من الغاوين، فلو استلزم العلم والمعرفة الهداية لاستلزمه في حقِّ هذا.

وقال تعالى: ﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

---

(١) التفسير البسيط للواحدي (١٥١/٣)، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ط١، ١٤٣٠هـ.

QaradawiBooks.com

قالوا: ويكفي في هذا إخباره تعالى عن الكفار أنَّهم يقولون بعد ما عاينوا العذاب، ووردوا القيامة، ورأوا ما أخبرت به الرُّسُل: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨]، فأيُّ علم أبين من علم مَن وَرَدَ القيامة، ورأى ما فيها وذاق عذَاب الآخرة؟ ثم لو رُدَّ إلى الدنيا لاختار الضلال على الهدى، ولم ينفعه ما قد عاينه ورآه؟

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١]، فهل بعد نزول الملائكة عيانًا، وتكليم الموتى لهم، وشهادتهم للرسول بالصدق، وحشْر كل شيء في الدنيا عليهم من بيان وإيضاح للحقِّ وهدى؟ ومع هذا فلا يؤمنون، ولا ينقادون للحق، ولا يصدِّقون الرسول!

ومَنْ نَظَر في سيرة رسول الله ﷺ مع قومه، ومع اليهود، علم أنَّهم كانوا جازمين بصدقه ﷺ، لا يشكُّون أنَّه صادق في قوله: إنَّه رسول الله، ولكن اختاروا الضلال والكفر على الإيمان.

قال المِسْوَرُ بن مَخْرَمَة رضي الله عنه لأبي جهلٍ وكان خاله: أيْ خال، هل كنتم تتَّهمون محمدًا بالكذب قبل أن يقول مقالته الَّتي قالها؟ قال أبو جهل لعنه الله تعالى: يا ابن أخي؛ والله لقد كان محمد فينا وهو شاب يُدْعَى الأمين، ما جرَّبنا عليه كذبًا قط، فلمَّا وخطه الشيب لم يكن ليكذب على الله! قال: يا خال، فلِمَ لا تتَّبعونه؟ قال: يا ابنَ أخي، تنازعنا نحن وبنو هاشم الشَّرَف، فأطعموا وأطعمنا، وسقَوا وسقينا، وأجاروا

QaradawiBooks.com

وأجرنا، فلمَّا تجاثيْنا على الركب، وكنَّا كفرَسَــيْ رهان، قالوا: مِنَّا نبيٌّ. فمتى نُدرك هذه[١]؟!

وهذا أُمَيَّة بن أبي الصلــت، كان ينتظره يومًا بيــوم، وعلمه عنده قبل مبعثه، وقصته مع أبي سفيان لمَّا سافرا معًا معروفة، وإخباره برسول الله ﷺ، ثم لما تيقَّنه وعرف صدقه قال: لا أؤمن بنبيٍّ من غير ثقيف أبدًا[٢].

وهذا هرقل تيقَّن أنَّه رســول الله ﷺ، ولم يشــكَّ فيه، وآثَر الضلال والكفر استبقاءً لملكه[٣].

ولمَّا ســأله اليهود عن التســع آيات البيِّنات فأخبرهم بها، قبَّلوا يده، وقالوا: نشهد أنَّك نبيٌّ. قال: «**فما يمنعكم أن تتَّبعوني؟**» قالوا: إنَّ داود عليه السلام دعا ألَّا يزال في ذُريَّته نبي، وإنَّا نخشى إنِ اتَّبعناك أن تقتلنا يهود[٤]!

فهؤلاء قــد تحقَّقوا نبوَّته، وشــهدوا له بها، ومع هــذا فآثروا الكفر والضلال».

أقسام الكفر:

«قالوا: وقد بيَّن القرآن أنَّ الكفر أقسام:

أحدهما: كفرُ صادر عن جهل وضلال، وتقليد الأســلاف، وهو كفر أكثر الأتباع والعوام.

---

(١) سيرة ابن إسحاق صـ ١٩٠، تحقيق سهيل زكار، نشر دار الفكر، بيروت، ط١، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

(٢) رواه أبو نعيم في معرفة الصحابة (٣٨٤١)، تحقيق عادل بن يوسف العزازي، نشر دار الوطن، الرياض، ط١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (٧)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٧٣)، عن ابن عباس.

(٤) رواه أحمــد (١٨٠٩٢) وقال مخرِّجوه: إســناده ضعيف. والترمذي في الاســتئذان والآداب (٢٧٣٣) وقال: حسن صحيح. والنسائي في تحريم الدم (٤٠٧٨)، عن صفوان بن عسال.

QaradawiBooks.com

والثاني: كفرُ جحود وعناد وقصد مخالفة الحق، ككفر مَنْ تقدَّم ذكره، وغالب ما يقع هذا النوع فيمن له رياسة علمية في قومه من الكفار، أو رياسة سلطانية، أو مَن له مأكل وأموال في قومه، فيخاف هذا على رياسته، وهذا على ماله ومأكله، فيُؤْثر الكفر على الإيمان عمدًا.

الثالث: كفر إعراض محض، لا ينظر فيما جاء به الرسول، ولا يحبه ولا يبغضه، ولا يواليه ولا يعاديه، بل هو مُعْرِض عن متابعته ومعاداته.

وهذان القسمان أكثر المتكلمين ينكرونهما ولا يثبتون من الكفر إلَّا الأول، ويجعلون الثاني والثالث كفرًا لدلالته على الأول، لا لأنَّه في ذاته كفر، فليس عندهم الكفر إلَّا مجرد الجهل!

ومَن تأمَّل القرآن والسُّنَّة وسير الأنبياء في أُممهم ودعوتهم لهم، وما جرى لهم معهم، جزم بخطأ أهل الكلام فيما قالوه، وعلم أنَّ عامَّة كفر الأُمم عن تيقُّن وعلم، ومعرفة بصدق أنبيائهم، وصحَّة دعواهم وما جاؤوا به.

وهذا القرآن مملوء من الأخبار عن المشركين عُبَّاد الأصنام أنَّهم كانوا يقرون بالله، وأنَّه هو وحده ربهم وخالقهم، وأنَّ الأرض وما فيها له وحده، وأنَّه رب السماوات السبع ورب العرش العظيم، وأنَّه بيده ملكوت كل شيء، وهو يُجير ولا يُجار عليه، وأنَّه هو الَّذي سخَّر الشمس والقمر، وأنزل المطر، وأخرج النبات.

والقرآن منادٍ عليهم بذلك، محتجٌّ بما أقروا به من ذلك على صحَّة ما دعتهم إليه رسله. فكيف يقال: إنَّ القوم لم يكونوا مُقرِّين قط بأنَّ لهم ربًّا وخالقًا، وهذا بهتان عظيم، فالكفر أمرٌ وراء مجرَّد الجهل، بل الكفر الأغلظ هو ما أنكره هؤلاء، وزعموا أنَّه ليس بكفر.

QaradawiBooks.com

قالوا: والقلب عليه واجبان لا يصير مؤمنًا إلَّا بهما جميعًا: واجب المعرفة والعلم، وواجب الحب والانقياد والاستسلام. فكما لا يكون مؤمنًا إذا لم يأت بواجب العلم والاعتقاد لا يكون مؤمنًا إذا لم يأت بواجب الحب والانقياد والاستسلام. بل إذا ترك هذا الواجب مع علمه ومعرفته به كان أعظم كفرًا، وأبعد عن الإيمان من الكافر جهلًا. فإنَّ الجاهل إذا عرف وعلم فهو قريب إلى الانقياد والاتباع. وأمَّا المعاند فلا دواء فيه. قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٨٦].

قالوا: فحب الله ورسوله، بل كون الله ورسوله أحبَّ إلى العبد من سواهما: لا يكون العبد مسلمًا إلَّا به. ولا ريب أنَّ الحبَّ أمر وراء العلم، فما كل مَنْ عرف الرسول أحبَّه كما تقدَّم.

قالوا: وهذا الحاسد يحمله بغض المحسود على معاداته، والسعي في أذاه بكل ممكن، مع علمه بفضله وعلمه، وأنَّه لا شيء فيه يوجب عداوتَه إلَّا محاسنه وفضائله. ولهذا قيل: الحاسد عدوٌّ للنعم والمكارم! فالحاسد لم يحمله على معاداة المحسود جهله بفضله وكماله، وإنَّما حملَه على ذلك فساد قصده وإرادته، كما هي حال الرُّسُل وورثتهم مع الرؤساء الَّذين سلبهم الرُّسُل ووارثوهم رئاستَهم الباطلة، فعادوهم وصدُّوا النفوس عن متابعتهم، ظنًّا أنَّ الرياسة تبقى لهم وينفردون بها. وسُنَّة الله في هؤلاء أن يسلبهم رياسة الدنيا والآخرة، ويصغرهم في عيون الخلق، مقابلةً لهم بنقيض قصدهم، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]».

QaradawiBooks.com

حكم ابن القَيِّم بين الفريقين:

«فهذا موارد احتجاج الفريقين، وموقف أقدام الطائفتين، فاجلس أيها المنصف منهما مجلس الحكومة، وتوخَّ بعلمك وعدلك فصْل هذه الخصومة، فقد أدلى كُلٌّ منهما بحُجج لا تُعَارَض ولا تُمانَع، وجاء ببيِّنات لا تُرَدُّ ولا تُدَافع، فهل عندك شيء غير هذا يحصل به فصل الخطاب، وينكشف به لطالب الحق وجه الصواب، فيرضي الطائفتين، ويزول به الاختلاف من البين؟ وإلَّا فخلِّ المطيَّ وحاديها، وأعط القَوْس باريها:

دَعِ الهوى لأُناسٍ يُعرفونَ به ... قد كابدوا الحبَّ حتَّى لان أصعبُه[1]!

ومَن عرف قدره، وعرف لذي الفضل فضله، فقد قرع باب التوفيق، والله الفتَّاح العليم، فنقول وبالله التوفيق:

كلا الطائفتين ما خرجت عن موجب العلم، ولا عَدلت عن سَنن الحق، وإنَّما الاختلاف والتباين بينهما من عدم التوارد على محلٍّ واحد، ومن إطلاق ألفاظ مجملة بتفصيل معانيها يزول الاختلاف، ويظهر أنَّ كل طائفة موافقة الأخرى على نفس قولها.

وبيان هذا: أنَّ المقتضيَ قسمان:

مقتضٍ لا يتخلَّف عنه موجبه ومقتضاه، لقصوره في نفسه، بل يستلزمه استلزام العلَّة التامَّة لمعلولها.

(١) القائل: أبو القاسم علي بن أفلح الكاتب، كما في المنتظم في تاريخ الأمم والملوك لابن الجوزي (٣٣٨/١٧)، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

QaradawiBooks.com

ومقتضٍ غير تامٍّ، يتخلَّف عنه مقتضاه، لقصوره في نفسه عن التمام، أو لفوات شرط اقتضائه، أو قيام مانع منع تأثيره.

فإن أريد بكون العلم مقتضيًا للاهتداء: الاقتضاء التامَّ الَّذي لا يتخلَّف عنه أثره، بل يلزمه الاهتداء بالفعل، فالصواب قول الطائفة الثانية، وأنَّه لا يلزم من العلم حصول الاهتداء المطلوب.

وإن أريد بكونه موجبًا: أنَّه صالح للاهتداء، مقتضٍ له، وقد يتخلَّف عنه مقتضاه لقصوره، أو فوات شرط، أو قيام مانع، فالصواب قول الطائفة الأولى».

موانع الاهتداء إلى الحقِّ:

«وتفصيل هذه الجملة: أنَّ العلم بكون الشيء سببًا لمصلحة العبد ولذاته وسروره قد يتخلَّف عنه عمله بمقتضاه، لأسباب عديدة:

السبب الأول: ضعف معرفته بذلك.

السبب الثاني: عدم الأهليَّة. وقد تكون معرفته به تامَّة، لكن يكون مشروطًا بزكاة المحل وقبوله للتزكية، فإذا كان المحل غير زكي ولا قابل للتزكية، كان كالأرض الصَّلدة الَّتي لا يخالطها الماء، فإنَّه يمتنع النبات منها، لعدم أهليتها وقبولها، فإذا كان القلب قاسيًا حجريًّا لا يقبل تزكية ولا تؤثر فيه النصائح، لم ينتفع بكل علم يعلمُه، كما لا تنبت الأرض الصلبة ولو أصابها كل مطر، وبُذِر فيها كلُّ بذر، كما قال تعالى في هذا الصنف من الناس: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، وقال تعالى:

QaradawiBooks.com

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، وهذا في القرآن كثير.

فإذا كان القلب قاسيًا غليظًا جافيًا، لا يعمل فيه العلم شيئًا، وكذلك إذا كان مريضًا مهينًا مائيًّا لا صلابة فيه ولا قوَّة ولا عزيمة لم يؤثِّر فيه العلم.

السبب الثالث: قيام مانع، وهو: إمَّا حسد، أو كِبْر. وذلك مانع إبليس من الانقياد للأمر، وهو داء الأوَّلين والآخرين، إلَّا مَن عصم الله. وبه تَخلَّف الإيمان عن اليهود الَّذين شاهدوا رسول الله ﷺ وعرفوا صحَّة نبوَّته، ومَن جرى مجراهم، وهو الَّذي منع عبد الله بن أُبيّ من الإيمان، وبه تخلَّف الإيمان عن أبي جهل وسائر المشركين، فإنَّهم لم يكونوا يرتابون في صدقه، وأنَّ الحق معه، لكن حملهم الكِبْر والحسد على الكفر، وبه تخلَّف الإيمان عن أُميَّة (ابن أبي الصَّلْت) وأضرابه ممن كان عنده علم بنبوَّة محمد ﷺ.

السبب الرابع: مانع الرياسة والمُلْك، وإن لم يقم بصاحبه حسد ولا تكبر عن الانقياد للحق، لكن لا يمكنه أن يجتمع له الانقياد ومُلكه ورياسته، فيضنُّ بمُلكه ورياسته كحال هرقل وأضرابه من ملوك الكفار، الَّذين علموا نبوَّته وصدقه، وأقرُّوا بها باطنًا، وأحبُّوا الدخول في دينه، لكن خافوا على مُلكهم.

وهذا داء أرباب المُلك والولاية والرياسة، وقلَّ مَن نجا منه إلَّا مَن عصم الله، وهو داء فرعون وقومه. ولهذا قالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧]، أنِفوا أن يؤمنوا ويتبعوا موسى وهارون

QaradawiBooks.com

وينقادوا لهما، وبنو إسـرائيل عبيدٌ لهم. ولهذا قيل: إنَّ فرعون لما أراد متابعة موسـى وتصديقَه شـاور هامان وزيره. فقال: بينا أنت إلٰه تُعبَد، تصير عبدًا تَعبُد غيرك! فأبى العبوديَّة واختار الرياسة والإلٰهية المحال.

السبب الخامس: مانع الشهوة والمال، وهو الَّذي منع كثيرًا من أهل الكتاب من الإيمان، خوفًا من بطلان مأكلهم، وأموالهم الَّتي تصير إليهم من قومهم، وقد كانت كفار قريش يَصدُّون الرجل عن الإيمان بحسـب شهوته، فيدخلون عليه منها. فكانوا يقولون لمن يحب الزنى: إنَّ محمدًا يُحرِّم الزنى ويُحرِّم الخمر، وبه صدُّوا الأعشى الشاعر عن الإسلام.

وقد فاوضتُ غير واحد من أهل الكتاب في الإسلام وصحته، فكان آخرَ ما كلَّمني به أحدهم: أنا لا أترك الخمر وأشـربها آمنًا، فإذا أسلمتُ حِلْتم بيني وبينها، وجلدتموني على شربها!

وقال آخر منهم بعـد أن عرف ما قلت له: لي أقـارب أرباب أموال، وإنِّي إن أسلمتُ لم يصل إليَّ منها شيء، وأنا أؤمّل أن أرثهم، أو كما قال.

ولا ريب أنَّ هذا القدر في نفوس خلق كثيـر من الكفار، فتتفق قوَّة داعي الشـهوة والمال، وضعـف داعي الإيمان، فيجيب داعي الشـهوة والمال، ويقول: لا أرغب بنفسي عن آبائي وسَلَفي.

السبب السـادس: محبَّة الأهل والأقارب والعشيرة، يرى أنَّه إذا اتَّبع الحقَّ وخالفهم أبعدوه وطردوه عنهم، وأخرجوه من بين أظهرهم. وهذا سبب بقاء خلق كثير على الكفر بين قومهم وأهاليهم وعشائرهم.

السبب السـابع: محبَّة الدار والوطن، وإن لم يكن له بها عشيرة ولا أقارب، لكن يرى أنَّ في متابعة الرسول، خروجه عن داره ووطنه إلى دار الغُرْبة والنَّوى، فيضنُّ بوطنه.

QaradawiBooks.com

السبب الثامن: تخيُّل أنَّ في الإسلام ومتابعة الرسول إزراءً وطعنًا منه على آبائه وأجداده، وذمًّا لهم، وهذا هو الَّذي منع أبا طالب وأمثاله عن الإسلام.

السبب التاسع: متابعة مَن يعاديه من النَّاس للرسول، وسبقه إلى الدخول في دينه، وتخصصه وقربه منه، وهذا القدْر منع كثيرًا من اتِّباع الهدى، يكون للرجل عدوٌّ ويبغض مكانه، ولا يحب أرضًا يمشي عليها، ويقصد مخالفته ومناقضته، فيراه قد اتبع الحق، فيحمله قصد مناقضته ومعاداته على معاداة الحق وأهله، وإن كان لا عداوة بينه وبينهم، وهذا كما جرى لليهود مع الأنصار، فإنَّهم كانوا أعداءهم وكانوا يتواعدونهم بخروج النبي ﷺ، وأنَّهم يتبعونه ويقاتلونهم معه، فلما بدرَهم إليه الأنصار وأسلموا، حملهم معاداتهم على البقاء على كفرهم ويهوديَّتهم.

السبب العاشر: مانع الإلف والعادة والمنشأ؛ فإنَّ العادة قد تقوى حتَّى تغلب حكم الطبيعة، ولهذا قيل: هي طبيعة ثانية. فيربَّى الرجل على المقالة، وينشأ عليها صغيرًا، فيتربى قلبه ونفسه عليها، كما يتربَّى لحمه وعظمه على الغذاء المعتاد، ولا يعقل نفسه إلَّا عليها، ثم يأتيه العلم وهلةً واحدةً يريد إزالتها وإخراجها من قلبه، وأن يسكن موضعها، فيعسر عليه الانتقال، ويصعب عليه الزوال.

وهذا السبب، وإن كان أضعف الأسباب معنًى، فهو أغلبها على الأُمم، وأرباب المقالات والنِّحَل ليس مع أكثرهم بل جميعهم ـ إلَّا ما عسى أن يشذَّ ـ إلَّا عادة ومَرْبى تربَّى عليه طفلًا، لا يعرف غيرها، ولا يحسن به، فدين العوائد هو الغالب على أكثر الناس، فالانتقال عنه

QaradawiBooks.com

كالانتقال عن الطبيعة إلى طبيعة ثانية، فصلوات الله وسلامه على أنبيائه ورُسُــلِه خصوصًا على خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ، كيف غيَّروا عوائدَ الأُمــم الباطلة، ونقلوهم إلى الإيمان حتَّى استحدثوا بــه طبيعة ثانية، خرجوا بها عن عادتهم وطبيعتهم الفاســدة، ولا يعلم مشــقَّة هذا على النفوس، إلَّا مَن زاوَل نقل رجل واحد عن دينه ومقالته إلى الحق، فجزى الله المرسلين أفضل ما جزى به أحدًا من العالمين»[1].

* * *

(١) مفتاح دار السعاد (١/٨٨ ـ ٩٨).

QaradawiBooks.com

العلم سبيل اليقين

وكما أنَّ العلم ـ كما يُصوِّره القرآن ـ دليل الإيمان، فهو كذلك سبيل اليقين، وهو ـ كما قال الراغب ـ سكون الفهم مع ثبات الحكم. وهو من صفة العلم، فوق المعرفة والدراية وأخواتها. يقال: علم يقين، ولا يقال: معرفة يقين.

وهو يقابل الظنَّ والشكَّ. قال في «الصحاح»: اليقينُ: العلمُ وزوالُ الشكِّ[1]. ولهذا قال تعالى في خطاب المشركين: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢].

وفي شأن الَّذين زعموا قتل عيسى: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا﴾ [النساء: ١٥٧].

واليقين بالله تعالى وآياته ولقائِه هو ما يسعى إليه كل مؤمن، ويحرص على تحقيقه، ليجد فيه ثلج صدره، وطمأنينة قلبِه، وسكينةَ نفسه، وإنَّما يصل إلى هذه المرتبة بالعلم ورسوخه، الَّذي يطرد الجهل والظنَّ والشك.

يقول تعالى: ﴿قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ١١٨].

(١) الصحاح (٢٢١٩/٦)، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، نشر دار العلم للملايين، بيروت، ط ٤، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

QaradawiBooks.com

﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٤].

﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠].

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢].

﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۞ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١].

ومدَحَ الله خليله إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥].

كما مدَح الله تعالى المُتَّقين والمؤمنين والمحسنين بأنَّهم من أهل اليقين بالآخرة، فقال تعالى في مطلع سورة البقرة: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٢ ـ ٥].

وكذلك وصف المؤمنين في مطلع سورة النمل، والمحسنين في مطلع سورة لقمان، فكلهم: ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٣، ولقمان: ٤].

وجعل القرآن اليقين مع الصبر، جناحين يطير بهما الإنسان إلى مقام الإمامة في الدين، يقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدِّين»(١).

(١) قاعدة في الصبر صـ ٩٤، تحقيق محمد بن خليفة التميمي، نشر مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد ١١٦ ـ السنة ٣٤، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م.

QaradawiBooks.com

ومن المعلوم أنَّ الشيطان يحارب الإنسان المؤمن بجندين رئيسين: جند الشهوات، وجند الشبهات. فهو بالشهوات يفسد سلوكه وعمله، وبالشبهات يفسد اعتقاده وفكره. والمؤمن يقاوم هذا الغزو الشيطاني بسلاحين أساسيين: سلاح الصبر ليهزم به الشهوات، وسلاح اليقين ليهزم به الشبهات.

وقد أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بالصبر والثبات، ونَهاه أن يستخفَّه الَّذين لا يوقنون بالله ولا بالآخرة، فيستعجل فيما تنبغي فيه الأناة، أو يغضب حيث ينبغي الرضا، أو يقتحم حيث ينبغي التثبت، فقال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠].

ومن علامات الساعة الكبرى الَّتي تنبئ بأنَّ الكون يوشك أن تنقضَّ خيامه، وينفرط نظامه: خروج دابة الأرض، الَّتي تخاطب النَّاس، وتعلمهم بانعدام اليقين بآيات الله، كما قال ﷻ: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢].

قال ابن القَيِّم: «واليقين من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد، وبه تفاضل العارفون، وفيه تنافس المتنافسون، وإليه شمَّر العاملون، وعمل القوم إنَّما كان عليه، وإشاراتهم كلها إليه... فاليقين روح أعمال القلوب، الَّتي هي أرواح أعمال الجوارح، وهو حقيقة الصِّدِّيقيَّة، وهو قطب هذا الشأن الَّذي عليه مداره»(١).

قال ابن القَيِّم: «ولو لم يكن من فوائد العلم إلَّا أنَّه يُثمر اليقين الَّذي هو أعظم حياة القلب، وبه طمأنينته، وقوته، ونشاطه وسائر لوازم الحياة،

(١) مدارج السالكين (٣٩٧/٢)، نسر مطبعة السُّنة المحمدية، مصر.

QaradawiBooks.com

ولهذا مدح الله سبحانه أهله في كتابه وأثنى عليهم بقوله: ﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤]، وقوله في حقِّ خليله إبراهيم: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥]. وذمَّ مَنْ لا يقين عنده فقال: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢].

وفي الحديث المرفوع من حديث سفيان الثوري، عن سليمان التَّيمي[١]، عن خيثمة، عن عبد الله بن مسعود يرفعه: «**لا ترضينَّ أحدًا بسخَط الله، ولا تَحْمَدنَّ أحدًا على فضله، ولا تَذُمَّنَّ أحدًا على ما لم يؤْتك الله، فإنَّ رزقَ الله لا يسوقه حرص حريص، ولا يردُّه عنك كراهية كاره، وإنَّ اللهَ بعدله وقِسْطه جعل الرَّوْحَ والراحة والفرح في الرضا واليقين، وجعل الهمَّ والحزن في الشكِّ والسخط**»[٢]، فإذا باشر القلبَ اليقينُ امتلأ نورًا، وانتفى عنه كلُّ ريب وشكٍّ، وعُوفي من أمراضه القاتلة، وامتلأ شكرًا لله، وذكرًا له، ومحبَّةً وخوفًا، فحيِيَ عن بيِّنة.

واليقين والمحبة هما ركنا الإيمان، وعليهما ينبني، وبهما قوامه، وهما يمدان سائر الأعمال القلبيَّة والبدنيَّة، وعنهما تصدر، وبضعفهما يكون ضعف الأعمال، وبقوتهما قوتها. وجميع منازل السائرين، ومقامات العارفين، إنَّما تُفتح بهما، وهما يُثمران كل عمل صالح، وعلم نافع، وهدى مستقيم.

قال شيخ العارفين الجُنَيد: اليقين هو استقرار العلم، الَّذي لا ينقلب، ولا يتحول، ولا يتغيَّر في القلب[٣].

(١) كذا في الأصل، وفي الطبراني: سليمان الأعمش. وهو الصواب.

(٢) رواه الطبراني (١٠/٢١٥)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٢٩١): فيه خالد بن يزيد العمري، واتُّهم بالوضع. وضعف إسناده البوصيري في إتحاف الخيرة (٢/٢٧٢٢).

(٣) الرسالة القشيرية (١/٣١٩)، تحقيق الإمام الدكتور عبد الحليم محمود، نشر دار المعارف، القاهرة.

QaradawiBooks.com

وقال سهل: حرام على قلب أن يشمَّ رائحة اليقين، وفيه سكون إلى غير الله[١].

وقيل: من علاماته: الالتفات إلى الله في كل نازلة، والرجوع إليه في كل أمر، والاستعانة به في كل حال، وإرادة وجهه بكل حركة وسكون.

وقال السَّرِيُّ: اليقين السكون عند جولان الموارد في صدرك، لتيقُّنك أنَّ حركتك فيها لا تنفعك ولا تردُّ عنك مقضيًّا.

قلت: هذا إذا لم تكن الحركة مأمورًا بها، فإذا كانت مأمورًا بها، فاليقين في بذل الجهد فيها واستفراغ الوسع.

وقيل: إذا استكمل العبد حقيقةَ اليقين صار البلاء عنده نعمة والمحنة منحة. فالعلم أول درجات اليقين. ولهذا قيل: العلم يستعملك واليقين يحملك.

فاليقين أفضل مواهب الربِّ لعبده، ولا تثبت قدم الرضا إلَّا على درجة اليقين.

قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١]. قال ابن مسعود: هو العبد تصيبه المصيبة فيعلم أنَّها من الله، فيرضى ويُسلِّم[٢]. فلهذا لم يحصل له هداية القلب، والرضا والتسليم، إلَّا بيقينه»[٣].

(١) رواه الخطيب في المنتخب من كتاب الزهد والرقائق (٩).
(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٩٥٠٣).
(٣) مفتاح دار السعادة (١/١٥٤، ١٥٥).

QaradawiBooks.com

درجات اليقين:

واليقين ـ كما ذكره القرآن ـ درجات ثلاث:

أُولاها: علم اليقين. وإليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥].

وثانيتها: عَيْنُ اليقين. وإليها يشير قوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٦، ٧].

وثالثتها ـ وهي الأعلى والأخيرة ـ: حق اليقين. وإليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥].

وقال عن القرآن: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الحاقة: ٥١].

درجة علم اليقين:

فأمَّا «علم اليقين»، فهو العلم الراسخ الجازم، الَّذي لا يخالج القلبَ فيه شبهة، ولا شك، ولا تناسٍ ولا غفلة عنه. فكل عقيدة تواردت عليها الأدلَّة، وتكاثرت الآيات البيِّنات على صدقها وصحَّتها، حتَّى صدَّق بها العقل، واطمأنَّ بها القلب، وسكنت إليها النفس، وانتفت عنها كل الظنون والشكوك والشبهات، فهذا العلم أو هذا الإيمان بها، أو هذا العلم المؤمن أو الإيمان العالم، هو علم اليقين، الَّذي مدَح الله به عباده المُتَّقين في كتابه، وإن كانت مراتبه تتفاوت، وهو يزداد ويقوى بالأسباب والبراهين والطاعات، الَّتي تزيده قوَّة على قوة. كما قال أحد السَّلَف ـ وهو عامر بن عبد قيس ـ: لو كُشِفَ الغطاء ما ازددتُ يقينًا[1]!

---

(١) الرسالة القشيرية (٣١٩/١).

QaradawiBooks.com

وقال بعضهم: رأيتُ الجنَّة والنار حقيقة. قيل له: وكيف؟ قال: رأيتُهما بعيني رسول الله ﷺ. ورؤيتي لهما بعينيه آثر عندي من رؤيتي لهما بعينيَّ، فإنَّ بصري قد يطغى ويزيغ، بخلاف بصره ﷺ(١).

غير مرخصة للطباعة

درجة عين اليقين:

وأمَّا درجة «عَيْن اليقين» فهي أعلى وأرفع. والفرق بينها وبين «علم اليقين» كالفرق بين المعاينة والخبر الصادق. والشاعر يقول:

يا ابنَ الكرامِ ألا تدنو فتُبْصِرُ ما قد حدَّثوك؟ فما راءٍ كمَنْ سمعا(٢)!

وفي الحديث: «**ليس الخبرُ كالمعاينة**»(٣).

وهي الدرجة الَّتي طلبها خليل الله إبراهيم عليه السلام من ربه، حين قال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وهي الَّتي رقى الله عز وجل إليها خاتم رسله، وصفوة خلقه محمدًا ﷺ، ليلة الإسراء والمعراج؛ ليرى من آيات ربه الكبرى، ويشاهد من عوالِم الغيب عَيانًا ما لم يشهده غيره، ورأى جبريل على صورته المَلَكية

(١) انظر: مدارج السالكين (٤٠٠/٢).

(٢) شاهد نحوي يورده النحاة شاهدًا على نصب المضارع بأن المضمرة بعد فاء السببية، انظر: شرح التسهيل لابن مالك (٣٣/٤)، تحقيق د. عبد الرحمن السيد ود. محمد بدوي المختون، نشر هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط١، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

(٣) رواه أحمد (١٨٤٢)، وقال مخرِّجوه: صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين. وابن حبان في التاريخ (٦٢١٣)، والحاكم في التفسير (٣٢١/٢) وصحَّحه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، عن ابن عباس.

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

الحقيقيـــة، كما قال تعالـــى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۞ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۞ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۞ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۞ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۞ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۞ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۞ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١١ ـ ١٨].

درجة حق اليقين:

وأمَّا «حقُّ اليقين» فهي درجةٌ فوق «علم اليقين» و«عَيْن اليقين».

فإذا كان «علم اليقين» للخبــر الصادق، و«عَيْن اليقين» للمشــاهَدة والعيان، فإنَّ «حقَّ اليقين» أشبه باللمس والذَوْق.

وقد مثَّلوا المراتب الثلاث بمن أخبرك أنَّ عنده عسلًا طبيعيًّا مصفًّى حلو المذاق، صفته كذا وكذا. وأنت لا تشــك في صدقه. ثم أراك إياه، فازددتَ يقينًا، ثم قدَّمه إليك فذقته وأكلت منه.

فالأول «علم اليقين»، والثاني «عَيْن اليقين»، والثالث «حقُّ اليقين».

قال ابن القَيِّم: «فعلمُنا بالجنَّة والنــار علم يقين. فإذا أُزلفت الجنَّة ـ في الموقف ـ للمتقين، وشــاهدها الخلائق، وبُرِّزت الجحيم للغاوين، وعاينها الخلائق، فذلك عَيْن اليقين. فإذا أُدخل أهل الجنَّة الجنَّة، وأهلُ النار النار، فذلك حقُّ اليقين»[1].

❊ ❊ ❊

(١) مدارج السالكين (٢/٤٠٣).

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

العلم شرط في كل منصب قيادي

ومن فضل العلم الَّذي أشار إليه القرآن: أنَّه اعتبر «العلم» مؤهِّلًا لا بدَّ منه، لكل منصب قيادي في المجتمع، فلا يجوز أن يقود الأُمة جُهَّالها، إنَّما يقودها علماؤها. والأمة الَّتي توسِّد مناصبها القيادية إلى الجهلة إنَّما تحفر رمسها بخمسها، لأنَّهم لا يسوقونها إلَّا إلى الضلال والوبال. وقد قال الشاعر:

إذا كان الغراب دليل قوم ... سيهديهم إلى جيف الكلاب!

قالوا: إنَّ بشار بن برد الشاعر المعروف ـ وقد كان مكفوف البصر ـ سأله أحد المبصرين يومًا عن طريق أو مكان، فقال: تعال أدلك عليه، ثم أنشأ يقول ساخرًا:

أعمى يقود بصيرًا لا أبا لكمو! ... قد ضلَّ من كانت العمْيَانُ تهديه[1]!

لهذا نجد القرآن يذكر العلم مرشحًا لمنصب الخلافة في الأرض في قصَّة آدم، كما ذكرنا من قبل: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ...﴾ [البقرة: ٣١] الآيات.

(١) الدر الفريد وبيت القصيد للمستعصمي (٢/٤٥٥)، وديوان بشار بن برد صـ ٩٨، تحقيق السيد بدر الدين العلوي، نشر دار الثقافة، بيروت، ١٩٨١م.

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

ووجدنا في قصَّة طالوت كيف كان العلم أحد مؤهِّلاته الأساسيَّة للقيادة العسكرية، نقرأ ذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾ [البقرة: ٢٤٦] إلى أن قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

فهؤلاء القوم من بني إسرائيل هم الَّذين قالوا لنبيِّهم: ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦]، أي هم الَّذين طلبوا ذلك ورغبوا فيه، فلما حقَّق الله لهم ما طلبوا، وعيَّن لهم نبيهم الملكَ المنشود بوحي من الله، ظهرت طبيعتهم النكدة المعاندة، وقالوا معترضين: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، لأنَّنا نملك المال الكثير وهو لم يُؤْت إلَّا القليل؟ كأنَّ المناصب الكبيرة في الأُمة لمن يملك الدرهم والدينار، لا لمن يملك البصيرة والاعتبار، وكأنَّ الفقراء يجب أن يُحرموا من كل مزية، ولو كانوا من ذَوي المواهب والمَلَكات!

وهنا كان ردُّ نبيِّهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]. و«العلم» هنا يدخل فيه ـ بصفة أوَّليَّة ـ العلم بالشؤون العسكرية الَّتي تتطلبها إدارة المعارك، كما أنَّ «البسطة في الجسم» مطلوبة هنا أيضًا، حتَّى يكون في مقدمة رجاله وجنوده، تحمُّلًا لأعباء الحرب، وصبرًا على لأوائها، ويكون منظره نفسه مهيبًا ومرهبًا لأعدائه.

ذكر البقاعي في تفسير: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]: «أي الَّذي تحصل به المكنة في التدبير والنفاذ في كل أمر، وهو يدل على

QaradawiBooks.com

اشــتراط العلم في الملك، وفي تقديم العلم على الجسم دليل على أنَّ الفضائل النفسانيَّة أشرف من الجسمانيَّة وغيرها»[١].

ووجدنا في قصَّة يوسف الصِّدِّيق عَلَيْهِ السَّلَامُ كيف جعل العلمَ أحد وصفين رئيسين يؤهِّلانه للمنصب الَّذي طلبه من الملك، بعد أن ظهرت براءته، وعلـت درجته، وظهر علمــه في تأويل رؤيــا الملك بما لــم يكن في الحسبان: ﴿**وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۝ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ**﴾ [يوسف: ٥٤، ٥٥].

فحين أفصــح الملك عن منزلة يوســف لديــه، وأنَّه ﴿**مَكِينٌ أَمِينٌ**﴾ [يوسف: ٥٤] رأى يوســف أنَّ واجبه أن يتولى مســؤولية إدارة الأزمة الَّتي أشــار إليها في تعبير الحلم الملكي: أزمة المَجاعــة الَّتي تُطوِّق البلاد، والسنين الخصبة والسنين العجاف، وليس هناك أولى منه بتولي أمرها، وقيادة سفينتها.

وفي هذا دليل على جواز طلب المنصب إذا تعيَّن الطالب للقيام به؛ لأنَّ الفرار منه في ذلــك الحين فرار من المعركــة، وهربٌ من الواجب الَّذي لا يؤديه غيره.

لهذا قال يوسف: ﴿**ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ**﴾ [يوسف: ٥٥]، وخزائــن الأرض في ذلك الوقت تشــمل ما يتعلق بالماليــة والاقتصاد والزراعة والتموين والتخطيط.

وعبارة: ﴿**حَفِيظٌ عَلِيمٌ**﴾ [يوســف: ٥٥] تعني صفتين لا غنى عنهما في أي منصب: فالحفظ يعني «الأمانة» الَّتي بهــا تُحفظ الحقوق والأموال، وتُصان ولا تُنهب ولا تُسرق، ولا تعرَّض للضياع.

---

(١) نظم الدرر للبقاعي (٣/٤١٨).

QaradawiBooks.com

والعلم يعني «الخبرة» والكفاية فيما يُسند إليه، بحيث يستطيع أن يعرف مداخل الأمر ومخارجه، ولا يكون مجرد أداة في يد غيره من العارفين والخبراء.

وهاتان الصفتان اللتان ذكرهما يوسف عليه السلام هنا، شبيهتان بالصفتين اللتين ذكرتهما بعد ذلك ابنة الشيخ الكبير من أهل مَدْيَن في قصَّة موسى عليه السلام، بعد أن سقى لها ولأختها غنمهما، وأرسلها أبوها في طلبه، فقالت إحداهما: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

فصفة «القوي» هنا مقابل صفة «العليم» في قول يوسف، وصفة «الأمين» مقابل صفة «الحفيظ» في قوله عليه السلام.

ولا بدَّ من الصفتين معًا، كما وضح ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه «السياسة الشرعية»(١).

* * *

(١) السياسة الشرعية صـ ١٥ وبعدها، نشر وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف، السعودية، ط ١، ١٤١٨هـ.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ذمُّ كلِّ أمرٍ قام على غير علم

ومن فضل العلم في القرآن: أنَّه أنكر أبلغ الإنكار، وذمَّ أشد الذم: كل أمر من قول أو عمل، قام على غير علم.

١ ـ الجدال بغير علم:

من ذلك: الجدال بغير علم، وخصوصًا في شأن العقيدة في الله. قال تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ﴾ [الحج: ٣].

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ [الحج: ٨ ولقمان: ٢٠].

ويبدو من السياق هنا: أنَّ العلم في الآية هو العلم العقلي بدليل عطف الهدى والكتاب المنير عليه. والعطف يقتضي المغايرة، فليس عند هؤلاء المجادلين في الله علم من عقل، ولا دليل من نقل.

ونظير هذا قوله تعالى في محاجَّة اليهود والنصارى في شأن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وادِّعاء اليهود أنَّه كان يهوديًّا، والنصارى أنَّه كان نصرانيًّا: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ

QaradawiBooks.com

﴿وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٥ ـ ٦٧].

٢ ـ الخوض في الأعراض بغير علم:

ومن ذلك: الخوض في أعراض النَّاس بغير علم، وإطلاق الألسنة كأنَّها أنياب أو مخالبُ تنهش في حرمات المؤمنين والمؤمنات بغير بيِّنة، كما وقع في حديث الإفك، وتناول عرض أُم المؤمنين، الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق عائشة رضي الله عنها، ورجل فاضل من أصحاب النبي ﷺ، من ألسنة السوء. يقول تعالى:

﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ﴾ [النور: ١٤، ١٥].

٣ ـ دعوى الجبريَّة بغير علم:

ومن ذلك: دعوى «الجبريَّة» ومضمونها: أنَّ ما هم فيه من شِرك وضلال ليس من سوء اختيارهم وصنيع أيديهم، بل هو ممَّا شاء الله لهم، يعنون المشيئة الملجئة المجْبرة، الَّتي لا تدع لهم حرية الإرادة، ولا قابليَّة الاختيار.

وفي هذا يقول القرآن عن الأصنام والآلهة المزعومة لهم: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠].

QaradawiBooks.com

وفي سورة أخرى يقول تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

٤ ـ دعوى التَّحريم والتحليل بغير علم:

ومن ذلك: دعوى التحريم والتحليل بغير علم ولا سلطان من الله تعالى، الَّذي له وحده حقُّ التحليل والتحريم الديني لعباده، فليس من شأن بَشَر أن يُحرِّم أو يُحلِّل ما شاء له هواه، تحريمًا وتحليلًا له الديمومة والصفة الدينيَّة المطلقة. يقول تعالى معقبًا على ما حَرَّم المشركون من الضأن والمعز: ﴿قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٣]. ثم يناقشهم هذه المناقشة نفسها في شأن الإبل والبقر، ثم يقول:

﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

ويقول تعالى عن ضلال العرب في الجاهليَّة، وكيف أحلُّوا الحرام المحض، وحرَّموا الحلال الصِّرْف، سَفهًا بغير علم، وافتراءً على الله بغير حق: ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠].

وقد بيَّن القرآنُ قبل ذلك كيف زيَّن لهم شياطينهم قتلَ أولادهم وفلذات أكبادهم، فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ

QaradawiBooks.com

﴿ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡ﴾ [الأنعام: ١٣٧].

وهذا كله منشؤه اتباع الهوى، وترك العلم، ولهذا قال تعالى في هذه السورة نفسها، سورة الأنعام: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٩].

وهذا الإضلال لغيرهم إنَّما يتم بعد أن ضلُّوا في أنفسهم بغير علم أيضًا، كما قال تعالى في سورة أُخرى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ [الروم: ٢٩].

٥ ـ الشِّرك ضلال بغير علم:

وما ذكرناه عن التَّحريم والتَّحليل بغير إذن من الله، إنَّما هو فرع من أصل كبير، هو الشرك بالله تعالى، الَّذي هو جرثومة كل شر، وأصل كل انحرافٍ وفسادٍ في الفكر أو في السلوك. وهذا الشرك إنَّما هو ـ في حقيقته ـ قول أو اعتقاد بغير علم. كما قال تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ﴾ [الحج: ٧١].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠].

وقد بيَّن القرآن في مواضعَ شتَّى أنَّ الشرك لا يقوم على أي أساس من علم أو سلطان، ويعني بالسلطان: الحُجَّة والبرهان. كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

QaradawiBooks.com

وقال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾ [لقمان: ١٥].

وقال على لسان مؤمن آل فرعون: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ۞ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ﴾ [غافر: ٤١، ٤٢].

وقال: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

وقال في شأن المشركين والنصارى الَّذين قالوا: اتَّخذ الله ولدًا ـ المشركون جعلوا الملائكة بنات الله سبحانه، والنصارى قالوا: المسيح ابن الله، واليهود قالوا: عُزير ابن الله ـ فقال تبارك وتعالى في شأن الجميع: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ۞ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا﴾ [الكهف: ٤، ٥]

٦ ـ الإضلال عن سبيل الله بغير علم:

ومن ذلك: الإضلال عن سبيل الله بغير علم، كما في قوله تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [لقمان: ٦].

ولقد بيَّن القرآن أنَّ هؤلاء المُضلِّين يحملون أوزارهم كاملة يوم القيامة، كما يحملون جزءًا من أوزار الَّذين ضلُّوا بسببهم.

QaradawiBooks.com

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [النحل: ٢٤، ٢٥].

ذم الجهالة والجاهلين:

وإذا كان القرآن قد نوَّه أبلغ التنويه بالعلم والعلماء، فإنَّه في المقابل قد ذمَّ أبلغ الذمِّ الجهالة والجاهلين.

ذم الجاهلية:

ومن ذلك: ذم القرآن للجاهلية، فاشتقاقها من هذه المادة (ج. هـ. ل) وقد ذمَّها القرآن الكريم في أربعة مواضع:

- ذمَّ جاهلية العقيدة في قوله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

- وذمَّ جاهليةَ السلوك في مجال الأُسرة في قوله: ﴿وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

- وذمَّ جاهليةَ الأخلاق في مجال المجتمع في قوله: ﴿إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦].

- وذمَّ جاهليةَ الحكم والسياسة في قوله: ﴿ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

الإعراض عن الجاهلين:

ومن توجيهات القرآن المتكررة: الإعراض عن الجاهلين، والترفع عن مقابلة جهلهم بمثله، فهم أهون من أن يضيِّع العقلاء الوقت والجهد معهم.

QaradawiBooks.com

يقول تعالى لرسوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وقال ﷻ في وَصْف عباد الرحمٰن: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وقال في وصف بعض عباده المؤمنين من أهل الكتاب: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

من مظاهر الجهل الَّذي ذمَّه في القرآن:

والجهل الَّذي ذمَّه القرآن له مظاهر شتَّى:

الهزل في موضع الجِد:

منها: الهزل في موضع الجِد.

وهذا ما نلمسه في قوله تعالى في قصَّة موسى عليه السلام مع قومه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧].

فقد اتَّهمه بنو إسرائيل بأنَّه يمزح ويهزل، وهو يتحدَّث عن الله تعالى وعن أمره لهم، بهذه الصيغة المؤكدة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾، فكان ردُّ موسى ردًّا حاسمًا يدلُّ على أنَّ مثل هذا لا يصدر إلَّا عن جاهل لا يعرف مقام ربه، ولا يقدِّره حقَّ قدره. وهو يعوذ بالله أن يكون كذلك.

تغليب العاطفة على العقل:

ومنها: تغليب العاطفة على مقْتضى العقل والحكمة.

QaradawiBooks.com

وهذا ما نجده في طلب نوح عليه السلام الشفاعة في ابنه الَّذي كفر به وخالفه، وأوى إلى جبل ظنَّ أنَّه يعصمه من الماء، فلم يعصمه شيء من أمر الله، وابتلعه الموج وكان من المُغرقين. غلبت عاطفةُ الأُبوة على نوح، وما كان ينبغي لها أن تغلب، فكان ما حكاه القرآن: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٥ ـ ٤٧].

وهكذا كان الردُّ الإلٰهي على شيخ الأنبياء شديدًا، فلم يسامحه ربه في هذا الطلب، وبيَّن له أنَّ نسب العقيدة فوق نسب الدم، وأنَّ هذا الولد الكافر العاق ليس من أهله وإن كان من صلبه، وقال له بصريح العبارة: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦].

الجمود على الأفكار الضالة والسلوك المنحرف:

ومن أبرز مظاهر الجهل: الجمود على العقائد الباطلة، والأفكار الضالة، والسلوك المنحرف، وسدُّ الآذان عن سماع دعوة الحق الَّتي يجيء بها رُسُل الله.

نقرأ في قصَّة نوح عليه السلام حين طلبوا إليه أن يطرد الفقراء من أتباعه، الَّذين يستنكفون أن يكونوا مثلهم في المنزلة: ردَّ نوح عليهم بقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [هود: ٢٩]، وإنَّما تتمثل جهالتهم في النظر إلى النَّاس من خلال ما يملكون من مال، لا ما يملكون من قيم وأخلاق!

QaradawiBooks.com

ونقرأ في قصَّة لوط مع قومه الَّذين شذوا عن الفطرة، وأتَوا الذكران من العالمين، وتركوا ما خلق لهم ربُّهم من الأزواج قوله في الإنكار عليهم: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥]، وأيُّ جهالة أكبر من هذه الجهالة الَّتي جعلت هؤلاء يَدعون الطهارة، ويغرقون في القذارة، ويتهكَّمون بلوط ومن معه: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

ونقرأ في قصَّة هود مع قومه حين قالوا: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٢، ٢٣].

وإنَّما جهالتهم في استعجالهم عذابَ الله الَّذي توعَّدهم رسولهم به، وكان أوْلى بهم أن ينظروا في رسالته بتأمُّل وإنصاف، وقد بيَّن أنَّه لهم ناصح أمين، وأنَّه لا يبغي منهم مالًا ولا أجرًا، إنْ أجره إلَّا على الله.

وفي قصَّة موسى عليه السلام لم يكد ينجو هو وقومه من فرعون وملئه وجنوده، حتَّى سأله قومه من بني إسرائيل سؤالًا غريبًا، لا يدل على شيء إلَّا على استحكام الجهل لدى سائله، يقول تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨، ١٣٩].

وأيُّ جهل أعظم من نسيان فضل الله عليهم، الَّذي أنجاهم من جبروت فرعون، وسؤالهم أن يجعلَ لهم إلٰهًا أو صنمًا غير الله تعالى يعبدونه، كما يفعل أُولئك القوم الوثنيون؟! وأقدامهم لم تكد تجف من البحر الَّذي خرجوا منه!

QaradawiBooks.com

وفي حديث القرآن عن المشركين الَّذين بُعِث إليهم محمد ﷺ، وتعنتهم في طلب الخوارق، وعجائب الآيات، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١].

معصية الله من دلائل الجهل ولوازمه:

ومما أرشد إليه القرآن: أنَّ معصية الله تعالى من دلائل الجهل ولوازمه الَّتي لا تنفك عنه، ولا ينفك عنها، فكلُّ مَن عصى الله تعالى بمخالفة أمره، أو ارتكاب نهيه، فهو لا محالة جاهل: جَهِلَ مقامَ ربِّه، وجَهِلَ قيمة نفسه، وجَهِلَ أمر آخرته، وآثر اللذَّة العاجلة على المثوبة الآجلة، وقدَّم حظَّ النفس على حقِّ الرب، وغلَّب باعث الهوى على باعث الدين والحق. ولا يُقدم على هذا إلَّا جاهلٌ غبيٌّ، لا عالمٌ ذكي.

من أجل هذا لازم القرآن بين عمل السوء والجهالة، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: ١٧].

وقال سبحانه: ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤].

وقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٩].

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: ذنب المؤمن جهل منه.

وقال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ: أنَّ كلَّ شيءٍ عُصِيَ الله فيه فهو جهالة.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وقال السدِّي: كلُّ مَنْ عصى الله فهو جاهل.

وقال سفيان الثوري: كل مَن عمل ذنبًا من خلق الله فهو جاهل، كان جاهلًا أو عالمًا. إن كان عالمًا فمَن أجهل منه؟ وإن كان جاهلًا فمثل ذلك[١].

وقد نقلنا عن ابن القَيِّم قوله: «ويدل على صحَّة هذا: أنَّه مع كمال العلم لا تصدر المعصية من العبد، فإنَّه لو رأى صبيًّا يتطلع عليه من كوة لم تتحرك جوارحه لمواقعة الفاحشة، فكيف يقع منه حال كمال العلم بنظر الله إليه، ورؤيته له، وعقابه على الذنب، وتحريمه له، وسوء عاقبته؟! فلا بدَّ من غفلة القلب عن هذا العلم وغيبته عنه. فحينئذٍ يكون وقوعه في المعصية صادرًا عن جهل وغفلة ونسيان مضادٍّ للعلم. والذنب محفوف بجهلين: جهل بحقيقة الأسباب الصارفة عنه، وجهل بحقيقة المفسدة المترتبة عليه، وكل واحد من الجهليْن تحته جهالات كثيرة. فما عُصِيَ الله إلَّا بالجهل، وما أُطيع إلَّا بالعلم»[٢].

الجهل المركَّب:

وشر أنواع الجهل هو: الجهل المُركَّب، وهو الَّذي يجهل صاحبه أنَّه يجهل، لأنَّه لا يسعى إلى التعلم، وهو يعتقد في نفسه أنَّه عالم.

ولهذا سُئل بعض العارفين: ما شرُّ ما يُصاب به الإنسان؟ فقال: الجهل بالله تعالى. فقيل له: وهل هناك شرٌّ من هذا؟ قال: نعم، الجهل بالجهل!

---

(١) هذه الآثار ذكرها ابن القيم في مفتاح دار السعادة (٩٠/١).

(٢) مفتاح دار السعادة (٩٠/١).

QaradawiBooks.com

وفي هذا يقول الشاعر[١]:

إذا كنتَ لا تـــدري بأنَّك جاهلٌ فمن لي بأن تدري بأنَّك لا تدري؟!

ويقول الخليل بن أحمد: النَّاس أربعة:

رجل يدري، ويدري أنَّه يدري، فهذا عالِم فاتَّبعوه.

ورجل يدري، ولا يدري أنَّه يدري، فهذا نائم فأيقظوه.

ورجل لا يدري، ويدري أنَّه لا يدري، فهذا جاهل فعلِّموه.

ورجل لا يدري، ولا يدري أنَّه لا يدري، فهذا ضالٌّ فارفضوه[٢].

وقد وصف القــرآن المنافقين بهذا النوع مــن الجهل، حين قال في شأنهم:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۞ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١١ ـ ١٣].

كما وصف القرآن بعض أصناف الكفار بهذا الجهل في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۞ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤].

وقــال تعالــى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ ﴾ [فاطر: ٨].

(١) البيت لأبي علي البصير، انظر: الدر الفريد وبيت القصيد (٣/ ١١٨)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٥م.

(٢) رواه البيهقــي في المدخل إلى الســنن الكبــرى (٨٢٨)، تحقيق د. محمــد ضياء الرحمن الأعظمي، نشر دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، الكويت.

QaradawiBooks.com

ومن أجل ذلك كان المبتدع شرًّا من العاصي، وكانت البدعة شرًّا من المعصية؛ لأنَّ العاصي يعلم أنَّه عاص لربِّــه، مخالفٌ لأمره، فيُرجى أن يتوب. أمَّا المبتدع فهو يتقرَّب إلى الله ببدعتــه، فكيف يُرجى أن يتوب منها؟ وهذا هو الخطر.

❊ ❊ ❊

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

العلم المذموم في القرآن

العلم الَّذي يضر ولا ينفع «السحر»:

العلم المذموم في القرآن يأخذ عدة صور، أُولاها: العلم الضار.

فقد وجَّه القرآن «الطاقة العقليَّة» لدى الإنسان إلى تحصيل العلوم النافعة، والمعارف المفيدة له وللمجتمع من حوله، وحفَّزه على طلب العلم النافع بأعظم الحوافز المُرغِّبة والمُرهِّبة والباعثة.

ولم يقبل أن تُوَجَّه هذه الطاقة إلى العلوم الَّتي لا تجنى من ورائها ثمرة للفرد ولا للأُمة. وذلك مثل «علم السحر».

بل بيَّن القرآن: أنَّ تعلُّم هذا العلم يضر ولا ينفع، فشأنه أن يُستخدم في الإفساد وتقطيع الروابط بين النَّاس، كالتفريق بين المرء وزوجه، وهو ممَّا يبغضه الله تعالى، ويحبُّه الشيطان، ولهذا كان من كبائر الإثم.

عرض القرآن لهذه القضية في قصَّة هاروت وماروت في سورة البقرة، فقال تعالى في شأن اليهود وما ارتكبوه من ألوان الانحراف والفساد:

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ

QaradawiBooks.com

فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

ولقد اختلف علماء المسلمين في حقيقة السحر ما هي: أهو أمر حقيقي مؤثر في الواقع؟ أم هو مجرد إيهام وتخييل وسحر للأعين فحسب؟

ذهب المعتزلة إلى الثاني، مستدلِّين بما جاء في القرآن في قصَّة موسى وسَحَرة فرعون، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦].

﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦].

وذهبَ أهل السُّنَّة إلى الرأي الأول، وأنَّ للسحر حقيقة، وأنَّ له تأثيرًا، ولهذا قال تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وقال: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٢].

ولهذا أيضًا أُمرنا بالاستعاذة من شرِّ السَّحرة الَّذين ينفثون في العُقَد، فقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ [الفلق: ١ ـ ٤].

وأيًّا كانت ماهيَّة السحر وحقيقته، فهو علمٌ يضرُّ ولا ينفع، ولا يجوز للمسلم تضييعُ وقته وجهده في تعلمه. فما أحوج هذا الجهد وهذا الوقت أن يُنفقا في تحصيل ما ينفع من العلم.

QaradawiBooks.com

التنجيم شُعْبةٌ من السحر:

وقد وردَ في الحديث النبوي اعتبار «التنجيم» شُعْبة من السحر، وهو الَّذي يقوم على التنبؤ بالغيب بواسطة النجوم، وادِّعاء قراءة المستقبل من خلالها.

فقد روى ابن عبَّاس عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**مَن اقتبس علمًا من النجوم، اقتبس شُعْبة من السحر، زاد ما زاد**»(١).

قال الإمام الخطابي في «معالم السُنن»: «علم النجوم المنهيُّ عنه هو ما يدَّعيه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث الَّتي لم تقع، وستقع في مستقبل الزمان، كإخبارهم بأوقات هبوب الرياح، ومجيء المطر، وظُهور الحر والبرد، وتغيُّر الأسعار، وما كان في معانيها من الأمور، يزعمون أنَّهم يدركون معرفتها بسيْر الكواكب في مجاريها، وباجتماعها واقترانها، ويدَّعون لها تأثيرًا في السُّفْليات، وأنَّها تتصرَّف على أحكامها، وتجري على قضايا موجباتها.

وهذا منهم تحكُّم على الغيب وتعاطٍ لعلم استأثر الله سبحانه به. لا يعلم الغيب أحد سواه.

فأما علم النجوم الَّذي يُدْرك من طريق المشاهَدة والحسّ، كالذي يُعرف به الزوال، ويُعلم به جهة القِبْلة. فإنَّه غير داخل فيما نهي عنه.

(١) رواه أحمد (٢٨٤٠)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح. وأبو داود في الطب (٣٩٠٥)، وابن ماجه في الأدب (٣٧٢٦)، وصحَّح إسناده النووي في رياض الصالحين (١٦٧١)، وصحَّحه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣٣٠٥).

QaradawiBooks.com

وذلك: أنَّ معرفة رَصْد الظل ليس شيئًا بأكثر من أنَّ الظل ما دام متناقصًا فالشمس بعدُ صاعدة نحو وسط السماء من الأُفق الشرقي. وإذا أخذ في الزيادة فالشمس هابطة من وسط السماء نحو الأُفق الغربي.

وهذا علم يصحُّ دَرْكه من جهة المشاهدة، إلَّا أنَّ أهل هذه الصناعة قد دبَّروه بما اتَّخذوا له من الآلة، الَّتي يستغني الناظر فيها عن مراعاة مُدَّتِه ومراصده.

وأمَّا ما يُستدلُّ به من جهة النجوم على جهة القِبْلة: فإنَّما هي كواكب أرصدها أهل الخبرة بها، من الأئمة الَّذين لا نشك في عنايتهم بأمر الدين ومعرفتهم بها، وصِدْقهم فيما أخبروا به عنها، مثل أن يشاهدوها بحضرة الكعبة، ويشاهدوها في حال الغيبة عنها فكان إدراكهم: الدلالة عنها بالمُعاينة. وإدراكنا لذلك بقَبولنا لخبرهم، إذا كانوا غير مُتَّهَمين في دينهم، ولا مُقصِّرين في معرفتهم»[(١)].

ولا يدخل في علم «التنجيم» هذا: ما يذاع في نشرات الأخبار من هيئات الأرصاد الجويَّة في الأقطار المختلفة، من توقُّع حركة الرياح، ونزول الأمطار أو عدمها، ودرجات الحرارة والبرودة، ونحو ذلك؛ لأنَّ هذا ليس من التنبؤ بالغيب المطلق، الَّذي لا يعلمه إلَّا الله تعالى، بل هو مبنيٌّ على مشاهدات وتجارب معروفة، مبنيَّة على سنن الله في الكون، وشبكة الأسباب والمُسبَّبات. وينبغي أن يكون ذلك على سبيل التوقُّع، لا على سبيل الجزم والقطع، فقد يُحْدث الله تعالى ما ليس في الحسبان.

(١) انظر: معالم السنن للخطابي مع مختصر المنذري وتهذيب ابن القيم (٣٧١/٥، ٣٧٢)، شرح الحديث (٣٧٥٤)، نشر المكتبة الأثرية، باكستان، المصورَّة عن طبعة السُّنَّة المحمديَّة، القاهرة.

QaradawiBooks.com

ولهذا يختم كثير من المؤمنين من مقدِّمي نشرات الأخبار الجويَّة حديثهم بقولهم: هذا والعلم عند الله تعالى.

فهذا ليس من عمل المنجِّمين الَّذين قيل فيهم: «كذب المنجِّمون ولو صدقوا»!

وكذلك ليس من علم التنجيم ولا من عمل المنجِّمين: ما يتعلق بـ «علم الفلك» الَّذي كان للمسلمين فيه يدٌ طولى، أيام ازدهار الحضارة الإسلامية، والَّذي استبحر في عصرنا، ووصل إلى غايةٍ من الدقة حتَّى سمعت من بعض علمائه: أنَّ احتمال الخطأ فيه ١: ١٠٠,٠٠٠ (واحد إلى مائة ألف) من الثانية، وعلى أساسه وصل الإنسان إلى القمر، وغزا الكواكب.

والقرآن الكريم يشير إلى هذا العلم في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥].

أعتقد أنَّ القوم «الذين يعلمون» هنا، والذين فصَّل الله لهم الآيات هم الَّذين يعلمون علم الفلك.

ويؤيِّد ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [الإسراء: ١٢].

العلم الَّذي يكتمه صاحبُه عن أهله:

وهناك صورٌ أُخرى للعلم الَّذي ذمَّه القرآن، وذمَّ أهله. منها:

QaradawiBooks.com

صورة العلم الَّذي يكتمه صاحبه عن أهله، كما قال تعالى عن أهل الكتاب: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وقال سبحانه في شأن اليهود: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩، ١٦٠].

العلم الَّذي لا يعمل به صاحبه:

صورة العلم الَّذي لا يعمل به صاحبه، ولا يؤثِّر في توجُّهه وسلوكه، بل يعمل بعكسه، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦].

فانظر كيف صوَّر القرآن هذا النموذج، الَّذي يُؤْتَى آيات الله، فينسلخ منها، هكذا كما ينسلخ الحيوان من جلده، فيبقى مكشوفًا، أو كما ينسلخ الإنسان من ثوبه، فيصبح عاريًا مفضوحًا، وكان يمكن أن ترتفع به آياتُ الله الَّتي عنده وأن ترقى به ويرقى بها إلى القمة، ولكنَّه هبط إلى أسفل، إلى الطين، وأخلد إلى الأرض، واتَّبع داعية الهوى لا داعية الدين والحكمة.

QaradawiBooks.com

العلم المادي الَّذي يعارض علم النبوة:

صورة العلم الماديِّ الَّذي يغتر به صاحبه، ويحجبه عن الإيمان بالوحي، واتباع الرُّسُل، فيهلك مع الهالكين.

وفي هذا جاء قول الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [غافر: ٨٢، ٨٣].

فَفَرِح هؤلاء بما عندهم من العلم المادي أعماهم عن علم النبوة وأنوار الوحي، واستهزأوا به، فحاق بهم عاقبة استهزائهم.

العلم بظاهرة الحياة الدنيا مع الغفلة عن الآخرة:

صورة العلم الَّذي يشغل صاحبه بظاهر الحياة الدنيا، وينسيه الدار الآخرة، وهذا العلم اعتبره القرآن كالعدم، أي اعتبره جهلًا، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٦، ٧].

فانظر ـ يا رعاك الله ـ كيف وصفهم بأنَّهم لا يعلمون. ثم أثبت لهم أنَّهم يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا، مع الغفلة التامَّة عن الآخرة؛ ليدلنا أنَّ هذا العلم والعدم سواء.

العلم الَّذي يغرُّ صاحبه بالثروة أو السُّلْطة:

ومن ذلك: العلم الَّذي يغر صاحبَه بما أُوتي من مال وثروة، وينسى فضل الله عليه، الَّذي رزقه هذا المال، وسخَّره لمنفعته.

QaradawiBooks.com

وذلك مثل قارون الَّذي آتـاه الله من الكنوز ما آتـاه، ونصحه قومُه جملة نصائح ثمينة؛ ليعمل بها في نفسه وماله، ولكنَّه ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨].

وكان تعقيب القرآن عليـه: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ [القصص: ٧٨]؛ يعني: ألم يصل إلى علمه الَّذي يَدَّعيه ما حدَث للقرون من قبله، وما نزل بهم من عذاب الله وبأسه، حتَّى هلكوا وبادوا، وقد كانوا أشدَّ منه قوَّة وأكثر عددًا؟!

العلم الَّذي يؤدي إلى اختلاف الكلمة بغيًا بين أهله:

ومن ذلك: العلم الَّذي يُؤدِّي بأهله إلى أن تختلف كلمتهم، ويتفرَّق صفُّهـم، الَّذي كان واحدًا، مثل بني إسـرائيل الَّذيـن آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة، ولكنَّ العلم الَّذي آتاهـم الله لم يجمع كلمتهم، وإنَّما اختلفوا من بعده، بغيًا بينهم وتحاسدًا.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الجاثية: ١٦، ١٧].

ويقول سبحانه: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ١٤].

ويقول: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩].

* * *

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الفصل الثالث

العلم والفقه والحكمة في لسان القرآن

- شمول العلم وتنوُّعه في لسان القرآن.
- العلم عند سَلَف الأُمَّة.
- أوَّل ما ينبغي أن يُعْلَم.
- العلم الَّذي لا يُطْلب.
- الفقه في لسان القرآن.
- الحكمة في لسان القرآن.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

شمول العلم وتنوُّعه في لسان القرآن

والعلم الَّذي نوَّه به القرآن، وحفلت به آياتُه، يشمل كل معرفة تنكشف بها حقائق الأشياء، وتزول به غشاوة الجهل والشكِّ عن عقل الإنسان، سواء أكان موضوعه الكون والطبيعة، أم موضوعه الإنسان، أم موضوعه الوجود والغيب، وسواء أكانت وسيلة معرفته الحس والتجربة، أم وسيلته العقل والبرهان، أم وسيلته الوحي والنبوَّة.

فليس صحيحًا ما شاع عند الغربيين ومَنْ دار في فَلَكهم: أنَّ العلم مقصور على ما قام على الملاحظة والتجربة، وليس صحيحًا أيضًا ما يتصوره بعض المسلمين المتدينين أو يُصوِّرونه، بأنَّ «العلم» في القرآن يعني «العلم الديني» ولا شيء غيره، وحاول بعض أهل العلم الدفاع عن هذه الدعوى!

وممَّا يدلُّ على بطلان ذلك التصور: استخدام لفظة: «العلم» ومشتقاتها في غير العلم الديني، كما تدل على ذلك آيات القرآن.

العلم الكوني في القرآن:

انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧].

QaradawiBooks.com

فالعلم الَّذي وصف الله به هؤلاء القوم الَّذين فصَّل لهم الآيات، والَّذي جاء ذكره بعد قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا﴾ لا يمكن إلَّا أن يكون هو العلم الكونيُّ، الَّذي يدخل فيه علم الفلك وما يتعلق به.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

فالعلمُ المراد هنا: هو الَّذي به يُتعرَّف على آيات الله في الكون، علويِّه وسفليِّه، وسرِّ اختلاف الألسنة والألوان، فهو يشمل علوم الكون، وعلوم الإنسان.

واختلاف الألسنة والألوان قد يراد به: اختلاف الأُمم والشعوب في لغاتها وألوانها بعضها عن بعض، وهو اختلاف تنوُّع لا اختلاف تضاد.

وقد يراد به اختلاف الأفراد في أصواتهم حتَّى إنَّ لكل فرد منهم تميُّزًا في صوته يجعل له «بصمة» خاصة به لا يشاركه فيها غيره. ومثله الاختلاف في الصورة فكل واحد له صورته المستقلة المتميزة، مهما يكن شبهه بغيره.

أمثال القرآن لا يعقلها إلَّا العالمون:

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وفي القرآن بضعة وأربعون مثلًا. وكان بعض السَّلَف يبكي على نفسه إذا مرَّ بمثل من القرآن ولم يفهم مغزاه، ويقول: قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]. فأنا لست من العالِمين!

QaradawiBooks.com

فالعالِمون هنا هم الَّذين يعقلون الحكمة من وراء ضرب الأمثال للناس، فهم الَّذين يغوصون في الأعماق، ولا يقفون عند السطوح.

ويقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨].

فالعلماء هنا ـ كما يبدو من السياق ـ ليسوا هم علماء الدين، وفقهاء الشريعة، على فضلهم ومكانتهم. وإنَّما هم الَّذين يعرفون آيات الله، ويكتشفون سُنَّته في خلقه، فيما ذكر من السماء، والنبات، والجبال، والناس، والدوابِّ، والأنعام، أي الَّذين يعرفون عظمة الله من خلال معرفتهم بالسماء وعلم الفلك، ومن خلال معرفتهم بالجبال وعلم الأرض (الجيولوجيا)، ومن خلال معرفتهم بعلوم الإنسان، وعلوم الحياة من نبات وحيوان، ومن خلال هذه المعرفة الحقيقية يخشون الله، إذ لا يخشى الله ويخاف مقامه حقًّا إلَّا مَن عرفه سبحانه.

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥].

فتفصيل الآيات هنا إنَّما ينتفع به الَّذين يعلمون أسرار الله في هذه الظواهر الكونيَّة، من جَعْل الشمس ضياء فيها النور والحرارة، والقمر نورًا؛ لأنَّه يستمد نوره من الشمس، ومن تقدير القمر منازل لمعرفة عدد السنين والحساب.

QaradawiBooks.com

وقال تعالى في قصَّة الرهط التسعة من ثمود: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۞ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۞ فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [النمل: ٥٠ ـ ٥٢].

فالذين يعلمون هنا: هم الَّذين يعرفون سنن الله تبارك وتعالى في التعامل مع المكذبين والظالمين، وأنَّ مكره تعالى أعظم من مكرهم، وكيده أقوى من كيدهم، وأنَّه يُمهل ولا يُهمل، وأنَّه يأخذهم وهم لا يشعرون. وما ربُّك بغافل عما يعملون.

وفي كثير من الآيات يأتي العلم فيها بمعنى المعرفة الواعية، والإدراك الراشد للأُمور، فهو ضدُّ الجهل والغباء بصفة عامة، لا بمعنى تحصيل علم مُعيَّن من علوم الدين أو الدنيا، وهذا في الحقيقة أكثر ما جاء في القرآن بصيغة «يعلمون» أو «تعلمون» مثبتة أو منفية.

خذ مثلًا قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢].

فالذين يعلمون تفصيل الآيات هنا: هم أُولو المعرفة الراشدة، الَّذين يميِّزون بين ما يُعلم بطريق الحسِّ، وما يُعلم بطريق العقل، وما يُعلم بطريق الشرع، فيأخذون كل علم من طريقه المخصوص به، وهم هنا يعلمون أنَّ ما حرَّمه الله على عباده لا يُعرف إلَّا من طريق الوحي، فلا يفترون على الله الكذبَ ويقولون: هذا حلال وهذا حرام، بغير برهانٍ من الله.

QaradawiBooks.com

وقد جاءت هذه الآية في سياق نعي القرآن على أهل الجاهليَّة دعاواهم على الله بغير الحق أنَّه أمر بكذا أو حرَّم كذا من غير سلطانٍ أتاهم، فقبل ذلك بآيات قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨].

وفي سورة الأنعام مناقشة تفصيليَّة للذين حرَّموا أنواعًا من الأنعام بغير برهان من الله، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٣، ١٤٤].

ومثل ذلك قوله تعالى بعد ذكر بعض أحكام الأسرة: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٠].

فالمراد هنا: أنَّهم يعلمون بما لديهم من فقه ورُشد: أنَّ الله لا يشرع إلَّا ما فيه الخير والصلاح لهم. فهم أهل علمٍ ووعيٍ لا أهل جهل وبلادة.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٥].

فليس المراد هنا: أنَّهم يعلمون علمًا مُعيَّنًا من علوم النقل أو العقل، بل المراد أنَّهم ليسوا من أهل الجهل والغباء.

QaradawiBooks.com
نسخة مجانية

وهذا ما نجـده أيضًا في حـالات نفي العلم، كما فـي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦].

فليس المقصود نفيَ علمٍ معيَّن عنهم من علوم الشرع أو الكون، بل المقصود نفي العلم من حيث هو، أي أنَّهم ليسوا بأهل علم ومعرفة.

ونحوه قوله تعالى: ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٩٣].

ومثله فـي سـورة أخـرى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٩].

وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨].

فالناظر في هذه الآيات وما شابهها يتبيَّن أنَّها لا تنفي علمًا معيَّنًا من علوم الدين أو الدنيا، إنَّما تنفي العلم من حيث هو، فهؤلاء ليسـوا من أهل العلم الَّذين يُقام لهم وزن أو يُحسَـب لهم حساب، بل هم من أهل الجهل الَّذين لا يعلمون. وكفى بالجهل وصمةً وعارًا.

ونحو ذلـك قوله تعالـى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

فقد يكون المراد نفي العلم عنهم ودمغهم بالجهل المطلق، أو نفي العلم بهذه القضية المتحدَّث عنها، فهـم لا يعلمون أنَّ العِزَّة لله جميعًا؛ لأنَّه خالق الخلق، ومالك المُلك، وصاحب الأمر، ومَن بيده ملكوت كل

QaradawiBooks.com

شــيء، وهو يُجير ولا يُجار عليه. وأنَّ العِزَّة لرســوله، فهو الَّذي أرسله بالهدى ودين الحق، فهو يتكلم باســم الله، وينفِّذ أمر الله، ويُبلِّغ رسالة الله، ومعه المؤمنــون، فعِزَّتهم من عِــزَّة الله، وحبلهــم موصول بحبله، وقوَّتهم مســتمدَّة من قوَّته، فلا يملك أَحد أن يذلَّ نفوســهم، أو يحنيَ رؤوسهم، وهم منسوبون إلى القَوِيِّ العزيز.

أكثر النَّاس لا يعلمون:

ولقد حكم القرآن في آيات كثيرة على أكثريَّة البَشر بأنَّهم لا يعلمون، بمعنى: أنَّهم ينقصهم العلــم الحقيقي بهذه القضايا المهمَّة الَّتي يتحدث عنها. ونعني بالعلــم الحقيقي: الإدراك الواعي الجــازم المطابق للواقع الناشئ عن دليل، وهو أمر مؤســف حقًّا، مع أنَّ الله تعالى نصب الأدلَّة لعباده، من الكون المنظور، ومن الوحي المسطور؛ لكي يعلموا ويعرفوا، فما لهم لا يعلمون؟

وإنَّما قلنا: الإدراك الجازم؛ لأنَّ ما ليس بجــازم لا يكون علمًا، بل ظنًّا، إذا كان راجحًا، ووهمًا إذا كان مرجوحًا، وشكًّا إذا استوى الطرفان، ولهذا قابل القرآن بين العلم والظن في قوله: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

ووصفنــا الإدراكَ الجــازم بـ «المطابق للواقــع»؛ لأنَّ غير المطابق لا يكون علمًا، بل هو جهل وغباء.

وقيَّدناه بـ «الناشئ عن دليل»؛ لأنَّ ما ليس كذلك ليس علمًا، بل هو تقليد، بمعنى اعتماد قول الغير بلا حُجَّة، وقــد أجمعوا على أنَّ التقليد ليس بعلم.

QaradawiBooks.com

ولو أردنا أن نتتبَّع هذه الصيغة في القرآن: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أو ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أو ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ونحوها، لاتَّسع بنا المجال، وطال بنا المقال.

ولكن لا بأس أن نعرض لمجموعة منها تدل على غيرها، ومعظمها يتعلق بجانب الإلٰهيَّات.

ففي سورة الأنعام نقرأ قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧].

وسواء أكان الضمير في «أكثرهم» يرجع إلى النَّاس عامَّة أم إلى المشركين خاصَّة، فإنَّ المشركين هم أكثر الناس، وهم لا يدركون ولا يعُون قدرة الله تعالى المطلقة على تنزيل الآيات الكونيَّة الخارقة متى شاء، وكيف شاء، كما لا يدركون حكمته في عدم تنزيلها على محمد ﷺ، والاكتفاء بالقرآن آية عظمى له: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١].

وفي سورة الأعراف نقرأ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

ولا زال إلى اليوم أكثر النَّاس يجهلون أنَّ علم الساعة عند الله وحده، وأنَّ موعد قيامها مُغيَّب عنهم، ولا يبرح يخرج واحد من الغرب أو الشرق، يزعم أنَّ الساعة ستقوم في يوم كذا، ويجد في النَّاس مَنْ يُصدِّقونه ويفزعون كلما اقترب ذلك اليوم.

بل وجدنا مسلمًا مرق من الإسلام، يحدِّد موعد قيام الساعة، بناءً على قراءة خاصة متميزة للحروف المقطعة في أوائل السور!

QaradawiBooks.com

ونقرأ في سـورة الأنفال قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

وسواء أكان الضمير في قوله: ﴿أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ لله تعالى أم للمسجد الحرام، فهؤلاء المشركون قد أخرجهم الشرك عن الولاية لله تعالى ولبيته، فهم أبعد النَّاس عن ذلك، إنَّما أولياؤه حقًّا هم المتقـون، ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون هذه الحقيقة، ويحسبون أنَّ الولاية بمجرَّد الدعوى والتظاهر الكاذب.

ونقرأ في سورة يونس: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥٥]. فهم يجهلون أنَّ الله تعالى إذا وعد لا بدَّ أن يُنجز وعده؛ لأنَّ الَّذي يُخلف وعـده إمَّا لعجزه، والله لا يُعجزه شيء، وإمَّا لكذبه، والله يتعالى عن الكذب، فلا أصْدَق من الله قيلًا.

ومثل هذا ما جاء في أوائل سـورة الروم من قوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٦].

وقد تكرَّر هذا المعنى في سورة النحل (الآية: ٣٨)، وفي سورة القصص (الآية: ١٣).

ونقرأ في سورة يوسُـف قوله تعالى في شأن يوسُف: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسـف: ٢١]، والضمير في قوله: «على أمره» هل يعود إلى يوسـف أو يعود على الله؟ أيًّـا كان فالله هو الغالب الَّذي لا يُغلب، والَّـذي لا ينفذ إلَّا مـا أراده، وإن جهل ذلك الأكثرون الَّذين يظنُّون أنَّهم هم الَّذين يسيِّرون حركة الفلك، أو أنَّهم الَّذين يرفعون ويخفضون، وما لهم من الأمر من شيء، قل إنَّ الأمر كله لله!

QaradawiBooks.com

وفي السورة نفسها نقرأ قول يوسف للنُّزلاء معه في السجن من عُبَّاد الأوثان: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ۝ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٣٩، ٤٠].

فهذه هي الحقيقة الكبرى الَّتي ضلَّ أكثر الخلق عنها، رغم وضوحها في نفسها، وهي حقيقة التوحيد: توحيد الربوبيَّة، وتوحيد الحاكميَّة، وتوحيد العبادة، فلا يُتَّخذ غير الله ربًّا، ولا يُبتغى غير الله حَكَمًا، ولا يُعبد غير الله إلٰهًا، وهذا هو الدين القيم حقًّا، دين الفطرة، ولكن ضلَّ عنه أكثر النَّاس لأسباب وموانع شتَّى.

ومثل ذلك قوله تعالى في سورة الروم، بعد أن عرض لوحة رائعة من آيات الله تعالى في الآفاق والأنفس: ﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

وفي سورة سبأ نجد حقيقتين مهمتين جهلهما أكثر الناس:

الأولى: عموم الرسالة المحمديَّة لكلِّ البَشر، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٨].

والأخرى: مسألة الرزق، بسْطًا وقبْضًا، وسَعَةً وضيقًا، وأنَّها بيد الله سبحانه وإنْ كان لها أسبابها، منها ما هو معروف، وما هو مجهول، يقول تعالى:

﴿ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [سبأ: ٣٦].

غير مرخصة للطباعة

QaradawiBooks.com

وفي سورة الزمر نقرأ قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٤٩].

فهذه الآية تدلُّ على طبيعة الإنسان الَّذي يلجأ إلى الله، يدعوه ويتضرع إليه عند نزول الضرِّ والشِّدَّة به، ثم سرعان ما ينسى ربه، ولا يذكر إلَّا نفسه، عندما تنكشف الغمَّة، وتحلُّ النعمة، فهو لا يعترف بفضل ربِّه، بل بقدرة ذاته، ويقول ما قال قارون من قبل: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨].

إنَّها فتنة حقًّا، واختبار صعبٌ للإنسان، ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون حقيقة هذا الاختبار ولا أهميته، ولذلك يرسبون فيه ويسقطون!

وفي سورة غافر نقرأ قوله تبارك وتعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]. وذلك لأنَّ النَّاس ـ كما يقول البقاعي ـ شُعْبة يسيرة من خلقهما. فعُلِمَ أنَّ الَّذي قدر على ابتدائه (أي الكون) على عِظَمه، قادر على إعادة النَّاس على حقارتهم، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]. وهم الَّذين ينكرون البعث وغيره، أي: لا علم لهم أصلًا، بل هم كالبهائم لغلبة الغفلة عليهم، واتِّباعهم أهواءهم، فهم لا يستدلون بذلك على القدرة على البعث، كما أنَّ البهائم ترى الظاهر فلا تدرك به الباطن، بل هم أنزل رتبة من البهائم؛ لأنَّ هذا النحو من العلم في غاية الظهور، فهو كالمحسوس، فمَن توقف فيه كان جمادًا[1]!

---

(١) نظم الدرر (١٧/٩٤).

QaradawiBooks.com

وفي سورة الدخان نقرأ قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۞ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

بيَّن الله في هاتين الآيتين: أنَّه لم يخلق هذا الكون ـ علويَّه وسفليَّه ـ باطلًا ولا لعبًا ولا عبثًا، كما يظنُّ الَّذين كفروا أنَّ هذا الكون بُنِيَ وسينهدم لغير حكمة ولا هدف، فإنَّما هي أرحام تدفع وأرض تبلع، ولا شيء وراء ذلك، وهذا ما ردَّه القرآن واعتبره باطلًا ولعبًا: أنْ تُطوَى صفحة هذا الوجود، وقد استوى المؤمنون والكفار، والمتقون والفجَّار، يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ۞ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٧، ٢٨].

فاللعب والعبث أن تنتهي الحياة ولا تُجزَى كل نفس بما كسبت: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۞ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

ما خلق الله السماوات والأرض إلَّا بالحق؛ ليجزي الَّذين أساؤوا بما عملوا، ويجزي الَّذين أحسنوا بالحسنى، ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون، لأنَّهم يعيشون في يومهم، غافلين عن غدهم، وغارقين في دنياهم، عَمِين عن آخرتهم.

بهذا التتبُّع النسبي لكلمة «علم» ومشتقَّاتها في القرآن، مثبتة ومنفية، تبيَّنَّا مدى شمول العلم وتنوُّعه في كتاب الله، بحيث يشمل علم الدين وعلم الدنيا وكل معرفة واعية، وذلك بحسب السياق، كما بيَّنَّاه بوضوح، والحمد لله.

* * *

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

العلم عند سَلَف الأُمَّة

والعلم عند سَلَف الأُمَّة يشمل علوم الشــرع، وعلوم العقل، وعلوم اللسان، أو قل: هو يشمل علم الدين وعلم الدنيا.

قال الإمام أبو عمر ابن عبد البر رضي الله عنه في كتابه الشـهير «جامع بيان العلـم»: «حدُّ العلـم عند العلمـاء والمتكلميـن في هـذا المعنى هو ما استيقنته وتبيَّنته، وكلُّ من استيقن شـيئًا وتبيَّنه فقد علمه، وعلى هذا مَن لم يستيْقن الشيء وقال به تقليدًا فلم يعلمه.

والتقليد عند العلماء غير الاتِّباع؛ لأنَّ الاتِّباع هو أن تتبع القائل على ما بان لك من فضل قوله وصحَّة مذهبه.

والتقليد أن تقول بقوله وأنت لا تعرف وجهَ القول ولا معناه، وتأبى مَنْ سواه. أو أن يتبيَّن لك خطؤه، فتتبعه مهابةَ خلافه، وأنت قد بان لك فساد قوله، وهذا مُحرَّمٌ القول به في دين الله سبحانه وتعالى.

والعلم عند غير أهل اللسـان العربي ـ فيما ذكروا ـ يجوز أن يترجم باللسان العربي علمًا، ويترجم معرفةً، ويترجم فهمًا.

والعلوم تنقسم قسمين: ضروري، ومكتسب.

فحدُّ الضروري: ما لا يمكن العالم أن يشـكِّك فيه نفسه، ولا يدخل

QaradawiBooks.com

فيه على نفسه شبهة، ويقع له العلم بذلك قبل الفكرة والنظر، ويدرك ذلك من جهة الحسّ والعقل، كالعلم باستحالة كون الشيء متحرِّكًا ساكنًا، أو قائمًا قاعدًا، أو مريضًا صحيحًا في حالٍ واحدةٍ.

ومن الضروري أيضًا وجه آخر يحصل بسبب من جهة الحواس الخمس، كذوق الشيء يعلم به المرارة من الحلاوة ضرورة، إذا سلمت الجارحة من آفة، وكرؤية الشيء يعلم بها الألوان والأجسام، وكذلك السمع يُدرك به الأصوات.

ومن الضروري أيضًا عِلْم النَّاس أنَّ في الدنيا مكَّة والهند ومصر والصين وبلدانًا قد عرفوها، وأُممًا قد خَلت.

وأمَّا العلم المُكتسَب: فهو ما كان طريقه الاستدلال والنظر، ومنه الخفي والجلي، فما قرب منه من العلوم الضرورية كان أجلى، وما بَعُد منها كان أخفى.

والمعلومات على ضربين: شاهد، وغائب.

فالشاهد: ما عُلِم ضرورة، والغائب: ما عُلِم بدلالة من الشاهد.

والعلوم عند جميع أهل الديانات ثلاثة: علم أعلى، وعلم أسفل، وعلم أوسط.

فالعلم الأسفل هو: تدريب الجوارح في الأعمال والطاعات، كالفروسيَّة والسياحة والخياطة وما أشبه ذلك من الأعمال الَّتي هي أكثر من أن يجمَعها كتاب أو يأتيَ عليها وصف.

والعلم الأعلى عندهم علم الدِّين الَّذي لا يجوز لأحد الكلام فيه بغير ما أنزل الله في كُتُبه وعلى أَلْسِنة أنبيائه ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ نصًّا

QaradawiBooks.com

ومعنًى، ونحن على يقين ممَّا جاء به نبينا ﷺ عن ربِّه ﷻ، وسَـنَّهُ لأُمَّته من حكمته، فالذي جاء به هــو القرآن هدًى للنــاس وبيِّناتٍ من الهدى والفرقان، شفاءً ورحمةً للمؤمنين، آتاه الله الحكم والنبوة؛ فكان ذلك يُتلى في بيوته.

قــال الله تعالــى: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ [الأحزاب: ٣٤].

يريد: القرآن والسُّنَّة، ولســنا على يقين ممَّا يدَّعيه اليهود والنصارى في التوراة والإنجيــل؛ لأنَّ الله قد أخبرنا في كتابه عنهــم أنَّهم يكتبون الكتــاب بأيديهم ثم يقولون: هذا من عند الله؛ ليشــتروا بــه ثمنًا قليلًا، ويقولون: هو من عند الله وما هو من عند الله، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون. فكيف يُؤمَن من خان الله، وكذب عليه وجَحَد واســتكبر؟ قــال الله تعالــى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ [العنكبــوت: ٥١]. وقد اكتفينا ـ والحمد لله ـ بما أنــزل الله على نبيِّنا ﷺ من القرآن، وما سَنَّه لنا عليه السلام.

قال أبو عمر: مــن الواجب على مَن لا يعرف اللســان الَّذي نزل به القرآن وهي لغــة النبي ﷺ أن يأخذ مــن عِلْم ذلــك ما يكتفي به، ولا يستغني عنه حتَّى يعرف تصاريف القول وفحواه، وظاهره ومعناه، وذلك قريب على مَنْ أحبَّ عِلْمه وتعلَّمه، وهــو عوْنٌ له على علم الدِّين الَّذي هو أرفع العلوم وأعلاها. به يُطاع الله ويُعبَد، ويُشــكَر ويُحمَد؛ فمَن عَلِم من القرآن ما به الحاجة إليه، وعرف من السُّنَّة ما يُعوَّل عليه، ووقف من مذاهب الفقهاء على ما نزعوا به وانتزعوه من كتاب ربِّهم وسُــنَّة نبيِّهم، حصل على علم الديانة، وكان على أُمَّةِ نبيِّه مؤْتَمنًا حقَّ الأمانة، إذا اتقى

QaradawiBooks.com

الله فيما علمه، ولم تَمُلْ به دنيا شهوته، أو هوًى يُرديه، فهذا عندنا العلم الأعلى الَّذي نحظى به في الآخرة والأولى.

والعلم الأوسط هو: معرفة علوم الدنيا الَّتي يكون معرفة الشيء منها بمعرفة نظيره، ويُستَدلُّ عليه بجنسه ونوعه، كعلم الطب والهندسة»[١].

ومن هنا ذهب الإمام أبو حامد الغزالي، وغيره من علماء الأُمة، إلى أنَّ كل علم به قوام الدين أو الدنيا، فإنَّ تعلُّمه وإتقانه فرضُ كفاية على الأُمة، مثل الطب والهندسة وغيرهما.

فإذا قام في الأُمَّة عددٌ كافٍ يلبي مطالبها، ويسدُّ حاجتَها، ويغْنيها أن تكون كَلًّا على غيرها في النواحي المدنيَّة والعسكريَّة، فقد سقط الإثم والحَرَج عن سائر الأُمة، وإن لم يقم هذا العدد الكافي في كل اختصاص تحتاج إليه، فالأُمَّة كلها آثمة؛ لتضييعها هذه الفريضة الجَماعيَّة، الواجبة عليها بالتضامن، على تفاوت في مستوى المسؤولية، فمسؤولية الجاهل ليست كمسؤولية العالِم، ومسؤولية ذوي الشأن وأُولي الأمر، ليست كمسؤولية غيرهم من المغمورين.

بل ذهب الغزالي وغيره إلى أنَّ تعلُّم أُصول الصناعات المختلفة فرض على الأُمة، من الحِدادة والنجارة والنسيج والخياطة، وغيرهما من كل ما لا يستغني عنه المجتمع المدني[٢].

وفي عصرنا تدخل كل الصناعات «التكنولوجية»، الَّتي طوَّرت بها الحضارة المعاصرة الحياة تطويرًا هائلًا، فطَوى الإنسان المكان،

---

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (٢/٧٨٧ ـ ٧٨٩)، تحقيق أبي الأشبال الزهيري، نشر دار ابن الجوزي، نشر المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

(٢) انظر: إحياء علوم الدين (١/١٦).

QaradawiBooks.com

واختصر الزمـــان، ووفر جهد الإنســـان، وغدونا نتحـــدث عن ثورة «التكنولوجيـــا» وثـــورة «البيولوجيا» وثـــورة «الاتصـــالات»، وثورة «المعلومات»، وغيرها من الثـــورات الَّتي غيَّرت وجه الحياة، ويجب على أُمَّة الإســـلام أن يكون لها دورها في هذه الثـــورات، وألَّا تقف متفرجة والعالَم يعمـــل ويتحرَّك، ودينها يوجـــب عليها أن تكون في مقدِّمة القافلة لا في ذيلها.

وقد أشـــار القرآن إلى صناعات شَـــتَّى، مثل صناعـــة الحديد في الجانب العســـكري، والجانب المدنـــي، وإليه الإشـــارة بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥]، فقوله: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ يشـــير إلى الصناعات الحربيَّة، وقوله: ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ يشير إلى الصناعات المدنيَّة.

وقد علَّم الله نبيه داود صناعة الدروع: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠]، ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ [سبأ: ١٠، ١١].

ومثل ذلك: الصناعـــات الغذائيَّة كما فـــي قوله: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧].

ومنها: الصناعات المتَّخذة من الأنعام: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠].

ومنها: صناعات التجميل والزينة: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ [الرعد: ١٧]، ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [النحل: ١٤].

QaradawiBooks.com

ومنها: صناعة السفن، وقد أجادها نوح عليه السلام: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [المؤمنون: ٢٧]، ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ [هود: ٣٨].

ومنها: صنعة البناء، وقد تعلَّمها إبراهيم وابنه إسماعيل، وهما اللذان بَنيا أول بيت وُضِعَ للناس: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

ومنها: صناعة السُّدود العظيمة كما فعل ذو القرنين: ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف: ٩٦].

والقطر: هو النحاس المذاب، وهو إذا أضيف إلى الحديد زاده صلابة وقوة.

ومنها: الصناعات الَّتي عملها الجنُّ لسليمان: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ: ١٣]، ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ [صَ: ٣٧].

وعملُ الجنِّ لها لا يعني أنَّ بني الإنسان لا يقدرون عليها، ففي قصص سليمان رأينا بعض النَّاس ممَّن ﴿عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [النمل: ٤٠] يقدر على ما لم يقدر عليه العفريت.

إلى غير ذلك من الصناعات الَّتي أشار إليها القرآن.

* * *

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

أوَّل ما ينبغي أن يُعْلَم

وإنَّ الحقائق الَّتي ينبغي للإنسان أن يعلمها كثيرة، ولا تتناهى.

• العلم بالله وصفاته مُقدَّم على كل علم:

ولكنَّ أعظم الحقائق الَّتي يحضُّ القرآن على معرفتها والعلم بها، هي: العلم بالله تبارك وتعالى، بأسمائه الحسنى، وصفاته العلا. فهذا أول ما ينبغي للإنسان أن يعلمه.

بل هذا ما خلق الله له هذا الكون بسماواته وأرضه، كما بيَّن ذلك القرآن الكريم: أنَّ الله سبحانه خلق هذا العالَم علويَّه وسفليَّه؛ لكي نعرفه سبحانه، فنعبده بعد ذلك.

يقول تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

وقد ذكر الصوفيَّة في هذا حديثًا قدسيًّا لم يثبُت، يقول: «كنتُ كنزًا خفيًّا، فأحببتُ أن أُعرف، فخلقتُ الخلق ليعرفوني»[(١)]!

(١) قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٢٢/١٨): ليس من كلام النبي ﷺ، ولا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف. وتبعه الزركشي والحافظ ابن حجر في اللآلئ والسيوطي وغيرهم. انظر: كشف الخفاء للعجلوني (٢٠١٦)، نشر مكتبة القدسي، القاهرة.

نسخة مبدئية

ولا حاجة إلى هـذا الحديث، فالآية الَّتـي ذكرناها تغني عنه، وهي صريحة الدلالة على غاية الخلق، وهي معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته، وخصوصًا الاسمين الكريمين: القدير والعليم.

وهذه الآية الكريمة استدلَّ بها العلماء على فضيلة علم التوحيد، وتقدُّمه على سائر العلوم، وهذا صحيح، ولكنَّ علم التوحيد الحقيقي ليس هو علم الكلام الجَدَلي، الَّذي امتلأ بمباحث ومجَادلات هي أبعد ما تكون عن لُبِّ التوحيد، وعن تكويـن جوهر الإيمان، وحقيقة اليقيـن، وذلك لأنَّه امتزج بفلسـفة اليونان، وابتعد عن نهـج القرآن، الَّذي يخاطـب العقل والعاطفة جميعًا، ويعتمد على آيات الله في الآفاق وفي الأنفس، وقد ألَّف الإمام ابن الوزير كتابًا قيمًا سمَّاه «ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان».

وكذلك بيَّن القرآنُ أنَّ الله جعل الكعبة المُشـرَّفة، وشـرع الأشـهر الحُرُم، وشرع الهَدْي والقلائد وما يتعلق بالمناسك؛ لنعرف الله جل جلاله.

يقول تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٧].

ومن تتبَّع الآيات الَّتي فيها الأمر بالعلم للفرد أو الجماعة: (اعْلَمْ) أو ﴿ٱعْلَمُوٓاْ﴾، يتبيَّن بوضوح: أنَّ أول ما ينبغـي أن يُعلم هو التوحيد وما يتعلق به من كمـال الله تعالى وجلاله وجماله، وكذلك لقاءه سـبحانه، وأنَّنا إليه محشورون، فلا ينبغي أن تلهينا عنه أموال ولا أولاد ولا الحياة الدنيا بما فيها من لَعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر.

اقرأ هذه الآيات:

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩].

QaradawiBooks.com

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤].

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

﴿فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٩].

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣١].

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٤].

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة: ٩٨].

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ [الأنفال: ٢٨].

﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الأنفال: ٤٠].

QaradawiBooks.com

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: ٢].

وهكذا نجد هذه الصيغة: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾ تتعلَّق بكمال الأُلوهيَّة، وصفات جلالها وجمالها، أو التذكير بالحشر وملاقاة الله سبحانه، أو بيان مَعيَّة الله تعالى لعباده المتَّقين في ثلاثة آيات منها، وأنَّه مُخزي الكافرين.

• العلم بقيمة الحياة الدنيا:

ويقرب من ذلك قوله: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

• العلم برسالة الرسول:

وفي هذه الآيات بهذه الصيغة: آيتان تتعلقان بالرسالة والرسول:

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢].

والثانية قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٧].

• العلم بالأحكام متأخر عن العلم بالعقائد:

وهناك في هذه المجموعة المكوَّنة من سبعة وعشرين آية، توجد آية واحدة تتعلق بالأحكام، وذلك في قوله ﷻ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١].

وهذا يدلُّ على أنَّ العقائد مُقدَّمة على الأعمال، وأنَّ الأُصول مُقدَّمة على الفروع، وأنَّ أحكام الآخرة وما يتعلق بها مقدَّمة على أحكام الدنيا.

QaradawiBooks.com

على خلاف ما انتهى إليه حال المســلمين في الأعصــار الأخيرة، فقد أخذت الأحكام الفرعية الجزئيَّة الفقهية مساحة كبيرة من حياتهم العلمية والعملية، وشــغلهم الحديث عنهــا، والخلاف فيها، عــن أهم القضايا الكليَّة، وأخطر المسائل المصيريَّة.

* * *

نسخة مجانية غير مخصصة للطباعة
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

العلم الَّذي لا يُطلب

قصد القرآن إلى توفير الجهد العقلي للإنسان، فلا يضيعه فيما لا قدرة له عليه، ولا سبيل له إلى معرفته، كما أنَّه لا فائدة له ولنوعه في العلم به.

وبهذا يدَّخر الإنسان ما وهبه الله من طاقات ذهنية مكنونة، وقدرات فطرية مخزونة؛ ليصرفها فيما هو أجدى له، وأعود عليه وعلى جنسه بالخير والبركة له في دينه ودنياه.

ومن ثَمَّ كان هناك أنواع من العلم لا يطلبها المسلم، وبعبارة أُخرى: لم يُؤْمر بطلبها، بل ربما نُهِيَ عن طلبها والبحث عنها.

علم الغيب:

وفي مقدِّمة هذه الأشياء الَّتي دَعَا القرآن الإنسان ألَّا يسعى في طلب معرفتها: العلم بالغيب، أو كما عبَّر القرآن: علم الغيب؛ أي ما غاب عن الحسِّ، فلم يُدرَك بأي حاسَّة من حواسِّه، وغاب عن العقل، فلم يُدرَك بأيِّ أداة من أدواته.

والمراد بالغيب هنا: الغيب المطلق، الَّذي لم يجعل الله له دلائل تُرشد إليه، أو علامات تدلُّ عليه، ويستوي كل النَّاس في الجهل بها، مثل العلم بما يكنُّه ضمير المستقبل للإنسان: هل يعيش الطفل حتَّى

QaradawiBooks.com

يكبـر؟ وإذا كبر هل يتـزوج؟ وإذا تزوج هل ينجـب؟ وإذا أنجب هل يكونون ذُكورًا أو إناثًا؟ وهل يكونون أذكياء أم أغبياء؟ سعداء أو أشقياء؟ وكم يعيش هو؟ ومتى يموت؟ وأين يموت؟ وعلى أيِّ حال يموت؟ إلى آخر تلك الأسئلة الَّتي لا تكاد تتناهى.

هذه الأسئلة وما شابهها لا يستطيع الإنسـان أن يعرف إجابتَها على وجه القطع والتفصيل، فهي من الغيب الَّذي لا يعلمه إلَّا الله تعالى.

حتى أنبياء الله ورُسُله لا يعلمون مِنْ هذا الغيب شيئًا إلَّا ما أعلمهم الله تعالى به؛ لينبئوا به أقوامهم. قال الله تعالى لخاتم رسـله محمد: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وقال تعالـى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

وقال: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقد أمر الله تعالى رسولَه الخاتَم أن يعلن أنَّه لا يدري ماذا يحدث له ولا لقومه في الغد: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الأحقاف: ٩].

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖۖ وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٩].

﴿وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ [الأنبياء: ١١١].

QaradawiBooks.com

وهذا لا يعني ـ كما قد يتوهَّم بعض النَّاس ـ أن يُهمل الإنسان التفكير في مستقبله، والتخطيط له. فقد بيَّنَّا في كتبنا الأُخرى أنَّ النظرة المستقبلية من صميم الإسلام، وأنَّ هذا ما أرشد إليه القرآن، وما صنعه الرسول ﷺ(١).

«الغيب» في نظر القرآن لا يعلمه الإنسان، ولكنَّه يؤمن به ولا ينكره، ومن أوصاف المُتَّقين في القرآن أنَّهم: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة: ٣].

والماديُّون في عصرنا وفي كل عصر، يجعلون الإيمان بالغيب مساويًا للإيمان بالخرافة! وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ «الله» غيب، والوحي غيب، والآخرة غيب، فكل الَّذين يؤمنون بالله وبرسالاته وبالجزاء الأخروي خرافيون؛ لأنَّ عقليتهم «عقليَّة غيبيَّة» لا «عقليَّة علميَّة»!

وهذا يكون صحيحًا لو طُولب الإنسان أن يؤمن بما لم يقم عليه الدليل العقلي القاطع، وجرى وراء الظنون والأوهام، واتَّبع أهواء الكَهَنة والدجَّالين.

أمَّا أن يقوم البرهان وتشهد آيات الله في الأنفس والآفاق على وجود الخالق المبْدع الحكيم، وتقوم الأدلَّة الناصعة على أنَّ فلانًا رسولٌ من الله ينزل عليه الوحي، ولا ينطق عن الهوى، فهنا نخضع لمنطق العقل نفسه، الَّذي دلَّ على صدق الرسول المبلِّغ عن ربِّه، ويحكم العقل بعزل نفسه ـ كما يقول الإمام الغزالي ـ ليتلقى عن الوحي، ويقول مع المؤمنين: سمعنا وأطعنا.

---

(١) انظر كتابينا: أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة صـ ١٠٣ ـ ١٠٦، فصل: فكر مستقبلي، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٧، ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م، والثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة صـ ١١٨ وما بعدها، فصل: النظرة المستقبلية، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ١، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

QaradawiBooks.com

ثم يبقى للعقل مســاحة رحْبة يعمل فيها، وذلك فيما لم ينصَّ فيه الوحي، وفي فهم ما نــصَّ عليه، وفي التوفيق بينــه وبين العقل فيما ظاهره التعارض.

ولا يُكلَّف الإنسان ـ في نظر القرآن والإسلام ـ أن يؤمن بما يستحيل ثبوته في حكــم العقل، فهــذا لا يُقبل في منطــق القرآن الَّــذي يقول للمخالفين: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١١١]، إنَّما يُطالَب الإنسان بما هو ممكن في نظر العقل الحر، ولكن ليس لديه آلة لإدراكه، فهو يؤمن به؛ لأنَّ الوحي المعصوم جاء به، وإلَّا لناقض العقل نفســه، حيث أثبت صدق الوحي، ثم كذَّب ما أنبأ به.

والإنسان حين يؤمن بالغيب ولا يبحث عنه، إنَّما يوفِّر طاقته العقلية للبحث في «عالَم الشهادة» الَّذي يعيش فيه، ويتعامل معه، ولديه الوسائل لمعرفته؛ لأنَّه كله مسخَّر لمنفعته من قِبَل خالقه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [الجاثية: ١٣].

ومن هنا كان خطأ المدرســة المشائية في الفلســفة الإسلامية، المتمثلة في الكندي والفارابي وابن سينا ومَن دار في فلكهم: أنَّهم أخذوا الفلســفة اليونانية بكل شُــعَبها وجوانبها ـ بما فيها الجانب الإلٰهي والغيبي ـ وجعلوها أصلًا مُســلَّمًا، وجعلوا ما جاء به القرآن تابعًا. ومن هنا كان موقفهم من القضايا العقدية الكبرى الَّتي كفَّرهم فيها الغزالي، وهــي: قضية الخلق، أعني خلق الله للعالَم بســماواته وأرضه.. وقضية علم الله تعالى لجزئيَّــات الحوادث، وقضية البعث الجســماني في الدار الآخرة، وما يترتَّب عليه مــن ثواب وعقاب، وجنَّة ونار.

QaradawiBooks.com

ولو أنَّ هؤلاء الفلاسفة الكبار، أخذوا من فلسفة اليونان: الشُعَب المتعلقة بعلوم الطبيعة والرياضيات ونحوها، واكتفوا في الجانب الإلٰهي بما نطق به القرآن، لاستراحوا وأراحوا، ووفَّروا على الأُمة الصراع بين المتكلمين والفقهاء من جانب، والفلاسفة من جانب آخر، ولانطلقت الأُمة بالجانب العلمي المحض، واستمرت في تطويره وتحسينه وتنقيحه والإضافة إليه، وربما لو تمَّ ذلك لبقيت قيادة الحضارة في يد الشرق، ولم تنتقل الشُعْلة منه إلى الغرب، ولكن هكذا قدر الله، ولا يُجْدي هنا «لو» ولا «ليت»!

العلم بحقيقة الذات الإلٰهيَّة:

وأعظم أنواع الغيب، وأبعدها عن إدراك الإنسان وإحاطته: العلم بحقيقة الذات الإلٰهيَّة المُقدَّسة، المتعالية على المخلوقات، المتَّصفة بكل كمال، المُنزَّهة عن كل نقص.

دعا القرآن العقل إلى الاعتراف بقصوره الذاتي عن إدراك حقيقة ذات الله جلَّ شأنه. بحسبه أن يُدرك وجوده تبارك وتعالى، ويُدرك وحدانيته، ويُدرك تفرُّده بالكمال الأعلى، وروْعة تدبيره لهذا الكون، واتِّصافه بالعلم والحكمة، والمشيئة والقدرة، والعزَّة والرحمة، ونحو ذلك من صفات الكمال اللائقة بذاته سبحانه.

أمَّا ما عدا ذلك، فالعقل الإنساني أعجز من أن يحيط به، ويُدرك كُنْهه، ولا عجب في ذلك، فقد ثبت عجز الإنسان عن «معرفة الكُنْه» لكثير من الأشياء من حوله، فهو يعرف آثارها، ولا يعرف حقيقتها، وأبرز مثال لذلك هو: الحياة نفسها، الَّتي لا يعرفها إلَّا بآثارها.

QaradawiBooks.com

بل عجز الإنســان أن يحيط علمًا بحقيقة نفسه، وكيف يعمل عقله؟ حتَّى ألَّف أحد كبار علماء الكونيَّات ـ وهو حائز لجائزة نوبل في العلوم ـ كتابًا سمَّاه «الإنسان ذلك المجهول»!

فإذا كان هذا شأن الإنسان مع نفسه، فكيف يطمع أن يكْتنِه حقيقةَ الله الخالق المبدع، وليس له مثال من الشــاهد يمكن أن نقيسَــه عليه، ولا يدخل تحت سلطان الخيال، الَّذي يستطيع أن يركب صورًا يتوهَّمها، وإنْ لم يكن لها وجود!

لهذا ذكر القرآن عجز النَّاس عن الإحاطة به جَلَّ وعلا. يقول تعالى:

﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٠].

﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤].

﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

بهذا أراح القرآن الإنســانَ المســلمَ من معاناة البحث عمَّا لا طائل وراءه، والتفكير فيما هو فوق طاقةِ عقله، وسلَّم بذلك فَسَلِم، وَوَجَّه هذه الطاقة فيما هو أقــرب إليه، وأجْــدى بالنفع عليه، ولــم يركض خلف السَّراب يحسبه ماءً، حتَّى إذا جاءه لم يجده شيئًا!

أعلن ذلك رسول الإســلام فقال فيما يُروى عنه: «**تفكَّروا في آلاء الله، ولا تَفكَّروا في الله فتهلكوا**»، أو «**تفكروا في خلق الله ولا تتفكَّروا في الله**»[1].

(١) سبق تخريجه صـ٣٢.

QaradawiBooks.com

وناجى ﷺ ربَّه، فقال: «**لا أُحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيتَ على نفسك**»[(١)].

وروي عن أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه: العجزُ عن دَرْكِ الإدراكِ إدراكٌ[(٢)].

ولقد حاول بعض مفكري المسلمين ومتكلِّميهم أن يقتربوا من لجج هذا البحر الخضم فأوشكوا أن يغرقوا، فابتعدوا عنه، وحذَّروا منه.

يقول الإمام فخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ ـ ١٢١٠م) صاحب «التفسير الكبير» والكتب الشهيرة في «الأصولَيْن»: أُصول الدين، وأُصول الفقه، بعد أن حصَّل أفكار المتقدِّمين والمتأخِّرين[(٣)]:

العلمُ للرحمٰنِ جَلَّ جلالُه ... وسواه في جَهَلَاتِهِ يتغَمْغَمُ
ما للتُّرابِ وللعلوم؟ وإنَّما ... يسعى ليعلمَ أنَّه لا يعلم!

وينشد الإمام الشهرستاني (ت٥٤٨هـ ـ ١١٥٣م) في أول كتابه «نهاية الإقدام في علم الكلام»[(٤)].

لقد طفتُ في تلك المعاهد كلِّها ... وسرَّحتُ طرفي بين تلك المعالمِ
فلم أرَ إلَّا واضعًا كفَّ حائرٍ ... على ذقنٍ، أو قارعًا سنَّ نادمِ

---

(١) رواه مسلم في الصلاة (٤٨٦)، وأحمد (٢٥٦٥٥)، من حديث عائشة: «**اللَّهُمَّ إنِّي أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وبك منك، لا أُحصي ثناءً عليك، أنتَ كما أثنيتَ على نفسك**»، ولم أجد في الأصول لفظ «سبحانك» وهي مشتهرة على الألسن.

(٢) المقصد الأسنى للغزالي صـ ٥٤، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي، نشر الجفان والجابي، قبرص، ط١، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

(٣) انظر: إيثار الحق على الخلق لابن الوزير صـ ١٣، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٨٧م. وقد نسب البيتين للزمخشري: ياقوت الحموي في معجم الأدباء (٢٦٨٩/٦) تحقيق إحسان عباس، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

(٤) صـ ٧، تحقيق أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ.

QaradawiBooks.com

وصرَّح بذلك الإمام الغزالي (ت٥٠٥هـ ـ ١١١١م) في «الإحياء»[(١)] وصنَّف فيه، وجوَّد القول فيه في كتابه «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحُسنى».

ومن الصوفية اشتهر عن أبي القاسم الجُنَيْد (ت٢٩٧هـ ـ ٩١٠م) أنَّه كان يقول: لا يعرف اللهَ إلَّا اللهُ[(٢)]!

والمعتزلة ـ على خوضهم في بحر الإلٰهيَّات ـ نجد منهم مثل العلَّامة ابن أبي الحديد (ت٦٥٥هـ ـ ١٢٥٧م) في شرحه كتابه «نهج البلاغة» المنسوب للإمام عليٍّ رضي الله عنه، يتعرَّض لهذه القضيَّة في مواطن من شرحه، ويذكر فيه كلمات بليغة نثرًا وشعرًا مع توغُّله في علم الكلام، ومن شعره يخاطب الفلاسفة:

هل أنتمو إلَّا الفَرا … شُ رأى السراجَ وقد توقَّدْ؟
فدنا، فأحرقَ نفسَه … ولو اهتدى رُشدًا لأبعدْ!

وقال أيضًا يخاطب الذات الإلٰهيَّة:

سافَرَتْ فيك العقولُ فما … رَبِحَتْ إلَّا عَنَا السَّفَرِ
فلحا اللهُ الأُلى زعموا … أنَّك المعلومُ بالنظرِ
كذبوا! إنَّ الَّذي زعموا … خارج عن قوَّة البَشَرِ[(٣)]

قال العلَّامة أبو عبد الله محمد بن المرتضى اليماني الشهير بابن الوزير (ت٨٤٠هـ ـ ١٤٣٦م) بعد أن أورد هذه الأقوال وغيرها: «ودَعْ عنك

(١) الإحياء (٨٩/١ ـ ١٢٥).
(٢) المقصد الأسنى صـ ٤٩.
(٣) ذكر هذه الأقوال كلها الإمام ابن الوزير في كتابه الفريد إيثار الحق على الخلق صـ ١٣٩ وما بعدها، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

QaradawiBooks.com

هؤلاء كلهم، فقد كفانا كتاب الله تعالى حيث يقول سبحانه: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]. ولا أوضح من القرآن إذا أجير من التأويل بغير برهان.

وكيف نتأوَّل ذلك، وهذا رسول الله ﷺ وهو المُبيِّن لكتاب الله يقول في هذا المقام: «**سبحانك لا أُحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيتَ على نفسك**»(١).

هذا وهو أفصح وأعلم مَن ترجم عن مَمادح ربه سبحانه، وهو المؤْتَى في ذلك للجوامع الكلم وحُسناها، وأنفسها عند الله وأسناها، وهو المخاطَب بقول الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

فاعترف عليه السلام بقصور عباراته عن بلوغ المرام في هذا المقام، فكيف بسائر الأنام؟»(٢).

مفاتح الغيب الَّتي لا يعلمها إلَّا الله:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًاۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان: ٣٤].

علمُ السَّاعة:

فأما «علم الساعة» فقد انفرد به الله سبحانه، ولم يُطْلع عليه مَلكًا مُقرَّبًا، ولا نبيًّا مُرسلًا، وقد وجَّه القرآن الرسول الكريم في أكثر من آية أن يجيب السائلين عن الساعة بجواب محدَّد: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٨٧، الأحزاب: ٦٣]، ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ [الأعراف: ١٨٧، طه: ٥٢]، حتَّى يغلقوا أفواههم فلا يطْمَعوا في معرفتها بكثرة السؤال عنها.

---

(١) سبق تخريجه صـ١٨٨.

(٢) إيثار الحق صـ ١٤٠، ١٤١.

QaradawiBooks.com

نقرأ في ذلك قوله تعالى في القرآن المكي:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وفي القرآن المدني:

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣].

وفي حديث جبريل المشهور، سأل النبي ﷺ عن الساعة، فكان جوابه: «**ما المسؤولُ عنها بأعلمَ من السائل**»[(١)].

وكما أخفى الله ساعةَ كلِّ حيٍّ عن نفسه، فلا يعلم متى ينقضي أجله، ويُطوى كتابه؛ ليعدَّ العدة للغد، ويستعدَّ للقاء ربه بعمل الصالحات، واتِّقاء السيِّئات في كلِّ حين.. أخفى سبحانه ساعة النَّاس جميعًا عنهم، فلا تأتيهم إلَّا بغتة، حتَّى يتهيأوا لاستقبالها بما ينبغي لها من تقوى الخالق والإحسان إلى الخلق.

كلُّ ما أخبر به الرسول عن الساعة هو أشراطها أو أماراتها وعلاماتها، صُغرى كانت أو كُبرى.

وبعثة النبيِّ ﷺ من أماراتها، فهو آخر الأنبياء، ليس بعده نبيٌّ، ولا بعد قرآنه كتاب، ولا بعد شريعته شريعة، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «**بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين**»[(٢)]. وأشار بأصبعيه: السبابة والوسطى.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩)، كلاهما في الإيمان، عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٥٠٤)، ومسلم في الفتن (٢٩٥١)، عن أنس.

QaradawiBooks.com

وإلى هذا يشير القرآن بقوله: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد: ١٨].

غير مرخصة للطباعة

علم تنزيل الغيث:

وكذلك لا يعلم بدقة وتفصيل: متى ينزل الغيث؟ وعلى أيِّ مساحة من الأرض ينزل؟ وكم يستمرُّ نزوله؟ وما مدى قوَّته؟ وهل يتحوَّل إلى سيل جارف وفيضان مدمِّر؟

كل ذلك لا يعلمه إلَّا الله جَلَّ وعَلا. قد تستطيع الأرصاد الجويَّة أن تتوقع ما يحدث، بناءً على ظواهر جوية طبيعيَّة نشاهدها، ونستنتج منها ما يمكن أن يحدث في الغد، ولكن هذا لا يعدو أن يكون توقعًا واستنتاجًا، كثيرًا ما يحدث خلافه تمامًا، وكثيرًا ما فوجئ أهل الأرصاد بما لم يكن في حسبانهم. وكثيرًا ما توقَّعوا الأمر هيِّنًا فإذا هو يباغتهم بالخطورة، وقد يكون بالعكس. ويسمِّيها بعضهم: مفاجآت الطبيعة، وربما قال: غدر الطبيعة.

والمؤمن يردُّ ذلك إلى مشيئة الله الَّذي يُجري كل شيء في الكون بقدر وحساب، وليس شيء فيه يجري اعتباطًا، أو يمضي عبثًا. قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨].

علم ما في الأرحام:

ومن مفاتيح الغيب الَّتي ذكرها القرآن: علم ما في الأرحام. وقد ذكر بعض المفسِّرين، أنَّ المراد: أنَّه تعالى يعلم ما في الرَّحم: أذكر أم أُنثى؟ واستغلَّ ذلك بعض دعاة العلمانية اللادينيَّة، ليتخذوا من هذا القول ذريعة إلى اتهام علماء الدين وتفسير القرآن بأنَّهم جعلوا القرآن مناقضًا

QaradawiBooks.com

للعلم. فقد أصبح من الميسور اليوم معرفة جنس الجنين من وقت مبكِّر من الحمل، ولم يعد هذا من علم الغيب الَّذي استأثر الله به.

وهذا التفسير لم يجيء عن النبيِّ المعصوم حتَّى نلتزم به، بل هو قول من الأقوال، والآية الكريمة إنَّما ذكرت أنَّ الله يعلم ما في الأرحام، و«ما» في الآية لفظٌ عامٌّ، يشمل جنس الجنين، ويشمل ما هو أكثر من ذلك وأوسع: هل يعيش الجنين حتَّى ينزل مكتملًا؟ أو ينزل قبل اكتماله أو يُجهَض؟ وهل يكون ضعيفًا أو قويًّا؟ ذكيًّا أو غبيًّا؟ جميلًا أو قبيحًا، وما صورة وجهه ولون عينيه، ونوع شعره؟ إلى آخر تلك الأسئلة، الَّتي لا يقدر على الإجابة عنها بدقَّة إلَّا الله تعالى.

وقد عَرَض القرآن لما في الأرحام في آية أخرى وسُورة أخرى فقال:

﴿ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ۝ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ﴾ [الرعد: ٨، ٩].

وما تدري نفسٌ ماذا تكسب غدًا:

ومن مفاتح الغيب الَّتي لا يعلمهنَّ إلَّا الله: ماذا يصنع الإنسان غدًا، وماذا تكسب يداه، وليس هذا مقصورًا على كسب الرزق كما قد يُتوهَّم، وإن كان داخلًا في الكسب، ولكنَّ الكسب يشمل كل ما عملت يد الإنسان من خير أو شر يُجزَى عليه في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]، ﴿وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَا﴾ [الأنعام: ١٦٤].

QaradawiBooks.com

والناس مـن قديم يعترفـون بأنَّهم يجهلون ما يأتي بـه الغد، يقول المثقَّب العبدي في قصيدته النونيَّة الشهيرة[١]:

ولا أدري إذا يمَّمـتُ أرضًا ... أريـد الخير أيهمـا يليني؟
أَأَلْخيـر الَّـذي أنـا أبتغيـه ... أم الشـرُّ الَّذي هو يبتغيني؟

قد يُخطط الإنسـان لما يصنعه في غده ويرتِّب الأمر ترتيبًا دقيقًا، ويضع فيه كل شيء موضعه المناسـب له، وربما كتب ذلك وكلَّف به من يُنفِّذه، ولكنَّ كثيرًا ما تجدُّ أحداثٌ تقلب الأُمور رأسًـا على عقب، فيتوقف السـائر، ويسـكن المتحرك، ويسـكت المتكلـم، ويمرض الصحيح، بل يموت الحـي، دون إنذار ولا إعلام، بحادث مفاجئ، أو بسكتة قلبيَّة، أو ذبحة صدريَّة، أو غير ذلك ممَّا هو معروف غير منكور لدى الناس. وهذا ما جعل النَّاس يقولون في أمثالهم: «العبد في تفكير، والربُّ في تدبير».

وما تدري نفسٌ بأي أرض تموت:

ومن مفاتح الغيب: العلم بمكان الموت، ومثله: العلم بزمان الموت، فلا يعلم الإنسان بأيِّ أرض يموت، ولا في أي وقت يموت. كل ما يعلمه أنَّ له أجلًا مُسـمًّى عنـد الله، وأنَّه إذا جـاء أجله لا يُؤخَّر سـاعة، كما لا يُسْتقدم: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١].

وكم من امرئ عاش عمره في بلد، ثم قدَّر الله له أن يموت في بلد آخر، جعل الله له حاجة فيها، تكون هي الدافع لانتقاله، ليموت حيث قدَّر الله له.

---

(١) انظر: ديوان شـعر المثقـب العبدي، صـ ٢١٣، تحقيق حسـن كامل الصيرفي، نشـر معهد المخطوطات العربية، ١٩٧١م.

QaradawiBooks.com

يقول الشاعر:

مَشـيْناها خُطًـا كُتِبـت علينـا ومَن كتُبِـت عليه خُطًا مشـاها!
ومَـن كانـت مَنِيَّتُـه بـأرضٍ فليس يموتُ في أرضٍ سواها[1]!

علم ما قبل التاريخ:

وإذا كان علم المستقبل بتفاصيله لا يعلمه على وجه القطع إلَّا الله، فإنَّ علم الماضي السحيق ـ علم القرون الأولى قبل التاريخ ـ ممَّا لم يقم عندنا دليل صحيح عليه، لا من أثر يشهد، ولا من خبر يُروى، هو من هذا الوادي الَّذي نَكِل العلم فيه إلى الله، ولا نقفو ما ليس لنا به علم، ولا نقحم أنفسنا فيما لا تسعفنا وسائلنا وآلياتنا المختلفة في كشف اللثام عنه.

وهنا لا يسعنا إلَّا ما وسع كليم الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام، في المحاورة الَّتي تمَّت بينه وبين فرعون: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٤٩ ـ ٥٢].

أمَّا إذا خلَّف القوم وراءهم من المعالم والآثار المشهودات، أو من الخطوط والجلود والأوراق المكتوبات: ما يمكن استنطاقه بما كان عليه القوم، فينبغي الاستفادة منه بلا ريب، استجابةً لقول الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

(١) ذكرهما من غير نسبة الإبشيهي في المستطرف في كل فن مستظرف ص٤٩١، نشر عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ.

QaradawiBooks.com

وقد يدخل في ذلك السَّـيْر في الأرض للنظر في قضيـة بدء الحياة وكيف كان. وإلى هذا يشير القرآن: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

علم حقيقة الرُّوح:

وممَّا قد يدخل في هــذه الدائرة: علم حقيقة الــروح الَّتي بها يحيا الإنسان والحيوان.

وفي هذا جاء قوله تعالــى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥].

على أنَّ المراد بـ «الروح» في الآية الكريمة هو روح الإنســان. وهو الراجح لدى المُفسِّرين.

وإن كان هناك أقوال أُخرى: أنَّ المراد هــو «جبريل» بوصفه «الرُّوح الأمين».

وقيل: المراد بالروح: القرآن، كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢].

* * *

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الفقه في لسان القرآن

وكما دعا القرآن إلى العلم، دعا إلى الفقه أيضًا، في سـوره المكيَّة والمدنيَّة.

والفقه القرآنيُّ ليس هو الفقـه بالمعنى الاصطلاحي، فهـذا ممَّا بدَّله النَّاس من مصطلحات العلوم وأسمائها، كما بيَّن ذلك الغزالي في «الإحياء».

الفقه الاصطلاحي يُراد به: معرفة الأحكام الشـرعيَّة الفرعيَّة الجزئيَّة من أدلَّتهـا التفصيليَّة، مثل أحكام الطهارة والحيـض والنفاس والصلاة والصيام والرضاع والزواج والطلاق، ونحوها، ممَّا يدخل تحت ما عرفه المسلمون باسم «علم الفقه».

أمَّا الفقه القرآني فلا يتعلـق بذلك، إنَّما يتعلق بالفهم لآيات الله في الآفاق والأنفس، والتأمُّل في سـنن الله في الكون والاجتماع، في ضوء شـواهد التاريخ، ودلائل الواقع، ومعرفة أسرار الله في خلقه، ومقاصده في شرعه.

الفقه في القرآن المكي:

ولهذا جاءت هذه الكلمة في القرآن المكيِّ قبل أن تُشـرع الأحكام، وتُحدَّ الحدود، وتنزَّل التفصيلات في السور المدنيَّة.

QaradawiBooks.com
نسخة مجانية

يقول تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٩٨].

وفي نفس السورة نجد القرآن يذكر ألوانًا من العذاب يُهدِّد بها المشركين الظالمين، في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥]، ثم يقول تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥]. فهذا فقهٌ في سنن الله وعقوباته للأُمم إذا كذَّبت رُسُلَه، واستحبُّوا العَمَى على الهدى.

وقد نجد القرآن الكريم في السياق الواحد يذكر العلم، ويذكر الفقه، مفرِّقًا بينهما. فللعلم موضعه، وللفقه موضعه. وقد تكرَّر ذلك في أكثر من موضع.

من ذلك: ما جاء في هذه السورة ـ سورة الأنعام ـ في آيتين متتاليتين، وهما قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧، ٩٨].

لماذا فرَّق بينهما في التعبير؟ هنا نقرأ لصاحب «الظلال» رحمه الله هذه الكلمات المنيرة.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧].

«فالاهتداء بالنجوم في ظلمات البر والبحر يحتاج إلى علم بمسالكها ودوراتها ومواقعها ومداراتها، كما يحتاج إلى قوم يعلمون دلالة هذا كله على الصانع العزيز الحكيم. فالاهتداء ـ كما قلنا ـ هو الاهتداء في الظلمات الحسيَّة الواقعيَّة، وفي ظلمات العقل والضمير. والذين

QaradawiBooks.com

يســتخدمون النجوم للاهتداء الحسِّــي، ثم لا يصلون ما بيــن دلالتها ومبدعها، هم قومٌ لم يهتدوا بها تلك الهداية الكبرى؛ وهم الَّذين يقطعون بين الكون وخالقه، وبين آيات هذا الكون ودلالتها على المبْدع العظيم.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٩٨].

إنَّها اللمسة المباشرة في هذه المرَّة، اللمسة في ذات النفس البَشريَّة. النفس البَشريَّة الواحدة الموحدة الكُنه والحقيقة في الذكر والأُنثى. تبدأ الحياة فيها خطوتها الأولى للتكاثر بالخلية الملقَّحة. فنفسٌ هي مستودعٌ لهذه الخلية في صلب الرجل، ونفسٌ هي مستقرٌّ لها في رَحِم الأُنثى، ثم تأخذ الحياة في النمو والانتشار. فإذا أجناس وألوان، وإذا شيات ولغات، وإذا شعوبٌ وقبائل، وإذا النَّماذج الَّتي لا تُحصى، والأنماط الَّتي ما تزال تتنوَّع ما دامت الحياة.

﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٩٨].

فالفقه هنا ضروريٌّ لإدراك صنع الله في هــذه النفس الواحدة، الَّتي تنبثق منها النماذج والأنمــاط. ولإدراك الموافقات العجيبة الكامنة وراء اتِّخاذ التلاقح وســيلة للإكثار وتوفير الأعداد المناسبة دائمًا من الذكور والإناث ـ في عالَمِ الإنسان ـ لتتم عملية التزاوج الَّتي قدَّر الله أن تكون هي وسيلة الإخصاب والإكثار، ووسيلة تنشئة الأطفال في ظروف تحفظ «إنسانيتهم»، وتجعلهم أكفاء للحياة «الإنسانيَّة»!

ولا نملك هنا ـ في الظلال ـ أن نبعد في عرض هذه المســألة بكل تفصيلاتها لجَلاء هذه الموافقات ـ فهي في حاجة إلى بحث متخصِّص ـ ولكنَّنا نذكر فقط كيفيَّة نشأة النطفة، ذكرًا أو أُنثى، وكيف يتمُّ عن طريق

QaradawiBooks.com

التوزيع الغيبي الربَّاني إنتاج القدر الكافي من الذكور ومن الإناث دائمًا لكي تتوافر الأعداد المناسبة لبقاء الحياة وامتدادها.

ولقد ذكرنا من قبل عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩] أنَّ الَّذي يقرِّر صيْرورة البويضة الملقَّحة ذكرًا أو أُنثى، هو أن يجري قدر الله بأن يكون عدد «كروموسومات» الحيوان المنوي الَّــذي يلتحم بالبويضــة يرجِّح «كروموســومات» التذكير على «كروموسومات» التأنيث أو العكس، وأنَّ جريان القدر بهذا أو ذاك غيبٌ من غيب الله، لا سلطان لأحدٍ عليه إلَّا الله.

هذا القدَر الَّذي يُجريه الله في كلِّ مرَّة، فيهب لمن يشاء إناثًا ويهب لمن يشــاء الذكور، يحافظُ على توازنٍ دائم في الأرض كلها بين عدد مَن يجري بهم ليكونــوا إناثًا، وعدد مَن يجري بهــم ليكونوا ذكورًا. فلا يقع اختلال ـ على مستوى البَشــريَّة كلها ـ في هذا التوازن. الَّذي عن طريقه يتمُّ الإخصاب والإكثار، وتتم به حياة زوجية مســتقرة في الوقت ذاته. ذلك أنَّ الإخصاب والإكثــار وحده قد يتم بأقل عدد من الذكور، ولكنَّ الله قدَّر في الحياة الإنسانيَّة أنَّ هذا ليس هو غاية الالتقاء بين الذكر والأُنثى، إنَّما الغاية ـ الَّتي تميِّز الإنســان من الحيوان ـ هي اســتقرار الحياة الزوجيَّة بين ذكر وأُنثى؛ لما وراء هذا الاســتقرار من أهداف لا تتمُّ إلَّا به. وأهمها استقرار الذِّرِّيَّة في كنف أبوين في محيط أُسرة، ليتمَّ إعداد هذه الذُّرِّيَّة لدورها «الإنساني الخاص ـ فوق إعدادها لتحصيل القوت وحماية النفس كالحيوان ـ والدور «الإنساني» الخاص يحتاج إلى الاستقرار بين أبوين في أُســرة فترة أطول جدًّا ممَّا تحتاج إليه طفولة الحيوان!

وهذه الموازنـــة الدائمة تكفي وحدها لتكون آيـــة على تدبير الخالق وحكمته وتقديره، ولكن لقوم يفقهون: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٩٨].

أمَّا المطموســون المحجُوبون، وفي أولهم أصحاب «العلميَّة» الَّذين يســخرون من «الغيبيَّة». فإنَّهم يمرُّون على هذه الآيات كلها مطموسين محجُوبين: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ﴾ [الأعراف: ١٤٦]»[1].

نفي الفقه عن الكفار والمنافقين:

ولا غرْو أن نَفَى الله تعالى هذا الفقه عن الكفار وعن المنافقين.

فيقول عن الكفار: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ويقول مخاطبًا المؤمنين: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥].

فهكذا يعلل غلبة المسلمين عليهم بأنَّهم ينقصهم الفقه: ﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾.

ويقول في شأن اليهود: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الحشر: ١٣].

ويقول في شأن المنافقين: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١].

---

(١) انظر: في ظلال القرآن (١١٥٩/٢، ١١٦٠)، نشر دار الشروق، القاهرة، ط ٣٢، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

QaradawiBooks.com

﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨٧].

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧].

قال في «تفسير المنار» في قوله: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾: «جملة تحتمل الدعاء والخبر، ومضمونهما في كلام الله واحد، والمعنى: صرف الله قلوبهم عن صدق الإيمان، والاهتداء بآيات الله في القرآن، المُرشدة إلى آياته في الأكوان: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي: بسبب أنَّهم فقدوا صفة الفقاهة الفِطريَّة، وفهم الحقائق وما يترتَّب عليها من الأعمال، لعدم استعمال عقولهم فيها، فهم لا يفقهون ما يسمعون من هذه الآيات، لعدم تدبُّرها، والإعراض عن النظر والتأمُّل في معانيها، وموافقتها للعقل، وهدايتها إلى الحقِّ والعدل، ذلك بأنَّهم اتَّخذوا أنفسهم أعداءً وخصومًا للرسول، فوطَّنوا أنفسهم على الإعراض عن كل ما جاء به، من غير بحث ولا تأمل فيه: أمعقول أم غير معقول؟ أحقٌّ أم باطل؟ أخير أم شر؟ أهُدى أم ضلال؟ أنافع أم ضار؟ فأنَّى يُرْجى لهم - وهذه حالهم - أن يهتدوا بتعدد نزول الآيات والسور»[1].

وفي السورة الَّتي سُمِّيت «سورة المنافقون» وصفهم الله في آيتين بأنَّهم ﴿لَّا يَفْقَهُونَ﴾.

الأُولى: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣].

(١) تفسير المنار (١١/٦٨، ٦٩)، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٩٠م.

QaradawiBooks.com

والثانية: قولـه: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧].

وبذلك نجد أنَّ نصيب المنافقين من الحِرمان من الفقه أكثر من غيرهم، وذلك لما في قلوبهم من المرض، الَّذي يحُول بينهم وبين هذا الفقه، سواء أكان مرض الشبهات أم مرض الشهوات.

كلمات من «ظلال القرآن»:

ويحسنُ بنا أن ننقل هنا هذه الكلمات المضيئة عن صاحب «الظلال» رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعليقًا على الآية الكريمة: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ﴾ [المنافقون: ٧]، يقول: «وهي قَوْلَةٌ يتجلى فيها خُبث الطبع، ولؤم النحيزة[1]. وهي خطة التجويع الَّتي يبدو أنَّ خصوم الحق والإيمان يتواصون بها على اختلاف الزمان والمكان، في حرب العقيدة ومناهضة الأديان. ذلك أنَّهم ـ لخسَّة مشاعرهم ـ يحسبون لقمة العيش هي كل شيء في الحياة كما هي في حسّهم، فيحاربون بها المؤمنين.

إنَّها خطة قريش وهي تُقاطع بني هاشم في الشِّعْب، لينفضُّوا عن نُصرة رسول الله ﷺ ويُسلموه للمشركين!

وهي خطَّة المنافقين كما تحكيها هذه الآية، لينفضَّ أصحاب رسول الله ﷺ عنه تحت وطأة الضيق والجوع!

(١) أي: الطبيعة.

QaradawiBooks.com

وهي خطة الشيوعيِّين في حرمان المتدينين في بلادهم من بطاقات التموين، ليموتوا جُوعًا أو يكفروا بالله، ويتركوا الصلاة!

وهي خطَّة غيرهم ممَّن يحاربون الدعوة إلى الله وحركة البعث الإسلامي في بلاد الإسلام، بالحصار والتجويع ومحاولة سدِّ العمل والارتزاق.

وهكذا يتوافى على هذه الوسيلة الخسيسة كل خصوم الإيمان، من قديم الزمان، إلى هذا الزمان، ناسين الحقيقة البسيطة الَّتي يذكِّرهم القرآن بهم قبل ختام هذه الآية: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧].

ومن خزائن الله في السماوات والأرض يرتزق هؤلاء، الَّذين يحاولون أن يتحكَّموا في أرزاق المؤمنين، فليسوا هم الَّذين يخلقون رزقَ أنفسِهم، فما أغباهم وأقلَّ فقههم وهم يحاولون قطع الرزق عن الآخرين!

وهكذا يُثبِّت الله المؤمنين ويُقوِّي قلوبهم على مواجهة هذه الخطة اللئيمة والوسيلة الخسيسة، الَّتي يلجأ أعداء الله إليها في حربهم، ويطمئنهم إلى أنَّ خزائن الله في السماوات والأرض هي خزائن الأرزاق للجميع. والَّذي يعطي أعداءه لا ينسى أولياءه. فقد شاءت رحمته ألَّا يأخذ حتَّى أعداءه من عباده بالتجويع وقطع الأرزاق. وقد علم أنَّهم لا يرزقون أنفسهم كثيرًا ولا قليلًا لو قطع عنهم الأرزاق؟ وهو أكرم أن يَكِلَ عباده ـ ولو كانوا أعداءه إلى ما يعجزون عنه البتة. فالتجويع خطَّة لا يفكر فيها إلَّا أخسُّ الأخساء وألأم اللؤماء»[1].

* * *

(١) في ظلال القرآن (٣٥٧٩/٦).

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الحكمة في لسان القرآن

ومن الكلمات القرآنيَّة الَّتي لها صلـة بموضوع العلم والعقل: كلمة «الحكمة»، وقد تكـرَّرت في كتاب الله ـ مُعرَّفة ومُنكَّرة ـ عشـرين مرَّة، عشر منها مقرونة بالكتاب ﴿ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾.

ولكن ما المراد بـ «الحكمة»؟

قال الراغب في «مفردات ألفاظ القرآن»:

«الحكمة: إصابة الحق بالعلم والعقـل. فالحكمة من الله تعالى: معرفة الأشـياء، وإيجادُها على غاية الإحكام، ومن الإنسـان: معرفة الموجودات، وفعـل الخيرات، وهذا هو الَّـذي وُصِفَ به لقمان في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ [القمان: ١٢]، ونبَّه على جملتها بما وصفه بها»(١).

الحكمة نظرية وعملية:

وقـال الفخر الرازي في «تفسـيره الكبير»: «اعلـم أنَّ الحكمة هي: الإصابة في القول والعمل، ولا يُسمَّى حكيمًا إلَّا مَن اجتمع له الأمران. وقيل: أصلها من أحكمت الشيء، أي ردَدْته، فكأنَّ الحكمة هي الَّتي تردُّ

(١) مفردات ألفاظ القرآن مادة (ح. ك. م).

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

عن الجهل والخطأ. وذلك إنَّما يكون بما ذكرنا من الإصابة في القول والفعل، ووضع كل شيء موضعه. قال القفَّال: وعبَّر بعض الفلاسفة عن الحكمة بأنَّها التشبه بالإلٰه بقدر الطاقة البَشريَّة»[1].

وعبَّر بعضهم عن ذلك بعبارة: «التخلق بأخلاق الله تعالى». والمراد: أن يكون له حظٌّ من أسمائه وصفاته تعالى بما يليق ببَشريته، وبقدر وسعه وطاقته.

قال الفخر: «واعلم أنَّ الحكمة لا يمكن خروجها عن هذين المعنيين (العلمي والعملي)، وذلك لأنَّ كمال الإنسان في شيئين: أن يعرف الحقَّ لذاته (أي ليؤمنَ به) و(يعرف) الخير لأجل العمل به. فالمرجع بالأول إلى العلم والإدراك المطابق، وبالثاني إلى فعل العدل والصواب، فحكى تعالى عن إبراهيم ﷺ قوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾؛ وهو الحكمة النظريَّة ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [الشعراء: ٨٣]؛ الحكمة العمليَّة.

ونادى موسى عليه السلام فقال: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا﴾؛ وهو الحكمة النظريَّة، ثم قال: ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ [طه: ١٤]؛ وهو الحكمة العملية.

وقال عن عيسى عليه السلام أنَّه قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠] إلخ؛ وكل ذلك للحكمة النظريَّة. ثم قال: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١]؛ وهو الحكمة العملية.

وقال في حقِّ محمَّد ﷺ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]؛ وهو الحكمة النظريَّة. ثم قال: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد: ١٩]؛ وهو الحكمة

(١) تفسير الرازي (٥٩/٤).

QaradawiBooks.com

العمليَّة. وقال في جميع الأنبياء: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [النحل: ٢]؛ وهو الحكمة النظريَّة، ثم قال: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢]؛ وهو الحكمة العمليَّة»[1].

وقال تعالى في بيان فضل الحكمة وأهميتها: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وإذا كان الله تعالى قد اعتبر الدنيا كلها «متاعًا قليلًا»، فما تكون قيمة هذا الخير الَّذي وصفه الله بأنَّه كثير، وهو من ثمرات الحكمة.

وذلك أنَّه بهذه الحكمة يُميِّز بين الإلهام الربَّانيِّ، والوسواس الشيطانيِّ، فقد جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

مهمة النبي ﷺ تعليم الكتاب والحكمة:

وقد جعل القرآن من شُعب مهمَّة النبي ﷺ في الأُمة: «تعليم الكتاب والحكمة»، وذلك في أربع آيات من كتاب الله تعالى:

أُولاها: كانت في دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وهما يَبْنيان البيتَ العتيق. فكان منه: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

والثاني: في نفس السورة في معرض الامتنان برسالة الرسول الكريم حيث قال: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

---

(١) تفسير الرازي (٧/٥٨).

QaradawiBooks.com

والثالثة: في سورة آل عمران في معرض الامتنان على المؤمنين بالبعثة المحمدية: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

والرابعة: في سورة الجمعة في مقام الامتنان على الأُميِّين من العرب ببعثة الرسول إليهم: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

وقد اختلف مفسِّرو السَّلَف في معنى الحكمة في هذه الآيات.

فروى ابن جرير عن ابن وهْب قال: قلت لمالك: ما الحكمة؟ قال: المعرفة بالدين، والفقه في الدين، والاتِّباع له.

وروى ابن جرير عن قتادة: أنَّ الحكمة هي السُّنَّة.

ويبدو أنَّ ذلك باعتبار السُّنَّة بيان القرآن النظري، وتطبيقه العملي.

وروي عن ابن وهْب أيضًا قال: قال ابن زيْد في قوله: ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: الحكمة: الدين الَّذي لا يعرفونه إلَّا به ﷺ، يعلِّمهم إيَّاها. قال: والحكمة: العقل في الدين. وقرأ: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]، وقال عن عيسى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٨]. قال: وقرأ ابن زيد: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥]، قال: لم ينتفع بالآيات، حيث لم تكن معها حكمة، والحكمة شيء يجعله الله في القلب، ينور له به[1].

وقال الرازي: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾: أي يعلمهم ما فيه من الأحكام.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٣/٨٦، ٨٧)، تحقيق محمود وأحمد محمد شاكر، نشر دار المعارف، القاهرة.

QaradawiBooks.com

﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾: أراد بها أنَّه يعلِّمهم حكمة تلك الشـرائع، وما فيها من وجوه المصالح والمنافع[(١)].

غير مرخصة للطباعة

الحكمة في «تفسير المنار»:

وقال في تفسـير المنار في معنـى: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [البقرة: ١٥١]: أي الكتاب الإلٰهيّ، أو الكتابة الَّتي يخرجون بها من ظلمة الأُميَّة والجهل إلى نور العلم والحضارة، ويجوز الجمع بين المعنيين، على القول الصحيح باستعمال المشترك في معنييه، أو فيما يقتضيه المقام من معانيه.

وأمَّا الحكمة فهي العلم المقترن بأسرار الأحكام، ومنافعها، الباعث على العمل بها.

قال: وفسَّرها بعضهم بالسُّنَّة، وهو غلط، فإنَّها (أي: الحكمة) أُطلقت على بعـض نصوص الكتـاب كالعقائد والفضائل والأحـكام الإيجابيَّة والسلبيَّة، بدليل قوله تعالى بعد الوصايا المقرونة بعلل الأمر والنهي من سورة الإسـراء: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِ﴾ [الإسراء: ٣٩]، وفي سورة لقمان أنَّ الله آتاه الحكمة، وذكر منها وصاياه لابنه المُعلَّلة بأسباب النهي، فحكمة القرآن أعلى الحكم، وتليها حكمة الرسول ﷺ.

وفي الحديث: «**لا حَسدَ إلَّا في اثنتين: رجلٍ آتاه الله مالًا فَسلَّطه على هلكته في الحق، ورجلٍ آتاه الله الحكمة، فهـو يقضي بها ويُعلِّمها**»[(٢)]، وفي بعض رواياته: «**فهو يعمل بها ويُعلِّمها للناس**»[(٣)].

---

(١) تفسير الرازي (٥٩/٤).

(٢) متفـق عليه: رواه البخـاري في العلم (٧٣)، ومسـلم في صلاة المسـافرين (٨١٦)، عن عبد الله بن مسعود.

(٣) رواه الطبراني في الأوسط (١٧١٢). انظر: تفسير المنار (٢٤/٢).

نسخة تجريبية

QaradawiBooks.com

المراد بـ «الكتاب والحكمة»:

ولا بدَّ من تفسير ﴿ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ تفسيرًا يصلح المعنى فيه لكلِّ المواقع الَّتي وردت الكلمتان فيها.

فقد وصف الله بإيتائهما آل إبراهيم: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ٥٤]، ولا يمكن أن يكون المراد هنا: السُّنَّة، إذ المقصود بالسُّنَّة: سنَّة محمد ﷺ.

وقال تعالى في مقام تبشير مريم بابنها عيسى عليه السلام: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٨].

وفي مقام امتنانه على عيسى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: ١١٠].

ولا يمكن أن تُفسَّر الحكمة هنا أيضًا بالسُّنَّة.

كما لا يمكن بالتوراة أو الإنجيل، لأنَّهما مذكوران في نفس النصِّ.

فالمراد بالكتاب إذن: إما مصدر «كتب» أي: الكتابة بالخط، وهو الَّذي يخرج الإنسان من الأميَّة، ولهذا لم يمنَّ بذلك على محمد ﷺ، ولكن على أمَّته: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ١٢٩]، لأنَّ الأميَّة فيه دلالة على الإعجاز الإلٰهي: أن يصدر من هذا الأمي أعظم كتاب عرفه الوجود، في مضمونه وفي نظمه وفي بيانه: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

أو المراد بـ «الكتاب»: جنس الكتب الإلٰهيَّة.. ثم عطف عليه التوراة والإنجيل من باب عطف الخاصِّ على العامِّ، لأهميتهما وخصوصيتهما.

QaradawiBooks.com

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: ٨١]... الآية.

فكلمة «كتاب» هنا لا تعني كتابًا معينًا، وإنَّما جنس ما أنزل الله من كتب السماء.

والحكمة في هذه المواضيع كلها يراد بها: حُسن الفهم للكتب والتفقه في أحكامها، بحيث يعرف مقاصدها وأسرارها، ولا يقف عند ظواهرها، ويعرف ما وراء أحكامها وتوجيهاتها من المنافع والمصالح الجامعة لخيرَي الدنيا والآخرة، وسعادة الفرد والمجتمع، في ماديَّاتهما ومعنوياتهما، بحيث يدفع هذا الفقه المنشود إلى حُسن العمل بها، ووضعها في موضعها الملائم.

وهذه الحكمة هِبَة أو نعمة من الله يؤْتيها لمن يشاء من عباده، كما قال تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وقد يعبر عن هذا الإيتاء الإلٰهيِّ بالإنزال، كما في قوله تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣]. فليس المقصود بالإنزال هنا: أنَّ الله أنزل بها جبريل عليه السلام كالقرآن. بل ألهم الله بها رسولَه، ومنَّ عليه بها.

وقال في تفسير المنار: «الحكمة: العلم الصحيح الَّذي يبعث الإرادة: إلى العمل النافع، ويقف بالعامل على الصِّراط المستقيم، لما فيه من البصيرة وفقه الأحكام، وأسرار المسائل»(١).

(١) تفسير المنار (٣/٢٥٥).

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ قال في «المنار» أيضًا: «فسَّر الأستاذ الإمام «الحكمة» ـ هنا ـ بالعلم الصحيح، يكون صفة محكمة في النفس، حاكمة على الإرادة، تُوجِّهها إلى العمل. ومتى كان العمل صادرًا عن العلم الصحيح، كان هو العمل الصالح النافع المؤدِّي إلى السعادة.

وكم من محصِّل لصور كثير من المعلومات، خازن لها في دماغه، ليعرضها في أوقات معلومة، لا تفيده هذه الصور الَّتي تسمَّى علمًا، في التمييز بين الحقائق والأوهام، ولا في التزييل بين الوسوسة والإلهام؛ لأنَّها لم تتمكَّن من النفس تمكُّنًا يجعل لها سلطانًا على الإرادة، وإنَّما هي تصوُّرات وخيالات تغيب عند العمل، وتحضر عند المراء والجدل، قال الأستاذ الإمام ما معناه: والمراد بإيتائه الحكمة منْ يشاء: إعطاؤه آلتها ـ العقل ـ كاملة مع توفيقه لحُسن استعمال هذه الآلة في تحصيل العلوم الصحيحة. فالعقل هو الميزان القسط الَّذي تُوزن به الخواطر والمدْرَكات، ويميَّز به بين أنواع التصورات والتصديقات، فمتى رجحت فيه كفة الحقائق طاشت كفة الأوهام، وسهل التمييز بين الوسوسة والإلهام».

قال السيد رشيد رضا: «وهذا القول يتَّفق مع ما روي عن ابن عبَّاس من أنَّ الحكمة هي الفقه في القرآن[1]. أي: معرفة ما فيه من الهدى والأحكام بعللها وحِكَمها؛ لأنَّ هذا الفقه هو أجلُّ الحقائق المؤثِّرة في النفس، الماحية لما يعرض لها من الوساوس، حتَّى لا تكون مانعة من العمل الصالح.

(١) رواه ابن جرير في التفسير (٦١٨٢).

QaradawiBooks.com

ولكنَّ الفقه في القرآن، لا يكون إلَّا بكمال العقل، وحسن استعماله في الفهم، والبحث عن فوائد الأحكام وعللها ودلائل المسائل وبراهينها.

فالحبر (يعني ابن عباس) فسَّر الحكمة بالأخص، رعايةً للمقام، والأستاذ الإمام فسَّرها بالأعم، بيانًا لشمول هداية القرآن. فالآية بإطلاقها رافعةٌ لشأن الحكمة بأوسع معانيها، هادية إلى استعمال العقل في أشرف ما خلق له.

ومَن رُزئ بالتقليد كان محرومًا من ثمرة العقل وهي الحكمة، ومحرومًا من الخير الكثير الَّذي أوجبه الله لصاحب الحكمة بقوله: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]، فيكون كالكرة تتقاذفه وَسْوَسة شياطين الجن وجهالة شياطين الإنس، يتوهَّم أنَّه قد يستغني بعقول النَّاس عن عقله، وبفقه النَّاس عن فقه القرآن»(١).

الدعوة بالحكمة:

وقد أمر الله تعالى بالدعوة إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة، فقال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥].

وأظهر ما تكون الحكمة في مخاطبة العقول لتقتنع وتستنير، وأظهر ما تكون الموعظة في مخاطبة القلوب لتتأثر وتتحرَّك، والداعية الموفَّق هو الَّذي يخاطب العقل والقلب معًا، وهذا هو نهج القرآن، ونهج الرسول عليه الصلاة والسلام.

(١) تفسير المنار (٣/٦٣، ٦٤).

QaradawiBooks.com

والأنبياء والرسل جميعًا كانوا دعاةً إلى الله بالحكمة، لا بالحماقة، وبالموعظة الحسنة، لا بالكلمة الخشنة، ومن ثَمَّ وصفهم الله بأنَّهم آتاهم الحكمة في كثير من آيات كتابه.

كما قال عن آل إبراهيم: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ٥٤].

وقال عن داود: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠].

وقال عن عيسى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ [الزخرف: ٦٣].

وقد يعبِّر القرآن عن «الحكمة» بـ «الحُكْم» فكلمة الحكم تعني: الفصل والقضاء، كما تعني: الحكمة أيضًا.

ولقد لاحظنا أنَّ القرآن الكريم تحدَّث عن عدد من الرسل بأنَّ الله آتاهم حكمًا وعلمًا.

قال ذلك عن لوط ويوسف وموسى وداود وسليمان:

وقد يفرد الحكم وحده كما قال عن إبراهيم أنَّه دعا ربَّه فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [الشعراء: ٨٣].

وقال عن موسى: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ٢١].

وقال عن يحيى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢].

وقال عن ثمانية عشر رسولًا ذكرهم في سورة الأنعام: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

* * *

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الفصل الرابع

التعلم والتعليم في القرآن

- حثّ القرآن على التعلم
- سؤال أهل الذكر والخبرة.
- الرحلة في طلب العلم.
- ممَّن نتعلم، وكيف نتأدب مع المعلم؟
- وسائل تحصيل العلم.
- التعليم والبيان بعد التعلم.
- ألَّا يستحي من قول: «لا أعلم».

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

حثّ القرآن على التعلم

القرآن يأمر بالتعلم عن طريق القراءة:

أمر القرآن الكريم بالتعلم، منذ أول آيات أنزلها الله من وحيه على رسوله ﷺ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

أمرت الآيات الكريمة بالقراءة مرَّتين، والأمر لرسول الله بالأصالة، ولكلِّ من يتأتَّى خطابه بالتبع. والقراءة هي وسيلة التعلم، ومفتاح العلم، سواء فسَّرنا القراءة بالمعنى الحقيقي، وهي القراءة للكتاب المسطور، أم فسَّرناها بالمعنى المجازي، وهي القراءة لكتاب الكون المشهود. على نحو ما قال الشاعر:

تأمَّل سطورَ الكائنات، فإنَّها ... من الملأ الأعلى إليك رسائلُ
وقد خُطَّ فيها لو تأمَّلت سطرها: ... ألا كلُّ شيء ما خلا اللهَ باطلُ[1]!

ولعل ذكر «القلم» في السياق، يرجِّح التفسير الحقيقي للقراءة، فهو أداة التعلم.

(١) ذكرهما من غير نسبة ابن القيم في بدائع الفوائد (١٥٩٣/٤)، تحقيق علي بن محمّد العمران، نشر دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط١، ١٤٢٥هـ.

QaradawiBooks.com

ومن أوائل ما نزل من القرآن: ســورة «القلم»، وفيها يقسم الله بهذه الأداة الخطيرة، الَّتي تنقل العلم مــن فرد إلى فرد، ومن جيل إلى جيل، ومن أمَّة إلى أمَّة: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ [القلم: ١].

التعلم عن طريق التلقي والمشافهة:

ومن وسائل التعلُّم: تلقِّي العلم عن أهله عن طريق السماع والمشافهة والصحبة.

ومن هنا حرَّض القرآن على النفيــر لطلب العلم، والتفقُّه في الدين، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

استخدم القرآن هنا كلمة «النفير» في قوله: ﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ﴾، وهي الكلمة الَّتي تستخدم في الجهاد؛ ليوحي بأنَّ طلب العلم ضربٌ من الجهاد في سبيل الله.

وفي الحديث الَّذي رواه الترمذي: «**من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتَّى يرجع**»[(١)].

والمراد بنفير الطائفة المؤمنــة للتفقه في الدين: أن تتلقَّاه على أيدي العلمــاء الربَّانيين الثقات، الَّذيــن يعلمون ويعملــون ويُعلِّمون، بحيث يعيشــون في جوِّ العلم، وفي صحبة أهله، يأخذون عنهم مشافهة، وبلا واسطة، ويسألونهم فيما خفي عليهم، ويناقشــونهم فيما لم يقتنعوا به،

(١) رواه الترمذي في العلم (٢٦٤٧)، وقال: حسن غريب، ورواه بعضهم فلم يرفعه. وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٨٨): حسن لغيره. عن أنس بن مالك.

QaradawiBooks.com

ويستمعون إلى أسئلة زملائهم ومناقشاتهم، وإلى أجوبة شيوخهم وشروحهم، وتتكوَّن من خلال ذلك كله «ملكَة» العالم، وعقليَّة الباحث، الَّذي يعرف الحق بدليله، ويعرف الرجال بالحق، لا الحقَّ بالرجال.

غير مرخصة للطباعة

ومن أجل ذلك كان السلف يروْن التعلم الحقيقي إنَّما يكون بصحبة العلماء، وملازمة مجالس العلم، ولا يكتفون بمجرَّد قراءة الكتب أو الصحف من غير أخذ عن شيخ يسدِّد الطالب إذا أخطأ، ويبيِّن له ما التبس عليه.

ولهذا كان من وصاياهم الشهيرة لمن يطلب العلم: لا تأخذ العلم من صُحُفي، ولا القرآن من مُصْحفي. ويقصدون بالصُّحفي: الَّذي يأخذ العلم من الصحف، لا من شيوخه وأربابه المتقنين له، العارفين بدقائقه، القادرين على كشف غوامضه، وفكِّ رموزه، وتفسير مصطلحاته. ويقصدون بالمصحفي: الَّذي تعلَّم القراءة من المصحف وحده، ولم يتلقَّه على أيدي القراء المجيدين، يقرؤه عليهم سورة سورة، بل آية آية، يصوِّبونه إذا أخطأ، ويقوِّمونه إذا اعوج، في نطق كلمة، أو مخْرج حرف، أو غنَّة أو مدَّة، أو إدغام أو إخفاء، أو إظهار أو إقلاب، أو غير ذلك ممَّا يعرفه قرَّاء القرآن.

وسنذكر بعد ذلك رحلة كليم الله موسى عليه السلام، لأخذ العلم مشافهة من عبد الله الَّذي آتاه رحمة من عنده، وعلَّمه من لدنه علمًا، والمعروف باسم الخضِر عليه السلام.

فضل الكلب المعلَّم على غيره:

ومن لطائف المعاني الَّتي أشار إليها القرآن: أنَّ التعلم يرفع من قدر المتعلم، ويُعلي من شأنه، إنسانًا كان أو حيوانًا، حتَّى رأينا الكلب المعلَّم ـ فيما ذكره القرآن ـ يؤْكل ما صاده، ويُعتبر طعامًا حلالًا، لأنَّه لم يصده

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

لنفسه، إنَّما صاده لصاحبه الَّذي علَّمه، وبتعبير القرآن: إنَّه لم يُمسك الصيد على نفسه، إنَّما أمسكه على صاحبه، وهذه هي ميزة الكلب المعلَّم على غيره.

يقول القرآن في ذلك: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤].

وإذا كان هذا شأن الكلب إذا تعلَّم شيئًا وأتقنه، ومثله الطائر، مثل الصقر، الَّذي يعلم الصيد، فيشترى بمئات الألوف، كما نسمع ذلك في منطقة الخليج العربي، فما بالكم بالإنسان إذا تعلَّم عملًا نافعًا، أو صنعةً يحتاج إليها الناس، كم يعلو قدره، وتغلو قيمته؟!

يقول الشاعر(١):

تعلَّم فليس المرء يولدُ عالمًا وليس أخو علم كمن هو جاهل!

طلب الزيادة في العلم:

ومن أدب التعلم كما يهدي إليه القرآن: ألَّا يقف المتعلم عند حدٍّ معيَّن من المعرفة، ثم يقول: حسبي هذا لا أزيد عليه. فإنَّ العلم بحر لا ساحل له، ولا قرار له، ومهما اغترف الإنسان منه فسيظل في حاجة إلى المزيد، ولا يمكن أن يصل إلى درجة «التشبُّع» المطلق. وفي هذا قال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]. ولم يَرِد في القرآن كلِّه أمر آخر للرسول الكريم بطلب الزيادة منه، غير العلم، وهذا دليل على فضيلة العلم ومزيته على ما سواه.

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٩٥/٦٨) من قول عمر بن عبد العزيز.

QaradawiBooks.com

ولأجل هذا جاء عن النبيِّ ﷺ: «**منهومان لا يشبعان: طالب علم، وطالب دنيا**»(١).

وكان سلف الأمة يطلبون الزيادةَ في العلم، ولا يتوقَّفون عن طلبه، وإن بلغوا من السنِّ ما بلغوا، أو ارتقوا إلى أعلى مراتب العلم في نظر النَّاس، بل هم كلَّما ارتقوا في درجات سُلَّم العلم، شعروا بأنَّهم لا زال ينقصهم الكثير، فازدادوا له طلبًا، وعليه حرصًا.

يقول الإمام الشافعي رضي الله عنه:

كلَّما أدَّبني الدهـ ـر أراني نقصَ عقلي!
أو أراني ازددتُ علمًا زادني علمًا بجَهْلي(٢)!

سئل أبو عمرو بن العلاء: حتَّى متى يحسُن المرء أن يتعلَّم؟ قال: ما دام تحسن به الحياة.

وقيل لعبد الله بن المبارك: إلى متى تطلب العلم؟ قال: حتَّى الممات إن شاء الله.

وقيل له ذلك مرَّة أخرى، فقال: لعلَّ الكلمة الَّتي تنفعني لم أكتبها بعد!

وسُئل سفيان بن عُيينة: من أحوج النَّاس إلى طلب العلم؟ قال: أعلمهم! لأنَّ الخطأ منه أقبح!

وقيل للمأمون: أيحسن بالشيخ أن يتعلَّم؟ فقال: إن كان الجهل يعيبه فالتعلم يحسن به!

(١) رواه الحاكم في العلم (٩١/١)، وقال: صحيح على شرطهما، ولم أجد له علة. ووافقه الذهبي، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٧٩٨)، عن أنس.
(٢) انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (١٦٧/٤)، تحقيق إحسان عباس، نشر دار صادر، بيروت.

QaradawiBooks.com

وقال ابن أبي غسان: لا تزال عالمًا ما كنت متعلِّمًا، فإذا استغنيت كنت جاهلًا!

وقال قتادة: لو كان أحد يكتفي من العلم بشيء، لاكتفى موسى عليه السلام، ولكن قال: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦][1].

* * *

(١) ذكر هذه الآثار كلها وغيرها الحافظ ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٤٠٤/١ ـ ٤١٨)، باب الحض على استدامة الطلب على اللأواء والنصب.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

سؤال أهل الذكر والخِبرة

ومن الأدبيات القرآنيَّة المهمة في مجال العلم: وجوب الرجوع إلى أهل الخبرة في كلِّ علم وفن، وسؤال أهل الذكر في كل موضوع، فهم الَّذين يستطيعون أن يحلُّوا العُقد، ويعالجوا العُضَل من المسائل، والعويص من القضايا.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣، والأنبياء: ٧].

ومثل ذلك قوله تعالى لرسوله: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]، فالخبير هو الَّذي يجيب بعلمٍ إذا سُئل، ويقول: لا أدري فيما يجهل.

ويقول تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤].

ويقول جلَّ شأنه: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

فلا يجوز أن نترك كلَّ الأمور فوْضى، يدخل فيها كلُّ منْ هبَّ ودبَّ، وخصوصًا ما يتعلق بالأمن والخوف، أو ما يتعلق بأمن الجماعة أو الأمن القومي، فهذا يجب أن يُردَّ إلى أهله، وذوي الشأن فيه، العارفين بدخائله، القادرين على استنباط الحكم المناسب بعقولهم الذكية.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وقد أدخل كثير من أئمة مفسِّري السلف والخلف: العلماء في أولي الأمر الَّذين أمر الله تعالى بطاعتهم، كما أمر بطاعته سبحانه وطاعة رسوله ﷺ، بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

فإذا كان هناك من فسَّر ﴿أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ بالأمراء، فهناك من فسَّرهم بالعلماء.

على أنَّ أولي الأمر لا تجب طاعتهم حقًّا إلَّا إذا كانوا هم علماء أو كانوا في طاعة العلماء، ولهذا قال مَن قال من رجال السلف: الملوك حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك. وهو ما عبَّر عنه الشاعر بقوله:

إنَّ الأكابر يَحْكُمُونَ على الوَرَى وعلى الأكابرِ يحكمُ العلماءُ[1]!

وستظل الأُمَّة بخير ما دام فيها من أهل الذكر والخبرة منْ إذا سُئل أجاب بالصواب، وإذا استفتي أفتى بعلم، وإذا استقْضي قضى بحق، وما دام النَّاس يتوجَّهون إلى هؤلاء يسألونهم في الملمَّات، ويستفتونهم في المشكلات.

أمَّا إذا اختفى هذا الصنف من الأمة، فهذا هو الخطر الماحق الَّذي يهدِّد كيانها المعنوي، حين تستفتي الأمة الجهال، فيفتونها بغير علم، فيُعسِّرون عليها اليسير، ويُصعِّبون عليها السَّهل، ويُحرِّمون عليها

(١) عزاه إلى فتح الدين سعيد بن يحيى بن عبد الخالق الخراساني الكاتب: الشيباني في مجمع الآداب (٤٩٨/٢)، تحقيق محمد الكاظم، نشر مؤسسة الطباعة والنشر، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، إيران، ط١، ١٤١٦هـ. وعزاه إلى ذي اللسانين النطنزي: الصفدي في الوافي بالوفيات (١٩٧/١٢)، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، نشر دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.

QaradawiBooks.com

الحلال، أو يُحلُّون لها الحرام، ويسقطون عنها الفرائض، أو يلزمونها بما لم يلزمها به الله، وهذا ما حذَّر منه رسول الله ﷺ حين قال: «**إنَّ الله لا يقبض العلمَ انتزاعًا ينتزعه من صدور النَّاس، ولكنْ يقبض العلم بقبض العلماء، حتَّى إذا لم يبقَ عالم، اتَّخذ الناسُ رؤوسًا جهَّالًا، فسُئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلُّوا وأضلُّوا**»[1].

إنَّ فتوى الجاهل قد تفسد في الأرض بعد إصلاحها، قد تقتل من يستحق الحياة، وقد تخرِّب ما يستحق العمران، وحسبنا مثلًا على ذلك فتوى أولئك الَّذين أفتوا - في زمن رسول الله ﷺ - الرجلَ الَّذي أصابته جنابة وبه جِراحة، أن يغتسل من جنابته برغم جراحته، فاشتدَّ عليه الجرح وتفاقم أثره حتَّى مات، فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ فقال: «**قتلوه قتلهم الله! هلَّا سألوا إذ لم يعلموا؟ إنَّما شفاء العِيِّ السؤال، إنَّما كان يكفيه أن يعصب على جرحه ويتَيَمَّم**»[2].

حُسن السؤال:

وإذا كان المسلم مطالبًا أن يسأل أهلَ الذكر والخبرة في كل علم وفنٍّ، فهو مطالب أيضًا أن يُحسن السؤال فيما يَسأل عنه، فيسأل عمَّا ينفعه في دينه أو دنياه، ولا يسأل فيما لا فائدة من ورائه، ويسأل في الوقت المناسب، وفي الحال المناسب، ولا يُكثر من الأسئلة فيما لا طائل تحته.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣)، كلاهما في العلم، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) رواه أبو داود في الطهارة (٣٣٦، ٣٣٧)، والدارقطني في الطهارة (٧٢٩) ونقل عن شيخه فيه أبي بكر ابن أبي داود قوله: هذه سنة تفرد بها أهل مكة، وحملها أهلُ الجزيرة، لم يروه عن عطاء عن جابر غيرُ الزُّبير بن خريق، وليس بالقوي. وخالفه الأوزاعي فرواه عن عطاء عن ابن عباس، وهو الصواب. وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٣٦٤)، دون قوله: «إنَّما كان يكفيه...».

QaradawiBooks.com

وقد ذكر القرآن لنا قصَّة بني إسرائيل، وكيف قال لهم نبيُّهم موسى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧]. وكان يمكنهم أن يذهبوا إلى أيِّ بقرة فيذبحوها، فتُجزئهم. ولكنَّهم غلبهم اللِّجاج فسألوا وسألوا وسألوا: ما هي؟ ما لونها؟ ثم ما هي مرَّة أخرى؟ وكل سؤال يوجب عليهم تكليفًا كانوا في سَعة منه، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۞ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ۞ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ۞ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ۞ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٦٧ ـ ٧١].

يقول الحافظ ابن كثير في تفسيره: «أخبر تعالى عن تعنُّت بني إسرائيل، وكثرة سؤالهم لرسولهم، ولهذا لمَّا ضيَّقوا على أنفسهم ضيَّق الله عليهم، ولو أنَّهم ذبحوا أي بقرة كانت لوقعت الموقع عنهم، كما قال ابن عبَّاس وعُبيدة وغير واحد: شدَّدوا فشُدِّد عليهم»(١).

وقد ذكر القرآن أنواعًا من الأسئلة بعضها عن المشركين، مثل السؤال عن الساعة: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ [الأحزاب: ٦٣]، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقد تكرَّر في القرآن، وهو سؤال لا ثمرة له، لذا كان جوابه: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾. ومثل السؤال عن الجبال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ [طه: ١٠٥].

(١) تفسير ابن كثير (١/١٩٤)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ.

QaradawiBooks.com

وبعضها من اليهود، أو عن طريق دلالتهم لقريش، مثل السؤال عن الروح، وعن ذي القرنين.

أمَّا معظم الأسئلة فهي من المؤمنين، أي من الصحابة ﷺ، ويُلاحظ أنَّها أسئلة قليلة محدودة، وأنَّها كلها أسئلة عملية متَّصلة بحياة الناس، ممتزجة بواقعهم، مثل سؤالهم عن الأهلة، وسؤالهم: ماذا ينفقون؟ وقد جاء هذا السؤال مرتين في سورة البقرة، ودلَّ الجواب أنَّ المراد في إحدى الآيتين هو مقدار الإنفاق، ودلَّ الآخر أنَّ المراد به: فيمَ يكون الإنفاق؟

ومثل السؤال عن الخمر والميسر، والسؤال عن اليتامى، والسؤال عن المحيض، والسؤال عن القتال في الشهر الحرام، وسؤالهم: ماذا أُحِلَّ لهم؟ وسؤالهم عن الأنفال، واستفتائهم في النساء، وفي الكَلالة، فكلها أحد عشر سؤالًا، تسعة منها بصيغة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾، واثنان بصيغة: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾.

قال ابن عباس: «ما رأيتُ قومًا خيرًا من أصحاب محمد ﷺ، ما سألوه إلَّا عن ثلاث عشرة مسألة، كلهنَّ في القرآن، ما كانوا يسألون إلَّا عمَّا ينفعهم»(١).

والذي يبدو لي أنَّ أسئلة الصحابة: أحد عشر، وليست ثلاثة عشر؛ سبعة منها في البقرة، وواحدة في المائدة، وأخرى في أول الأنفال. كلها بصيغة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾، واثنتان في النساء بصيغة: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾، وقد يضاف إليها قوله تعالى في البقرة: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦].

(١) رواه الدارمي في المقدمة (١٢٧).

QaradawiBooks.com

ولا أدري وجهًا جعلها ثلاثة عشر من ابن عباس، فلعله رضي الله عنه اعتبر من أسئلتهم أحد الأسئلة الأخرى الَّتي اعتبرناها من المشركين أو من اليهود أو بتوجيههم، مثل السؤال عن الروح أو عن ذي القرنين.

والمهم في قول ابن عبَّاس ثناؤه على الصحابة بقلة أسئلتهم من ناحية، وسؤالهم عما ينفعهم من ناحية أخرى، فلم يشغلوا أنفسهم بالمسائل التافهة، والتعمُّقات الَّتي لا طائل من ورائها، والسؤال عمَّا يُوجب العنت والحرَج في الدين.

وهذا إنَّما هو باعتبار الغالب على الصحابة، ولا ينافي هذا سؤال بعضهم: من أبي؟[1]، وأين أبي[2]؟ وما روي في التفسير أنَّهم سألوا عن الهلال: ما باله يبدو رقيقًا كالخيط، ثم لا يزال ينمو حتَّى يصيرَ بدرًا، ثم لا يزال ينقص إلى أن يعود كما كان؟ فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩][3].

فالملاحظ أنَّه أجابهم هنا بمنافع الأهلَّة في الدين والدنيا، ولم يجبهم عن سؤالهم، لأنَّ تعريفهم بحقيقة ما يرونه من تغيُّر في صورة الهلال يحتاج إلى علوم ومعارف لم يتأهَّلوا لها بعد، فعدل عن الإجابة عن

(١) إشارة إلى الحديث المتفق عليه، عن أبي موسى، قال: سئل النبي ﷺ عن أشياء كرهها، فلما أكثر عليه غضب، ثم قال للناس: «**سلوني عما شئتم**» قال رجل: من أبي؟ قال: «**أبوك حذافة**». رواه البخاري في العلم (٩٢)، ومسلم في الفضائل (٢٣٦٠).

(٢) إشارة إلى الحديث، عن أنس، أن رجلًا قال: يا رسول الله، أين أبي؟ قال: «**في النار**». فلما قفَّى دعاه، فقال: «**إن أبي وأباك في النار**». رواه مسلم في الإيمان (٢٠٣).

(٣) تفسير القرطبي (٣٤١/٢)، نشر دار الكتب المصرية، القاهرة، ط ٢، ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م.

QaradawiBooks.com

حقيقة سـؤالهم إلى الإجابة عن الفائدة من الأهلة، وأنَّها مواقيت للناس في عباداتهم ومعاملاتهم، وخصوصًا الحج.

ثم نبَّههم على فعل لا معنى له كانوا يرتكبونه في الجاهلية، إذا قدِم الرجل من الحج: أن يدخل بيته من ظهره لا من بابه، وبيَّن لهم أنَّ هذا ليس من البر في قليل ولا كثير، وإنَّما البر هو بر أهل التقوى.

وهناك تفسـير يتَّجه بهذه الفِقْرة من الآية اتِّجاهًا آخر لعله أقرب، وهو أنَّهم في سؤالهم عن تغيُّر الهلال، عكسوا في سؤالهم، فسألوا عمَّا لا يعنيهم ولا يفيدهم، فهم بمثابة مـن يأتي البيوت من ظهورهـا، وكان الأوْلى أن يأتوها من أبوابها، فيسألوا عما يعنيهم وينفعهم في أمر دينهم ودنياهم(١).

❊ ❊ ❊

(١) انظر: نظم الدرر للبقاعي (٣/١٠١، ١٠٢).

QaradawiBooks.com

الرحلة في طلب العلم

من أدبيـات العلم في القرآن: أنَّ العلم ينبغـي أن يُطلب من مظانِّه، ويُؤْخذ من منابعه الصافية، ويُرحل إليه، ليُستَقى من أهله، وإن بعدت الشقَّة، وأرهقت الرحلة، فكلُّ تعب في سبيل العلم يهون، وكلُّ مسافة ـ وإن طالت ـ فهي قصيرة.

قصَّ علينا القرآن قصَّـة طالب علم صمَّم علـى أن يجتاز الفيافي، ويقطع المسافات حتَّى يدركه النَّصَب، من أجل لقاء رجل عرف أنَّ لديه علمًا ليس عنده.

هذا الطالب هـو نبيُّ الله موسـى بن عمران، أحد أولـي العزم من الرسل، الَّذي اصطفاه الله برسـالاته، وكلَّمه تكليمًا، وأنزل عليه التوراة، فيها موعظة وتفصيل لكلِّ شيء.

ولكنَّ الله تعالـى أعلمه أنَّ هناك عبـدًا من عباده، عنـده من العلم ما ليس عند موسى، فلم يهنأ له بال، ولم يسـتقر له جَنْب، حتَّى يصل إليه ويلقـاه ويصحبه ويتعلم منـه. وذلك هو عبد الله المعروف باسـم «الخضر» عليه السلام، الَّذي ذكر الله قصَّة موسـى معه في سورة الكهف، وأنَّه يمكن أن يلقاه في مجمع البحرين، وعرَّفه علامةً تدلُّ على مكانه.

QaradawiBooks.com

يقصُّ علينا القرآن قصَّة رحلة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الشاقَّة المجْهدة، مع فتاه وصاحبه يوشع بن نون، كما ذكرته الروايات، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ۝ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ۝ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ۝ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ۝ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ۝ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ۝ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٠ ـ ٦٦].

و«مجمع البحرين» اختلف المفسرون فيه اختلافًا كثيرًا.

فذهب الإمام برهان الدين البقاعي في تفسيره «نظم الدرر» إلى ترجيح أنَّه ملتقى النيل بالبحر الأبيض المتوسط عند مدينة دمياط أو مدينة رشيد، واستدلَّ لذلك بما جاء في القصة ـ في رواية البخاري ـ **أن عصفورًا نقر نقرة في الماء**...[1].

والظاهر: أنَّ العصفور نقر في الماء ليشرب منه، فهذا دليل على أنَّه ماء عذْب، وهو ماء نهر النيل.

ولكن يعكر على هذا القول: أنَّ موسى كان قد خرج من مصر، واتجه إلى سيناء، فيبعد أن يعود إلى مصر مرَّة أخرى، وخصوصًا بعد أن

(١) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (١٢٢)، ومسلم في الفضائل (٢٣٨٠)، عن أبي بن كعب بلفظ: «**فجاء عصفور، فوقع على حرف السفينة، فنقر نقرة أو نقرتين في البحر**».

QaradawiBooks.com

حكم الله على قومه بالتيه أربعين سنة في هذه الأرض، وقد تُوُفِّي بها موسى عليه السلام.

وقال بعض مفسِّري السلف: المراد بمجمع البحرين: ملتقى بحر فارس ممَّا يلي المشرق، وبحر الروم ممَّا يلي الغرب، ولعل المراد: مكان يقرب فيه التقاؤهما، وهما لا يلتقيان إلَّا في البحر المحيط، وهما شعبتان منه، كما في «روح المعاني»[1].

وقيل: ملتقى البحر الأبيض المتوسط والمحيط (الأطلسي) عند طنجة بالمغرب، وهذا لا يمكن الوصول إليه إلَّا بعد شهور بل سنين.

وقال صاحب «الظلال» رحمه الله: «الأرجح ـ والله أعلم ـ أنَّه مجمع البحرين: بحر الروم وبحر القلزم، أي البحر الأبيض والبحر الأحمر، ومجمعها: مكان التقائهما في منطقة البحيرات المرَّة وبحيرة التمساح.

أو أنَّه مجْمع خليجَيِ العقبة والسويس في البحر الأحمر (وهذا قريب معقول لمن يكون في سيناء)، فهذه المنطقة كانت مسرح تاريخ بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر. وعلى أيٍّ، فقد تركها القرآن مجملة، فنكتفي بهذه الإشارة»[2].

والظاهر من سياق القصة: أنَّ موسى وفتاه قطعا هذه المسافة الطويلة مشيًا على أقدامهما، إذ لم يُشر السياق إلى مطيَّة أو أكثر معهما من بعير أو حمار.

---

(١) روح المعاني للآلوسي (٢٩٤/٨)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

(٢) في ظلال القرآن (٢٢٧٨/٤).

QaradawiBooks.com

وكان منشأ عزيمة موسى عليه السلام على هذه الرحلة المضْنية: ما رواه الشيخان من حديث ابن عبَّاس عن أبي بن كعب: أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ موسى عليه السلام قام خطيبًا في بني إسرائيل، فسئل: أي النَّاس أعلم؟ فقال: أنا! فعتب الله عليه؛ إذ لم يرُدَّ العلم إليه سبحانه، فأوحى الله تعالى إليه: أنَّ عبدًا بمجمع البحرين هو أعلم منك...**» الحديث[1].

وفي رواية أخرى عن أبيٍّ أيضًا: أنَّ موسى سأل ربَّه فقال: أي رب، إن كان في عبادك أحد هو أعلم منِّي، فدلَّني عليه، فقال له: نعم، في عبادي من هو أعلم منك. ثم نعت له مكانه، وأذن له في لُقيِّه.

وهذه القصة ـ كما ذكرها القرآن ـ لا تُعرف عند اليهود، ولم تُذكر في كتابهم، ولهذا ينكرونها، ويروْن أنَّه لا ينبغي أن يتعلم نبي من غير نبيٍّ، وحتى مع التسليم بأنَّ هذا العبد الصالح ـ الخضر ـ نبيٌّ يُوحى إليه، لا تسمح أنفسهم بالقول بتعلم نبيِّهم الأفضل درجة، والأرفع مقامًا، ممَّن هو دونه في الفضل والمنزلة.

وأجاب علماء تفسير القرآن بأنَّ هذا الموقف من أحبار اليهود، لا يساعده العقل ولا النقل، وليس هو إلَّا كالحمِيَّة الجاهليَّة، إذ لا يبعد عقلًا تعلم الأفضل الأعلم شيئًا ليس عنده ممَّن هو دونه في الفضل والعلم، ومن الأمثال المشهورة: قد يوجد في الأسقاط ما لا يوجد في الأسفاط.

وقالوا: قد يوجد في المفضول ما لا يوجد في الفاضل.

وقال بعضهم: لا مانع من أن يكون الله تعالى قد أخفى علم المسائل الَّتي تضمَّنتها القصة عن موسى عليه السلام ـ على مزيد علمه وفضله ـ لحكمة

(١) متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٠١)، ومسلم في الفضائل (٢٣٨٠).

QaradawiBooks.com

يعلمها، ولا يقدح ذلك في كونه أفضل وأعلم من الخَضِر عليه السلام **فيما عدا الأمور**(١).

وفي حديث الصحيحين في القصة: أنَّ الخضر عليه السلام قال لموسى صلوات الله عليه: «**يا موسى؛ إنِّي على علم من علم الله علَّمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم علَّمكه لا أعلمه**»(٢).

وإنَّما ينمو العلم ويثمر ويزدهر إذا ضمَّ العالم علم الآخرين إلى علمه، ولم يكتف بما عنده، أو يُحقِّر ما عند غيره، أو يستنكف أن يتعلم منه ويأخذ عنه، وإن كان هو دونه. فالحكمة ضالَّة المؤمن أنَّى وجدها فهو أحقُّ بها. حتَّى إنَّه ليأخذ الحكمة من الكافر، وحتى إنَّه ليتعلَّم من الحيوان والطير كالهدهد والغراب.

وممَّا له دلالة هنا: أنَّ القرآن عبَّر عن الخروج في طلب العلم والتفقه في الدين بكلمة «النفير»، وهي الكلمة المستخدمة في الخروج للجهاد في سبيل الله.

يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]. فهذا ـ كما قال حمَّاد بن زيد ـ في كل من رحل في طلب العلم والفقه، ورجع به إلى من وراءه، فعلَّمه إيَّاه(٣).

---

(١) انظر: تفسير روح المعاني للألوسي (٢٩٤/٨).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٧٢٧)، ومسلم في الفضائل (٢٣٨٠)، عن ابن عباس.

(٣) رواه الخطيب في الرحلة في طلب الحديث صـ ٨٧، تحقيق نور الدين عتر، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٣٩٥هـ.

QaradawiBooks.com

وعن عكرمة مولى ابن عبَّـاس في قوله تعالى: ﴿ٱلسَّـٰٓئِحُونَ﴾ قال: هم طلبة الحديث(١). ففسَّر السـياحة بمعنى الضرب في الأرض للعبادة والجهاد، ومنه طلب علم القرآن والحديث، والفقه في الدين.

غير مرخصة للطباعة

وأكَّدت السُّـنَّة النبويَّة هذا المعنى، فقد جاء في الحديث: «**من خرج في طلب العلم، فهو في سبيل الله حتَّى يرجع**»(٢).

ولم يعرف التاريخ أمَّة من الأمم رحلت في سـبيل العلم، وضربت في ذلك أروع الأمثال، وخلدت في ذلك وقائع تذكر فتشكر، مثل الأمة الإسلامية، ولا سيما علماء الحديث.

وقد ألَّف العلَّامة الخطيـب البغدادي كتابًا خاصًّا سـماه «الرحلة في طلب الحديث»، ذكر فيه فضل العلم، والرحلة في طلبه، ورحلات الصحابة إلى النبي ﷺ للأخذ عنه والتعلم منه، ورحلات الصحابة بعضهم إلى بعض للاستفادة والتلقي المباشر، ورحلات التابعين إلى الصحابة للأخذ والتعلم، ورحلات التابعين بعضهم إلى بعض، ورحلات الأئمة الحفَّاظ في العصور المختلفة وما قاسوا فيها من مشاقِّ السفر وصعوباته في تلك الأزمان.

ومن ذلك حديث جابر بن عبد الله قال: بلغني عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ حديث سـمعه من رسول الله لم أسـمعه منه قال: فابْتعت بعيرًا فشددت عليه رحلي، فسِـرْت إليه شهرًا حتَّى أتيت الشام، فإذا هو عبد الله بن أنيس الأنصاري. قال: فأرسلت إليه أنَّ جابرًا على الباب. قال: فرجع إلى الرسـول فقال: جابر بن عبد الله؟ فقلت: نعم. فرجع الرسول

(١) الرحلة في طلب الحديث صـ ٨٧، ٨٨.
(٢) سبق تخريجه صـ٢١٨.

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

إليه، فخرج إليَّ فاعتنقني واعتنقته. قال: قلت: حديث بلغني أنَّك سمعته من رسول الله ﷺ في المظالم لم أسمعه، فخشيت أن أموت أو تموت قبل أن أسمعه... وسمع منه الحديث(١).

وذكر الحافظ: أنَّ أبا داود روى من طريق عبد الله بن بريدة: أنَّ رجلًا من الصحابة رحل إلى فضالة بن عبيد ـ وهو بمصر ـ في حديث!

وروى الخطيب عن عبيد الله بن عدي قال: بلغني حديث عن علي، فخفت إن مات ألَّا أجده عند غيره، فرحلتُ حتَّى قدمت عليه العراق(٢)!

قال الحافظ: وتتبُّع ذلك يكثر.

وقال ابن مسعود: لو أعلم أحدًا أعلم بكتاب الله منِّي لرحلت إليه.

وقال سعيد بن المسيِّب: إن كنت لأرحل الأيام والليالي في طلب الحديث الواحد(٣).

وقال الشعبي بعد أن روى حديثًا لرجل: خذْها بغير شيء، وإن كان الرجل ليرحل فيما دونها إلى المدينة(٤).

وأخرج الخطيب عن أبي العالية قال: كنَّا نسمعُ عن أصحاب رسول الله ﷺ، فلا نرضى حتَّى أتيناهم فسمعنا منهم(٥).

---

(١) رواه أحمد (١٦٠٤٢)، وقال مخرِّجوه: إسناده حسن. والبخاري في الأدب المفرد (٩٧٠)، والحاكم في التفسير (٢/٤٣٧، ٤٣٨)، وصحَّح إسناده ووافقه الذهبي، والخطيب في الرحلة في طلب الحديث (٣١)، وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٥٧٠).

(٢) رواه الخطيب في الرحلة في طلب الحديث صـ ١٢٩.

(٣) المصدر السابق صـ ١٢٨.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (٩٧)، ومسلم في الإيمان (١٥٤).

(٥) رواه الخطيب في الرحلة في طلب الحديث صـ ٩٣.

QaradawiBooks.com

وقيل لأحمد بن حنبل: رجلٌ يطلب العلم يلزم رجلًا عنده علم كثير أو يرحل؟ قال: يرحل، يكتب عن علماء الأمصار، فيشافِه النَّاس ويتعلم منهم(١).

وقال الشَّعبي: لو أنَّ رجلًا سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن، ليسمع كلمة حكمة، ما رأيت أنَّ سفره ضاع(٢).

وقد اشتهر بين المسلمين هذا القول: «اطلبوا العلم ولو بالصين» حتَّى رفعه بعضهم حديثًا إلى النبي ﷺ. وما هو بحديث(٣)، إنَّما هو كلمة إسلامية مأثورة عن سلف الأمة، ومعناها صحيح بالإجماع. وإنَّما ذكروا «الصين» خاصَّة؛ لأنَّها كانت أبعد ديار الحضارة المعروفة عن جزيرة العرب، فهي أبعد من مصر، ومن فارس، ومن الروم، ومن الهند، ومن كل بلد يمكن أن يوجد فيه علم يطلب.

* * *

(١) انظر: فتح الباري (١٧٥/١)، نشر دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٣١٣/٤).

(٣) رواه البيهقي في المدخل إلى السنن (٣٢٤، ٣٢٥) ثم قال: هذا حديث متنه مشهور، وأسانيده ضعيفة، لا أعرف له إسنادًا يثبت بمثله. وقال الألباني في الضعيفة (٤١٦): باطل.

QaradawiBooks.com

ممَّن نتَعلَّم؟ وكيف نتأدب مع المعلم؟

ومن توجيهات القرآن في مجال العلم والتَّعلُّم: أنَّ الإنسان ينبغي أن يتعلَّم من كلِّ من لديه علم ينفعه في دينه أو دنياه، وإن كان أصغر منه سنًّا، أو أدْنى منه درجة، أو أقلَّ منه مالًا أو جاهًا.

وقد رأينا موسى وهو مَنْ هو منزلة بين رسل الله يتعلم من الخضر عليه السلام، وهو أدنى منه يقينًا، حتَّى إنَّهم اختلفوا: أهو نبيٌّ أم لا؟ وحتى لو رجَّحنا أنَّه نبيٌّ وهو الراجح فعلًا ولكنَّ الأنبياء ليسوا في درجة واحدة، كما هو معلوم.

بل رأينا إبراهيم الخليل عليه السلام يقول لأبيه في حواره الخصب له: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾ [مريم: ٤٣]، فدلَّ ذلك على أنَّ الجاهل يجب أن يتَّبع العالم، ليقتبس منه، ويأخذَ عنه، وإن كان العالم هو الابن، والمتعلم هو الأب.

بل رأينا موقف سليمان، حتَّى تفقَّد الطير، فلم يجد الهدهد، فقال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ۝ فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ۝ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾ [النمل: ٢١ ـ ٢٣].

QaradawiBooks.com

هنا نرى طائر الهدهد قد علَّم سليمان عليه السلام ما لم يكن يعلم من أمر سبأ وملكتهم، ولم يجد سليمان حرجًا أن يأخذَ هذه المعلومة المهمَّة من هذا الهدهد.

ولقد حكي عن بعض العلماء: أنَّه سُئل عن مسألة فقال: لا أعلمها، فقال أحد تلامذته: أنا أعلم هذه المسألة، فغضب الأستاذ وهمَّ به، فقال له التلميذ: أيها الأستاذ، لستَ أعلم من سليمان بن داود، ولو بلغتَ من العلم ما بلغت، ولستُ أنا أجهل من الهدهد، وقد قال لسليمان نبيِّ الله: أحطتُ بما لم تحط به، فلم يضق سليمان به ذرعًا، واستفاد من علمه، فطاب الأستاذ نفسًا، وسرَّ لكلام تلميذه.

وكما أنَّ الإنسان ممثلًا في سليمان تعلم من هدهد، فإنَّنا نجد في القرآن أيضًا أنَّ الإنسان من قديم الزمان تعلَّم من غراب!

ففي قصَّة ابني آدم الَّتي قصَّها الله علينا بالحق في سورة المائدة: ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۞ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٧، ٢٨]. ولكنَّ هذه الكلمات المضيئة المخلصة من ابن آدم الخيِّر الطيِّب لم تلامس قلب ابن آدم الخبيث الشرير، ولم تهز فيه وترًا: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۞ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٣٠، ٣١].

يبدو من السياق أنَّ الحادث كان في فجر تاريخ البشرية، حيث كان هذا أول قتيل، بل أول ميِّت، فما كان عندهم علم بأنَّ الموتى يُدفنون،

QaradawiBooks.com

ولهذا جَاء في الصحيح: «**لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إلَّا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمها، لأنَّه أول مَنْ سَنَّ القتل**»[(١)].

وهكذا تعلَّم الإنسان من الغراب مسألة على جانب كبير من الأهمية، وهي: كيف توارَى جثَّة الميِّت إذا مات؟ وهو أمر حار فيه الإنسان العاقل، حتَّى هداه الغراب إلى الحلِّ الفطري، وما كان أقربه وأروعه من حل؟

أدب المتعلم مع المعلم:

وممَّا ذكره القرآنُ الكريم في قصَّة موسى مع الخضر عليهما السلام، نعرف كيف يكون أدب المتعلم مع الأستاذ المعلم.

فمن المعلوم: أنَّ موسى هو أفضل من الخَضِر، وأعلى مقامًا، وهو الَّذي قال الله له: ﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]، وقال تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. فقوله: ﴿مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ يعني به موسى عليه السلام. كما قال في سورة أخرى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤]. ولهذا يُسمَّى موسى «كليم الله».

ومع هذا نجد كليمَ الله موسى حين رحل ليطلب العلم عند الخضر، ويتعلم منه ما لم يكن يعلم، كان في غايةِ الأدب معه، وغاية التواضع وخفض الجناح.

فهو يبدأ الحديث معه بهذا العرض المهذَّب، بصيغة السؤال والاستفهام:

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٣٥)، ومسلم في القسامة (١٦٧٧)، عن ابن مسعود.

QaradawiBooks.com

﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ [الكهف: ٦٦].

فانظر كيف لم يقل له: أريد أن أتَّبعك، حتَّى لا يفرض نفســه عليه، بل قال له بهذا التلطُّف: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ﴾؟ كأنَّه يقول له: أتأذن لي أو أتسمح لي أن أتبعك؟

وانظر إلى العبارة ودلالتها، إذ لم يقل: هل أرافقك؟ أو أصحبك؟ أو نحو ذلك العبارات، بل اختار عبارة موحية معبِّرة عما يريد، وهي: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ﴾؟ المسألة إذن: اتباع واضح، ليست ملازمة صاحب لصاحبه، ولا صديق لصديقه، أو ندٍّ لندِّه، بل هي ملازمة تابع لمتبوعه: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾؟ وهو اعترافٌ صريح بــأنَّ لدى المعلم من الرُّشد ما ليس لديه.

وبيَّن له الخضــر صعوبة الأمر حين قال لــه بصراحة: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ۝ وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا﴾ [الكهف: ٦٧، ٦٨]. فالمرء لا طاقة لــه على الصبر على أمرٍ لا يعرف ســرَّه، ولهــذا قيل: إذا عُرف السبب بطل العجب! فأما ما لا يعرف الإنسان سببه، ولا يُدرك علته ولا سره، فمن الصعب أن يصبر عليه، وهو ما ذكَّر به الخضر المعلم تلميذه موسى من أول الأمر، حتَّى يكون على بيِّنة من أمره.

ولكنَّ موسى كان حريصًا على أن يتعلم، مُصِرًّا على أن يستفيد، فلم يفتَّ كلام الخضر في عضده، ولم يُثْن لــه عزمًا، بل قال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾ [الكهف: ٦٩].

وهنا نجد أدبًا آخر من أدب التعلم، وهو الصبر، الَّذي يُســتعان فيه بالله تعالى، والطاعة لأمر المعلم. فيما أحبَّ وكرِه، فلا يعصي له أمرًا.

QaradawiBooks.com

وهنا شارطه الخضر عليه السلام مشارطة واضحة وحاسمة، فقد قيل: إنَّ ما أوله شرط آخره نور ووضوح، قال: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٧٠].

وسكتَ موسى سكوتَ المقرِّ بهذا الشرط، المُذْعن له، والمؤمنون عند شروطهم: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ۝ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ۝ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ۝ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ۝ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ۝ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ۝ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ۝ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۝ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ۝ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧١ ـ ٨٢].

يقول الفخر الرازي: «اعلم أنَّ هذه الآيات تدلُّ على أنَّ موسى راعى أنواعًا كثيرة من الأدب واللطف عندما أراد أن يتعلم من الخضر.

فأحدها: أنَّه جعل نفسه تبعًا له لأنَّه قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾.

QaradawiBooks.com

وثانيها: أنَّه استأذن في إثبات هذا التبعيَّة، فإنَّه قال: هل تأذن لي أن أجعل نفسي تبعًا لك، وهذا مبالغة عظيمة في التواضع.

وثالثها: أنَّه قال: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ وهذا إقرارٌ له على نفسه بالجهل وعلى أستاذه بالعلم.

ورابعها: أنَّه قال: ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ وصيغة «مِن» للتبعيض، فطلب منه تعليم بعضِ ما علَّمه الله، وهذا أيضًا مُشْعِر بالتواضع، كأنَّه يقول له: لا أطلب منك أن تجعلني مساويًا في العلم لك، بل أطلب منك أن تعطيَني جزءًا من أجزاء علمك، كما يطلب الفقير من الغنيِّ أن يدفع إليه جزءًا من أجزاء ماله.

وخامسها: أنَّ قوله: ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ اعترافٌ بأنَّ الله علَّمه ذلك العلم.

وسادسها: أنَّ قوله ﴿رُشْدًا﴾ طلبٌ منه للإرشاد والهداية، والإرشاد هو الأمر الَّذي لو لم يحصل لحصلت الغَواية والضلال.

وسابعها: أنَّ قوله: ﴿تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ معناه: أنَّه طلب منه أن يعامله بمثل ما عامله الله به، وفيه إشعار بأنَّه يكون إنعامك عليَّ عند هذا التعليم شبيهًا بإنعام الله تعالى عليك في هذا التعليم، ولهذا المعنى قيل: أنا عبدُ مَنْ تعلمت منه حرْفًا.

وثامنها: أنَّ المتابعة عبارة عن الإتيان بمثل فعل الغير لأجل كونه فعلًا لذلك الغير.

إذا ثبت هذا فتقول: قوله: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ يدلُّ على أنَّه يأتي بمثل أفعال ذلك الأستاذ لمجرَّد كون ذلك الأستاذ آتيًا بها. وهذا يدلُّ على أنَّ المتعلم يجب عليه في أول الأمر التسليم، وترك المنازعة والاعتراض.

QaradawiBooks.com

وتاسعها: أنَّ قوله: ﴿أَتَّبِعُكَ﴾ يدلُّ على طلب متابعته مطلقًا في جميع الأمور غير مقيَّد بشيء دون شيء.

وعاشرها: أنَّه ثبت بالأخبار أنَّ الخضر عرف أولًا أنَّه نبيُّ بني إسرائيل، وأنَّه هو موسى صاحب التوراة، وهو الرجل الَّذي كلَّمه الله عَزَّوَجَلَّ من غير واسطة، وخصَّه بالمعجزات القاهرة الباهرة، ثم إنَّه عَلَيْهِ السَّلَامُ مع هذه المناصب الرفيعة، والدرجات العالية الشريفة، أتى بهذه الأنواع الكثيرة من التواضع، وذلك يدلُّ على كونه عَلَيْهِ السَّلَامُ آتيًا في طلب العلم بأعظم أنواع المبالغة، وهذا هو اللائق به، لأنَّ كل من كانت إحاطته بالعلوم أكثر، كان علمه بما فيها من البهجة والسعادة أكثر، فكان طلبه لها أشدَّ، وكان تعظيمه لأرباب العلم أكمل وأشد.

والحادي عشر: أنَّه قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ فأثبت كونه تبعًا له أولًا، ثم طلب ثانيًا أن يعلمه، وهذا منه ابتداءً بالخدمة، ثم في المرتبة الثانية طلب منه التعليم.

والثاني عشر: أنَّه قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ فلم يطلب على تلك المتابعة على التعليم شيئًا، كأن قال: لا أطلب منك على هذه المتابعة المال والجاه، ولا غرض لي إلَّا طلب العلم[1].

* * *

(١) تفسير الفخر الرازي (٢١/٤٨٣، ٤٨٤).

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

وسائل تحصيل العلم

وإذا كان طلب العلم فريضة عينيَّـــة أو كفائيَّة، وكان الازدياد مطلوبًا طلب إيجاب، أو طلب استحباب، ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، فإنَّ لتحصيل العلم وسائل أساسية ثلاثًا، ذُكرت في أكثر من آية. وهي:

١ ـ السمع: وهو أساس العلم المنقول عن الوحي، أو عن السابقين.

٢ ـ والبصر: وهو أساس العلم المادي القائم على الملاحظة والتجربة.

٣ ـ والفؤاد: وهو أساس العلوم العقليَّة.

يقول تعالى في سورة النحل، وهي سورة النِّعَم: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

فالإنســـان يولد غُفْلًا من العلوم، وإنَّما العلم بالتعلم، والتعلم بأدواته الَّتي منحها الله له، وجعلها منافذه على العالم من حوله: السمع والأبصار والأفئدة، وقد اعتبر القرآن هذه الأدوات أو المنافذ في أكثر من سورة من نِعَم الله على الإنسان، الَّتي يجب أن تُقابل بالشكر، وإن قلَّ الشاكرون لها.

يقـــول تعالـــى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٨].

نسخة طباعية

وفي سورة أخرى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣].

غير مرخصة للطباعة

وفي وصايا الحِكمة في سورة الإسراء بيَّن سبحانه مسؤولية الإنسان عن هذه الأدوات المهمَّـة فيقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

ولقد ذمَّ القرآنُ أبلغَ الذمِّ الَّذين يُعطِّلون أدوات العلم بكفرهم وجحودهم بآيات الله ﷻ.

يقول تعالى فيمن أهلكهم من أهل الأحقاف: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّـٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

ويقول في مقام آخر في ذمِّ قوم اعتبرهم أضلَّ من الأنعام: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

هؤلاء الَّذين جعلهم القرآنُ حَطَبَ جهنم، قد خرَّبوا الأجهزة الَّتي أعطاهم الله إياها، وعطَّلوا منفعتها، فلم يستفيدوا بها، ولم يوظِّفوها فيما خُلقت له، فقد خُلق القلب ليعقل ويفقه، وخُلقت العين لترى وتبصر، وخُلقت الأذن لتسمع وتعي، ولكنَّ هؤلاء لم يفقهوا بقلوبهم، ولم يبصروا بأعينهم، ولم يسمعوا بآذانهم: آيات الله في خلقه، وسننه في كونه، وأحكامه في شرعه، فهم كالذين وصفهم في آيات أخر بقوله: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨]، ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]،

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

وفي موضع آخر: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢، ٢٣].

ولا عجب أن اعتبرهم القرآن كالأنعام الَّتي لا تعي ولا تعقل، بل هم أضل منها سبيلًا، وإنَّما كانوا أضل من الأنعام لأمرين:

الأول: أنَّ الأنعام لم تُؤْت ما أوتوا من المواهب والقدرات، والملَكات العقليَّة والروحيَّة، الَّتي رشحتهم للخلافة في الأرض، وأهَّلتهم لإنزال الكتب عليهم، وإرسال الرسل إليهم.

والثاني: أنَّ الأنعام قامت بمهمتها الَّتي خُلقت لها، فهي تؤدِّي مهمة الركوب والحمل، أو الدَّر والنسل، ولم تقصر في أدائها، ولا تمرَّدت عليها، هل رأيت بقرة تمرَّدت على أن تُحلب؟ أو حمارًا تمرَّد على أن يركب؟

يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ۝ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧١ ـ ٧٣].

ويلاحِظ من يقرأ القرآن: أنَّ القرآن حين يذكر هذه الأدوات الإدراكيَّة في الإنسان، يقدم السمع دائمًا على البصير. فما السرُّ في هذا؟

يبدو أنَّ السمع أسبق من البصر استعمالًا في حياة الإنسان، فالمولود منذ ولادته يسمع الأصوات ويفزع من الصوت القوي، ولكنَّه لا يرى إلَّا بعد أيام من ولادته، ولأنَّ السمع أهم في التعلم والتعليم، وأقوى رسوخًا في ذاكرة الطفل، ومن هنا عرفنا على مدار التاريخ نوابغ من المكفوفين، ولم نَرَ مثل ذلك في الصم، بل لم يعرف العالم تعليم الصُّمِّ إلَّا في

QaradawiBooks.com

عصرنا، وعندما ينام الإنســان يفقد الحسَّ البصري، قبل أن يفقد الحسَّ السمعي، وهذا دليل على قوَّة الحس السمعي وتفوقه، ولأنَّ بالسمع تُنال سعادة الدنيا والآخرة، فإنَّها إنَّما تتحقق بمتابعة الرسل، وقبول رسالاتهم، وبالســمع عرف ذلك، فإنَّ من لا ســمع له لا يعلم ما جــاؤوا به، ولذا تسمَّى علوم الشرع «العلوم السمعيَّة».

قال العلَّامة ابن القَيِّم: «وأيضًا فإنَّ السمع يدرك به أجل شيء وأفضله، وهو كلام الله تعالى الَّذي فضله على الكلام كفضل الله على خلقه.

وأيضًا فإنَّ العلوم إنَّما تُنال بالتفاهم والتخاطب، ولا يحصل ذلك إلَّا بالسمع.

وأيضًا فــإنَّ مدركه أعمُّ من مــدرك البصــر، فإنَّه يــدرك الكليَّات والجزئيَّات، والشــاهد والغائب، والموجود والمعدوم. والبصرُ لا يدرك إلَّا بعض المشاهَدات، والسمع يسمع كل علم، فأين أحدهما من الآخر؟ ولو فرضنا شــخصين أحدهما يسمع كلام الرســول ولا يرى شخصه، والآخر بصير يراه ولا يسمع كلامه لصممه، هل كانا سواء؟

وأيضًا ففاقد البصر إنَّما يفقد إدراك بعض الأمور الجزئيَّة المشاهدة، ويمكنه معرفتها بالصفــة ولو تقريبًا، وأمَّا فاقد الســمع، فالذي فاته من العلم لا يمكن حصوله بحاسَّة البصر ولو تقريبًا.

وأيضا فإنَّ ذمَّ الله تعالى للكفار بعدم السمع في القرآن أكثر من ذمِّه لهم بعدم البصر، بل إنَّما يذمُّهم بعدم البصر، تبعًا لعدم العقل والسمع.

وأيضا فإنَّ الَّذي يورده الســمع على القلب من العلوم لا يلحقه فيه كلال ولا ســآمة ولا تعب، مع كثرته وعظمه، والَّذي يورده البصر عليه

QaradawiBooks.com

يلحقه فيه الكلال والضعف والنقص، وربما خشي صاحبه على ذهابه ـ مع قلته ونزارته ـ بالنسبة إلى السمع»[١].

ويقدِّم لنا علماء الأجنَّة الآن تفسيرًا آخر، حيث يذكرون أنَّ الأذن الداخلية للجنين تنضج وتصبح قادرة على السمع في الشهر الخامس من حياة الجنين، على حين لا تفتح العين، ولا تتطور طبقتها الحسَّاسة إلَّا في الشهر السابع[٢].

وذكر بعضهم تعليلًا آخر، وهو: أنَّ مركز السمع يقع في الفصِّ الصدغي للمخ، في حين يقع مركز الإبصار في الفصِّ المؤخر في آخر المخ، أي أنَّ مراكز السمع تتقدم على مراكز الإبصار[٣].

وهذا بخلاف الأعضاء: العين والأذن، فحيث ذُكرا في القرآن تقدَّم العين، مثل: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، ﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٩٥]، وما ذلك إلَّا لأنَّ العين تتقدَّم على الأذن في صنعة الله الظاهرة.

وفي بحث العلَّامة ابن القَيِّم هنا في المقارنة بين السمع والبصر، واختلاف العلماء: أيهما أفضل؟ وبعد أن ذكر أدلَّة كلٍّ من الفريقين، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والصواب: أنَّ كلًّا منهما له خاصيَّة فُضِّل بها على الآخر، فالمدرك بالسمع أعم وأشمل، والمدرك بالبصر أتم وأكمل، فالسمع له العموم والشمول، والبصر له الظهور والتمام وكمال الإدراك»[٤].

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/١٠٥).

(٢) انظر: الإعجاز العلمي في آيات السمع والبصر في القرآن للدكتورين صادق الهلالي وحسن الليدي صـ ٢١، نشر هيئة الإعجاز العلمي، مكَّة المكرمة، ط ١، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

(٣) المصدر السابق صـ ٤٩.

(٤) المصدر السابق صـ ٤٩.

QaradawiBooks.com

التعليم والبيان بعد التعلُّم

وينبغي للإنسان بعد أن يتعلَّم أن يعلِّم غيره، فزكاة العلم تعليم الغير ممَّا علَّمه الله، حتَّى يكون ربَّانيًّا، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

وقد جاء عن غير واحد من علماء السلف: أنَّ الربَّاني هو الَّذي يعلَم ويعمل ويُعلِّم[١].

وعن المسيح عليه السلام: «من علم وعمل وعلَّم، فذاك يُدعى عظيمًا في ملكوت السماء»[٢].

وأصل التعليم والإعلام واحد، ولكن اختصَّ الإعلام بما كان بإخبار سريع، والتعليم اختص بما يكون بتكرير وتكثير، حتَّى يحصل منه أثر في نفس المتعلم، كما قال الإمام الراغب[٣]. قال بعضهم: التعليم تنبيه النفس لتصوُّر المعاني، والتعلم: تنبُّه النفس لتصور ذلك، وربما استعمل التعليم في معنى الإعلام إذا كان فيه تكرير، كما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ﴾ [الحجرات: ١٦].

(١) قوت القلوب لأبي طالب المكي (٢٤٦/١)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٩٣/٦)، عن ثور بن يزيد الحمصي قال: كان من كلام المسيح.

(٣) مفتاح دار السعادة (١٠٦/١).

QaradawiBooks.com

الله خير مُعلِّم:

وممَّا يدلُّ على فضل التعليم، وعظيم منزلته، أنَّه وصْفٌ من أوصاف الله تعالى، فهو الَّذي يعلِّم عباده ويسدِّدهم ويرشدهم، التعليم العام الَّذي يحتاج إليه الجميع، والتعليم الخاصّ الَّذي يمنحه من يشاء من خلقه.

فهذا التعليم العام من دلائل ربوبيَّته وكرمه، بل أكرميَّته سبحانه، كما قال تعالى في الآيات الأولى من الوحي القرآنيِّ: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٣ ـ ٥].

وهو كذلك من دلائـل رحمانيَّته: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمٰن: ١ ـ ٤].

وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، فالمراد هنا: تعليم الأحكام ومعرفة الحلال من الحرام.

وقال سبحانه: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٩].

ومن التعليم الخاصِّ: تعليمه لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ الأسماء كلَّها: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١].

وقد يعتبر هذا من التعليم العام، إذا اعتبرنا أنَّ المقصود ليس تعليم آدم لشـخصه، وإنَّما هو تعليم لجنس البشـر، الَّذين استخلفهم الله في الأرض، ورشَّحهم بالعلم لهذا المنصب. قال الراغب: «تعليمه الأسماء: هو أن جعل له قوَّة بها نَطَق، ووضع أسـماء الأشـياء، وذلك بإلقائه في رُوعه، وكتعليمه الحيوانات كل واحد منها فعلًا يتعاطاه»[1].

(١) المفردات في غريب القرآن مادة (ع. ل. م).

QaradawiBooks.com

ومن التعليم الخاص: ما علمه الله تعالى لنبيِّه يعقوب، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٦٨].

ومنه: ما علَّمه لنبيِّه يوسف الصِّدِّيق، وهو ما أنبأه به أبوه منذ الصبا: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ [يوسف: ٦].

والمراد به: تعبير الرُّؤى وتفسير الأحلام، كما فعل ذلك في السجن، وقال للسجينَيْن: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾ [يوسف: ٣٧]، وقد ناجى ربَّه في أواخر حياته بقوله: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ١٠١].

ومنه: تعليمه تعالى للخضِر صاحب موسى، كما قال سبحانه: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

ومنه: تعليمه تعالى لداود، كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

ومنه: تعليمه تعالى للمسيح عيسى، كما بشَّرت به أمه: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، وكما امتنَّ عليه بقوله: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: ١١٠].

ومنه: تعليمه لمحمد ﷺ، الَّذي قال له: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

QaradawiBooks.com

ورحِم الله أحمد شوقي حين قال في قصيدة المعلم:

سبحانك اللهمَّ خير معلِّم علَّمت بالقلم القرون الأولى
أرسلت بالتوراة موسى هاديًا وابن البتول فعلم الإنجيلا
وفجَّرت ينبوع البيان محمدًا فسقى الحديث، وناول التنزيلا

رسل الله كلهم معلِّمون:

والرسل الَّذين بعثهم الله كلهم مُعلِّمون، بعثهم الله برسالاته؛ ليهدوا النَّاس إلى الصراط المستقيم، ويُخرجوهم من الظلمات إلى النور، ويعلِّموهم ما لم يكونوا يعلمون، ولهذا وصفهم القرآن بأنَّهم مبشِّرون ومنذرون، والتبشير والإنذار نوعٌ من التعليم، مقرونٌ بالترغيب في جانب التبشير، والترهيب في جانب الإنذار. قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

محمَّد إمام المعلمين:

وأمَّا إمام المعلمين بحقٍّ فهو محمد ﷺ الَّذي جعل الله التعليم والتربية المُعبَّر عنها بالتركيز من المعالم الأساسيَّة لرسالته ﷺ.

جاء ذلك في أربع آيات من كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ.

جاء ذلك في دعوة إبراهيم حين كان يرفع القواعد من البيت هو وابنه إسماعيل، وهما يدعُوَان الله تعالى: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسۡلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولًا مِّنۡهُمۡ

QaradawiBooks.com

يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧ ـ ١٢٩].

وفي السورة نفسها جاء قوله سبحانه: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

وفي سورة آل عمران قال تعالى في معرض الامتنان على المؤمنين: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وفي سورة الجمعة يمتنُّ الله على العرب فيقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

وهكذا كان ﷺ معلِّمًا ومزكِّيًا: يغرس العلم والفكر في الرؤوس، ويغرس الإيمان والزكاة في النفوس، والزكاة تعني أمرين: الطهارة والنماء. الطهارة بالتخلِّي من الشرك والرذائل، والنماء بالتحلي بالتوحيد والفضائل، وقد خرَّج بتعليمه وتزكيته أفضلَ جيل عرفته البشريَّة، نقله من ظلمات الجاهليَّة إلى نور الإسلام، فزكَّاهُ بالإيمان، وربَّاهُ بالإسلام، ورقَّاهُ بالإحسان، وحسبك أنَّهم الَّذين تلقوا عنه القرآن، فتلَوْه حقَّ تلاوته، وأحسنوا حفظه وتعليمه لمَنْ بعدَهم، وحفظوا عنه السنن علمًا وعملًا، ونقلوها إلى الأجيال، وكانوا خير معلِّمين لأمم الأرض؛ لأنَّهم تتلمذوا على خير معلم، وهو الَّذي قال عن نفسه: «**إنَّ الله بعثني معلِّمًا ميسِّرًا**»[1].

---

(١) رواه مسلم في الطلاق (١٤٧٨)، وأحمد (١٤٥١٥)، عن جابر.

QaradawiBooks.com

ولا يتّسع المقام هنا للحديث عن طريقته ﷺ في التعليم والتزكية، وقد أُلِّفت فيها كتب، وعرضنا لمواقف منها في كتابنا «الرسول والعلم» فليرجع إليه.

غير مرخصة للطباعة

العلماء ورثة الأنبياء في التعليم والبيان:

والعلماء هم ورثة الأنبياء، يرثون منهم علم النبوة، كما يرثون مهمَّتهم في تعليم الناس، وهداية الحائرين، وتبيين الحقائق للجاهلين بها، وتذكير الغافلين عنها، لا يكتمون شيئًا من البيِّنات والهُدى.

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

ولقد تكرّر في القرآن الوعيد الشديد على كتمان ما أنزل الله من الهدى ودين الحق.

من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩، ١٦٠].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٤، ١٧٥].

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

والمراد بالثمن القليل في هذه الآية وفي الآية السابقة من سورة آل عمران الَّذين اشتروا به بيان ما أنزل الله هو: متاع الدنيا، أيًّا كان نوعه ومقداره، فهو ليس إلَّا ثمنًا قليلًا.

غير مرخصة للطباعة

وأكَّد هذا المعنى القرآني الأصيل: ما جاء في الحديث النبوي من قوله ﷺ: «**مَن سُئل عن علم فكتمه، ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار**»[1].

وفي الحديث الآخر: «**من كتم علمًا عن أهله، ألجِم يوم القيامة لجامًا من النار**»[2].

* * *

(١) رواه أحمد (٧٥٧١)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح. وأبو داود (٣٦٥٨)، والترمذي (٢٦٤٩) وقال: حسن. كلاهما في العلم، وابن ماجه في المقدمة (٢٦٦)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٨٤)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه ابن حبان في العلم (٩٦) وقال الأرناؤوط: إسناده حسن في الشواهد. عن عبد الله بن عمرو.

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

ألَّا يستحي من قول «لا أعلم»

ومن أدب التعلم كما يصوره القرآن: ألَّا يستحي المتعلم من قول: لا أعلم أو لا أدري، إذا كان لا يعلم ولا يدري، فليس في العلم كبير، وليس في الوجود مخلوق أحاط بكل شيء علمًا، إنَّما هذه صفة الله تبارك وتعالى، وأمَّا المخلوقون فيعلمون ويجهلون، يعرفون شيئًا، وتغيب عنهم أشياء. كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: ٨٥].

ومن هنا قصَّ علينا القرآن قصة آدم أبي البشر عليه السلام، وفيها: أنَّ الملائكة، برغم منزلتهم وفضلهم وقربهم من الله تعالى لم يستحوا أن يقولوا: لا نعلم، فيما لا يعلمون.

يقول تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۞ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۞ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣١ ـ ٣٣].

وقد علَّم الله خاتَم رسلِه أن يَكِل إلى الله تعالى علم ما لا يعلمه، مثل «علم قيام الساعة» الَّذي استأثر الله تعالى به، فلم يُطلع عليه ملكًا مقرَّبًا، ولا نبيًّا مرسلًا، وقال لرسوله في ذلك: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ

نسخة مجانية

إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وتكـرَّر ذلك عدَّة مـرات في القـرآن، تكرَّر السـؤال وتكرَّرت الإجابـة: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣].

ولهذا حينما سأل جبريل في حديثه المشهور النبيَّ ﷺ عن الساعة، أجابه بقوله: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**»(١).

وكذلك حين سـألوه ﷺ عن «الروح» ما هي؟ ومـا حقيقتها؟ كان الجواب ما ذكرته الآية الكريمة: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

ولا غَرْو أن شـاع هذا الأدب في الأمَّة الإسـلاميَّة، وفي الحضارة الإسلاميَّة، وقد كان رسول الله ﷺ الأسوةَ الحسنة، والمثلَ الأعلى فيه، فحين يُسـأل عن شـيء ليس عنده فيه علم من الله تعالى يتوقَّف حتَّى ينزل عليه الوحي، ولا يتهجَّم على القول بغير علم.

واشتهر عن علماء الأمة قولهم: «لا أدري»، نصف العلم.

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنه: من أخطأ قول: «لا أدري» أصيبت مقاتله(٢)!

(١) سبق تخريجه صـ١٩١.

(٢) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (١٥٨١)، والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (٨١٣).

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة - نسخة مجانية

وكثيرًا ما سُئل الأئمة الكبار عن مسائل من العلم، فقالوا فيها: لا ندري، حتَّى رووْا أنَّ إمام دار الهجرة مالك بن أنس رضي الله عنه سئل عن أربعين مسألة، فقال في ست وثلاثين منها: لا أدري(١).

وجاء رجل فقال: يا أبا عبد الله، جئتك من مسيرة ستة أشهر، حمَّلني أهل بلدي مسألة أسألك عنها. قال: فسَلْ. فسأله الرجل عن المسألة، فقال: لا أحسنها. فبُهت الرجل، كأنَّه قد جاء إلى منْ يعلم كل شيء! فقال: أي شيء أقول لأهل بلدي إذا رجعت إليهم؟! قال: تقول لهم: قال مالك: لا أحسن!

وقال مالك: ينبغي للعالم أن يألف فيما أشكل عليه قول: «لا أدري»، فإنَّه عسى أن يُهيَّأ له خير.

وقال ابن وهب: لو كتبنا عن مالك: «لا أدري»، لملأنا الألواح.

وقال مالك: كان رسول الله ﷺ إمامَ المسلمين، وسيدَ العالمين، يُسأل عن الشيء، فلا يجيب حتَّى يأتيه الوحي.

وقال: هذه الملائكة قد قالت: «لا علم لنا».

وقبل مالك سُئل الإمام الشعبي عن مسألة فاستصعبها، وقال: لا أحسنها، ولو أُلقيتْ على بعض أصحاب رسول الله ﷺ لأعضلت بهم! فقال له بعض أصحابه: قد استحيينا لك ممَّا رأينا منك! قال: ولكنَّ الملائكة المقرَّبين لم تستحي حين قالت: «لا علم لنا إلَّا ما علَّمتنا»!

(١) روضة الناظر وجنة المناظر لابن قدامة (٢/٣٣٨)، نشر مؤسسة الريّان للطباعة والنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.

QaradawiBooks.com

وسئل القاسم بن محمد أحد الفقهاء السبعة بالمدينة في عصر التابعين عن شيء، فقال: لا أحسنه. فقال الرجل: إنِّي رفعت إليك لا أعرف غيرك! فقال القاسم: لا تنظر إلى طول لحيتي، وكثرة النَّاس حولي، والله ما أحسنُه. فقال شيخ من قريش جالس إلى جنبه: يا ابن أخي الزمها، فوالله ما رأيتك في مجلس أنبل منك اليوم! فقال القاسم: والله لأن يقطع لساني أحب إليَّ من أن أتكلم بما لا علم لي به!

وقبل القاسم والشعبي قال ابن مسعود: يا أيها النَّاس من سُئل عن علم يعلمه فليقل به، ومن لم يكن عنده علم، فليقل: الله أعلم. فإنَّ من العلم أن تقول لما لا تعلم: الله أعلم، إنَّ الله قال لنبيِّه: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦].

وعن أبي بكر رضي الله عنه أنَّه قال: أيُّ سماء تظلُّني، وأيُّ أرض تقلُّني، إذا قلت في كتاب الله بغير علم؟

وعن عليٍّ رضي الله عنه أنَّه خرج عليهم، وهو يقول: ما أبردها على الكبد، ما أبردها على الكبد! فقيل له: وما ذاك؟ قال: أن تقول للشيء لا تعلمه: الله أعلم.

وعن عقبة بن مسلم قال: صحبت ابنَ عمر أربعة وثلاثين شهرًا. فكثيرًا ما كان يُسأل فيقول: لا أدري، ثم يلتفت إليَّ فيقول: تدري ما يريد هؤلاء؟ يريدون أن يجعلوا ظهورنا جِسْرًا لهم إلى جهنَّم[1]!

---

(١) هذه الآثار ذكرها ابن عبد البر في جامع بيان العلم بأسانيد صحيحة أو حسنة أو لا بأس بها، وبعضها أصله في الصحيحين، كحديث ابن مسعود، انظر: جامع بيان العلم (٢/٨٢٦ ـ ٨٤٣)، باب: ما يلزم العالم إذا سئل عما لا يدريه من وجوه العلم.

QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفَ القَرَضَاوِي

الفصل الخامس

تكوين العقليَّة العلميَّة في القرآن

- رفض الظن في موضع اليقين.
- عدم اتِّباع الأهواء والعواطف في مجال العلم.
- رفض التقليد الأعمى للآباء والأسلاف.
- رفض التبعيَّة للسادة والكبراء.
- التعبد بالنظر العقلي.
- لا تُقبل دعوى بغير برهان.
- رعاية سنن الله في الكون والمجتمع.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

تكوين العقلية العلمية في القرآن

ومن أعظم ما عني به القرآن في مجالنا: هو تكوين العقليَّة العلميَّة. فهناك ما يمكن أن نطلق عليه «العقليَّة العاميَّة» أو «العقليَّة الخرافية»، وهي الَّتي تُصدِّق كل ما يُقال لها أو يُعرَض عليها، ولا تضعه موضع امتحان، بل تأخذه قضية مُسلَّمة، ولا سيما إذا جاء من قِبَل من تُعظِّمه، مثل الأجداد والآباء، أو السادة والكبراء. فتقول: إنَّا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون، أو وجدنا سادتَنا على ذلك يسيرون.

وفي مقابل هذه العقليَّة المُتَّبِعة، توجد عقليَّة أُخرى مخالفة، لها مواصفاتها وخصائصها، وهي الَّتي عمل القرآن ـ بآياته المشرِّعة والموجِّهة ـ على إنشائها وصياغتها وإبرازها لتقوم بدورها في الحياة.

ومن المقرَّر المعلوم: أنَّه لا يمكن أن يزدهر العلم، وتتأصَّل جذوره، وتمتد فروعه، بل لا يمكن أن ينشأ علم صحيح إلَّا في مناخ نفسيٍّ وفكريٍّ يُهيئ للعقول أن تفكر، وللأفكار أن تتفتَّح، وللآراء أن تناقش، ولصاحب الحُجَّة أن يُدلي بحُجَّته، وهذا ما يعمل القرآن على إيجاده في الحياة الإسلامية، وبعبارة أُخرى: يعمل القرآن بدعوته القويَّة، وبتوجيهاته المتكرِّرة على تكوين «العقليَّة العلميَّة» المتحرِّرة،

QaradawiBooks.com

الَّتي لا ينهض علـم إلَّا على عاتقها، فهو يرفـض «العقليَّة الخرافيَّة»، ويرفض «العقليَّـة المقلِّدة» ويرفـض «العقليـة المتخرِّصة» ويرفض «العقليَّة المتَّبعة للهوى».

أمَّا كيف يكوِّن القرآن بتعاليمه هذه العقليَّة العلميَّة، فهذا ما نوضِّحه في هذه الصحائـف، ومَن قرأ القرآن وتدبَّره بحـق، وجد مقوِّمات هذه العقليَّة مُجسَّمة فيه.

* * *

غير مرخصة
نسخة مجانية

١

رفض الظن في موضع اليقين

غير مرخصة للطباعة

وأول ما توصف به هذه العقليَّة كما بيَّن القرآن: أنَّها ترفض الظنَّ في كل موضع يُطلب فيه اليقين، كما في مقام تأسيس العقائد الَّتي تقوم عليها نظرة الإنسان إلى الوجود، أعني: إلى الله والكون والإنسان والحياة.

فهذه القضايا الكبرى لا يكفي فيها الظن، بل لا بدَّ فيها من العلم، أي العلم اليقيني.

قد يكفي الظن في قضايا الفروع والجزئيات، الَّتي تقوم عليها تعاملات النَّاس بعضهم ببعض، ولهذا تُقبل شهادة الشهود مع احتمال الخطأ والكذب، ويُقبل حديث الواحد، مع احتمال ذلك.

أمَّا في القضايا الكلية الكبرى، فلا يُستغنى فيها عن اليقين.

ومن هنا أنكر القرآن على المشركين اتِّباعهم الظنَّ في هذه القضايا، وقال ﷻ: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٣٦].

نسخة مجانية

وفي سورة أخرى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ۖ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: ٢٨].

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن

شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

وقال في شأن المشركين عمومًا، ودعوتهم للأصنام من دون الله: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس: ٦٦].

بل جعل القرآن اتِّباع الظنِّ والخَرص وراء ضلالِ أكثريَّة أهل الأرض وإضلالهم عن سبيل الله. يقول تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦].

وحقيقة الخرص ـ كما قال الراغب في «مفردات القرآن» ـ: أنَّ كل قول مقول عن ظنٍّ وتخمين يقال: خرْص، سواء أكان مطابقًا للشيء أو مخالفًا له، من حيث إنَّ صاحبه لم يقله عن علم ولا غلبة ظنٍّ ولا سماع، بل اعتمد فيه على الظنِّ والتخمين، كفعل الخارص في خرصه، وكل مَن قال قولًا على هذا النحو قد يُسمَّى كاذبًا، وإن كان قوله مطابقًا للمقول المخبر عنه(١).

ويقول القرآن عن أهل الكتاب: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ۞ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِۚ﴾ [النساء: ١٥٧، ١٥٨].

ويقول عن المشركين وعلاقتهم بالآخرة وقيام الساعة: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢].

(١) المفردات في غريب القرآن مادة (خ. ر. ص).

QaradawiBooks.com

٢

عدم اتِّباع الأهواء والعواطف في مجال العلم

ولا ترفض العقليَّة العلميَّة الظنَّ فقط، بل ترفض الهوى والعاطفة أيضًا، فالهوى يعمي ويصم، واتِّباع العواطف قد يضلِّل الإنسان عن الحق، وخصوصًا العواطف الهُوج، مثل الحب الشديد، والكره الشديد، والغضب الشديد.

ولا غرو أنْ جاء في الحديث الصحيح: «**لا يقضي القاضي وهو غضبان**»[1]؛ لأنَّ انفعال الغضب يسدُّ عليه منافذ الإدراك الصحيح لجوانب القضية المختلفة، فيظهر حكمه غير سليم.

ولهذا عاب القرآن على المشركين هذين الأمرين: اتِّباع الظنِّ وهوى الأنفس معًا. فقال في شأن أصنامهم الَّتي اتَّخذوها آلهة ـ اللَّات، والعُزَّى، ومناة الثالثة الأخرى ـ: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣].

وقال الله تعالى لداود: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [صٓ: ٢٦].

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأحكام (٧١٥٨)، ومسلم في الأقضية (١٧١٧)، عن أبي بكرة.

QaradawiBooks.com

وقال في خطاب رسوله محمد ﷺ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

وقال تعالى في ذم اتِّباع الهوى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وفي سورة أخرى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۝ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣، ٤٤].

ولأجل ذلك قال ابن عباس: شرُّ إلٰهٍ عُبِدَ في الأرض: الهوى(١)!

فالعقليَّة العلميَّة هي الَّتي تُنحِّي الأهواء والانفعالات والعواطف جانبًا، وتنظر إلى الأمر نظرة موضوعية محايدة.

* * *

(١) انظر: المدخل لابن الحاج (٣/١١٦)، نشر دار التراث.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

٣

رفض التقليد الأعمى للآباء والأسلاف

والعقليَّة العلميَّة في نظر القرآن: هي الَّتي ترفض الجمود على ما كان عليه الآباء والأجداد، أو التسليم المطلق لما عليه السلف المُعظَّمون، ولا تقبل أن تُقلِّد هؤلاء أو أُولئك فيما اعتقدوه أو فعلوه، بل لا بدَّ من وضعه موضع الاختبار، والنظر إليه في ضوء العقل، وبميزانه المستقل، فليس من المعقول أن يفكر لنا الأموات ونحن أحياء، وأن يلزمنا الأقدمون بنتائج عصور مضت، إنَّما نحن ملزمون بما تهدي إليه عقولنا، وما ينتهي إليه تفكيرنا. فإنَّ من الخطل والخطر أن نفكِّر برؤوس غيرنا، وقد خلق الله لنا رؤوسًا خاصَّة بنا!

ولهذا شنَّ القرآن حملةً عنيفةً على الجمود والتقليد في كلِّ صوره، ففي سورة البقرة يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ۝ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠، ١٧١].

وفي سورة المائدة يقول سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤].

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

ففي سورة البقرة بيَّن أنَّهم ينقصهم العقل، وهنا بيَّن أنَّهم ينقصهم العلم، وفي كلتا الحالتين بيَّن أنَّهم ينقصهم الاهتداء إلى الصواب.

وفي سورة هود يقول تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ [هود: ١٠٩].

وفي سورة الزخرف يقول تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ(١) وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ۞ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢ ـ ٢٤].

فبيَّن الله تعالى أنَّ هذا هو موقف المترفين من أهل الشرك من قديم: الاتِّكاء على ما كان عليه الآباء.

وكذلك ذكر القرآن الكريم في جملة سورٍ هذا الجمود المُقلِّد، أو التقليد الجامد، من الأبناء للآباء.

ففي قصَّة هود بعد دعوته البليغة وحواره القويِّ، نقرأ: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠].

وفي قصَّة صالح: ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [هود: ٦٢].

وفي قصَّة إبراهيم: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۞ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۞ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنبياء: ٥٢ ـ ٥٤].

---

(١) أي على عقيدة.

QaradawiBooks.com

وفي قصة شعيب: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ﴾ [هود: ٨٧].

وفي قصص الرُّسُل عامَّة مع أقوامهم يقول الله تعالى: ﴿۞ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ [إبراهيم: ١٠].

يعنون بالسلطان المبين: الآيات الكونيَّة الخارقة، وكلها تَعِلَّات فارغة، فقد جاءت الرُّسُل من قبل بهذه الآيات فكذَّبوا بها، كما فعلوا مع صالح وغيره.

يقول العلَّامة ابن الجوزي: في التقليد إبطال منفعة العقل، فقد خُلِق للتدبر والتأمل، وقبيح بمن أُعطيَ شمعةً أن يطفئها ويمشي في الظلمة[1]!

* * *

(١) تلبيس إبليس لابن الجوزي صـ ٧٤، نشر دار الفكر، لبنان، ط ١، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م.

QaradawiBooks.com

٤

رفض التبعيَّة للسادة والكبراء

ولم تقف حملة القرآن على الجمود العقلـيِّ الَّذي يتمثَّل في تقليد الأبناء للآباء، والأحفاد للأجداد، بل شمل الجمود الَّذي يتمثَّل في تبعيَّة الشعوب والجماهير للسادة والكبراء والجبابرة وأصحاب السُّلطان والثراء.

لقد ذمَّ القرآن هذه التبعيَّة العمياء، وحَمَّل الشعوب وزْرها، مع المتبوعين من أئمة أهل النَّار.

يقول القرآن على لسان نوح عليه السلام: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ [نوح: ٢١].

وقال في قصَّة هود وقومه عاد: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هود: ٥٩].

وقال في قصَّة موسى وفرعون: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۝ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٦، ٩٧].

وقال في سورة أخرى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤].

QaradawiBooks.com

وقد عرض القرآن لنا من مشاهد الآخرة ما يُجسّد لنا تلاومَ المتبوعين والأتباع يوم القيامة، وتبرؤ بعضهم من بعض، ومحاولة كلِّ فريق إلقاء التَّبِعة على الآخر:

﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ۞ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ۞ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٦ ـ ٦٨].

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧].

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۞ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣١ ـ ٣٣].

﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ۞ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨، ٣٩].

QaradawiBooks.com

وهنا حَمَّل القرآن الأتباع تَبِعة ضلالهم، فقد منحهم الله من المواهب والقدرات والآلات ما يمكِّنهم من اتِّباع الهدى، فعطَّلوا ذلك، وساروا في ركاب المُضلِّين، فما أغنَوا عنهم من الله شيئًا.

صحيحٌ أنَّ المتبوعين المُضلِّين يحملون من الأوزار أكثر من الأتباع، لأنَّهم يحملون وزْر الضلال، ووزْر الإضلال، كما قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥].

﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣].

ولكن هذا لا ينقص من أوزار الأتباع الَّذين ألغَوا عقولَهم، وداروا في فلك المضلِّين.

* * *

QaradawiBooks.com

٥

التعبُّد بالنظر العقلي

ومن مُقوِّمات هذه العقليَّة العلميَّة الَّتي ينشئها القرآن: أنَّها عقليَّة تقوم على النظر والتَّفكُّر، فالنظر عندها فريضة، والتَّفكُّر لديها عبادة.

والقرآن حافلٌ بالآيات الَّتي تحضُّ على النظر، وتدعو إلى التَّفكُّر، بأساليب شتَّى، وصُور متنوِّعة.

والمراد بالنظر: النظر العقلي، وهو الَّذي يستخدم الإنسان فيه فكره في التأمُّل والاعتبار، بخلاف النظر البصري، فهو الَّذي يستخدم الإنسان فيه عينه.

قال الإمام الراغب: «النظر تقليبُ البصر والبصيرة لإدراك الشيء ورؤيته، وقد يُراد به التأمُّل والفحص، وقد يُراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص، وهو الرويَّة، يقال: نظرتَ فلم تنظر: أي لم تتأمَّل ولم تَترَوَّ»(١).

فعلى الإنسان أن يبدأ بالنظر في نفسه أولًا، ثم في أقرب الأشياء إليه، يقول تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۞ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۞ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۞ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾ [الطارق: ٥ ـ ٨].

(١) المفردات في غريب القرآن مادة (ن. ظ. ر).

نسخة مجانية
غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤ ـ ٣٢].

ثم ينتقل بنظره إلى ما حوله متأمِّلًا متدبِّرًا معتبرًا؛ لينتقل من المصنوع إلى الصانع، ومن الأثر إلى المؤثِّر، ومن الكون إلى المكوِّن.

يقول القرآن: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧ ـ ٢٠].

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [قٓ: ٦ ـ ٨].

﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

فالنظر هنا عامٌّ شاملٌ، يشمل كل ما خلق الله، من الذَّرَّة إلى المَجرَّة، ومن داخل النَّفس إلى آفاق الكون الفسيح، الَّذي لا يعلم سَعَته إلَّا خالقه:

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١].

وأحيانًا يأمر القرآن بالسَّير في الأرض للنظر في آيات الله في الكون وفي الحياة وفي التاريخ.

QaradawiBooks.com

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩].

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١].

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦].

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: ٩].

وقد تكرَّر هذا المعنى في القرآن عدَّة مرات: الحثُّ على السَّيْر في الأرض، والنظر في سيرة الأوَّلين ومسيرتهم، وكيف نفذت فيهم سُنَن الله الَّتي لا تتخلَّف، رغم ما كان لديهم من كثرة العدد، وقوَّة العُدد.

المهم أن يمرُّوا على آثار القوم وما خلَّفوه وراءهم بعقول تفكر، لا بمجرَّد أعين تبصر.

كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وبهذا شمل هذا النظر العقلي كل ما يقبل النظر: الإنسان نفسه.. وما حوله: من نبات: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ [قٓ: ١٠]، وحيوان،

QaradawiBooks.com

وخصوصًا الإبل: ﴿كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧]؟ وجماد: ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ٢٠]؟ والسماء: ﴿كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ [الغاشية: ١٨]؟ وكل ما في العالم عُلويِّه وسفليِّه بهذا الشمول الَّذي نبَّهت عليه الآية: ﴿فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

ولم يكن النظر مقصورًا على الأشياء، بل تعدَّاها إلى الأحداث والسُّنن الَّتي تدلُّ عليها، مثل: سُنن الله في عقوبات المُكذِّبين، وفي تغيير ما بالناس من نِعَم إذا غيَّروا ما بأنفسهم من خير. وسُنَّته في سقوط الأمم رغم عمارتها للأرض وكثرة أعدادها.

ومثل النظر العقلي: الرؤية العقليَّة، فقد حثَّ القرآن في آيات كثيرة على هذه الرؤية الَّتي يقصد بها رؤية العقل لا رؤية العين، وهي رؤيةٌ تشمل كل المخلوقات في الأرض أو في السماء ممَّا يبيِّن عظمة خالقها، وروْعة تدبيره، وبالغ حكمته، وسابغَ نعمه على عباده، كما تشمل الوقائع والأحداث، الَّتي تُبْرز قدرةَ الله تعالى وهيمنتَه على الكون وحده، كما تُبرز عدالتَه وأنَّه يملي ويمهل، ولكنَّه لا يغفل ولا يهمل.

تقرأ مثل هذه الآيات:

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٧٩].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ۝ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧١ ـ ٧٣].

QaradawiBooks.com

وينتقل من الطير والأنعام إلى الأرض ومياهها ونباتاتها وعلاقة السماء بها، والظواهر المتعلقة بها من الليل والنهار، يقول سبحانه:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: ٧].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٧].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج: ٦٣].

والخطاب في مثل هذه الصيغة: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ للنبيِّ ﷺ ولكلِّ مُكلَّف في الأُمة:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٢١].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٩].

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النمل: ٨٦].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۞ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨].

QaradawiBooks.com

﴿ أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [سبأ: ٩].

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴾ [النحل: ٤٨].

وهذه الرؤية الَّتي دعَا إليها القرآن شملت العالَم العُلوي كالعالم السُفلي:

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [العنكبوت: ١٩].

وهذه الرؤية ينبغي أن تشمل النظرَ فيما خصَّهم الله به من نِعَم لا تتوافر لغيرهم. وهذا خطاب لأهل مكَّة خاصَّة: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

وممَّا تشمل هذه الرؤية آثار فعل الله في النَّاس والمجتمعات، من بسْط وقبْض، ورفْع وخفْض، وإعْزاز وإذْلال، يقول تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الروم: ٣٧].

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [الرعد: ٤١].

﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الأنبياء: ٤٤].

QaradawiBooks.com

ومعنى نقص أطــراف الأرض: أنَّ الله يُديل من دولة لأخرى، ويأخذ من الدولة الكبيرة لحساب دولة صغيرة، وتلك الأيام نداولها بين الناس.

وتشمل هذه الرؤية تاريخَ القرون الماضية، وصنعَ الله في أهلها، من الطغاة والمتجبِّرين، الَّذين أفسدوا في الأرض بعد إصلاحها.

﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

لم يُغْنِ هؤلاء ما أنشأوا من عمارة شاهقة، وما أبدعوا من آثار مادية، فقد شادوا البنيان وخرَّبوا الإنســان، وأصلحوا الأرض وأفسدوا البشر، وعُنوا بالطين ونســوا الدين، وعاشــوا للدنيا وأغفلوا الآخرة، فلم تُغْنِ عنهم دنياهم من الله شيئًا.

﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۞ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۞ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۞ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ۞ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ۞ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۞ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ۞ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ۞ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ [الفجر: ٦ ـ ١٤].

بهذا حكم القــرآن على الحضارات الماديَّة المحضــة أنَّها غير قابلة للبقاء والاستمرار، وأنَّ عاقبتها إلى دمار وتَبَار.

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

٦

لا تُقبل دعوى بغير برهان

ومن معالم العقليَّة العلميَّة في القرآن: أنَّها لا تقبل أي دعوى تُدعى بغير برهان علمي، يشهد لها، ويدلُّ على صحتها وصدقها، وما لم يوجد دليل يُثبت الدعوى أو القضية المطروحة، فهي في نظر العقل المسلم مرفوضة ساقطة.

لقد رفض القرآن ما شاع لدى كثير من أرباب الديانات السابقة من قبول الدعاوى العريضة، والمعتقدات الموروثة، دون برهان يدلُّ على صحَّتها، ولم يرض بمسلك الَّذين قالوا: «اعتقدْ وأنت أعمى»!

أو «أغمضْ عينيك ثم اتبعني»!

إنَّ كل مؤمن بعقيدة مُطالَب بإقامة البرهان على صدقها، أو التسليم لمن يدعوه إلى عقيدة غيرها يؤيِّدها الدليل والحُجَّة.

وبهذا قرَّر القرآن هذه القاعدة الجليلة الكبيرة: أن لا دعوى بغير برهان!

نقرأ في ذلك حديث القرآن عن دعاوى أهل الكتاب، وتعقيبه عليها:

﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

QaradawiBooks.com
نسخة مجانية

ونقرأ كذلك حديثه مع المشركين الَّذين عبَدوا مع الله آلهة أُخرى، وحواره معهم في قضية الوحدانيَّة:

﴿أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤].

وفي سورة أخرى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٢٤].

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ هَـٰذَآ أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤].

وفي قضية التحريم والتحليل، الَّتي تجاوزوا فيها حدودَهم، فحرَّموا وحلَّلوا بالهوى أو بالوهم والظنِّ أو بمجرد التقليد الأعمى، يناقشهم القرآن: ﴿ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٣].

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

فأبطل بذلك دعوى الجبريَّة، الَّذين يزعمون أنَّ ما هم فيه من ضلال الشرك وتحريم الحلال، إنَّما هو بمشيئة الله تعالى، يقصدون: المشيئة الملجئة لهم، الَّتي لا يملكون معها اختيارًا ولا إرادة، وكذبوا. ما لهم على هذا من دليل، فإن كان لديهم علم فليخرجوه.

QaradawiBooks.com

وفي قضية ادِّعاء البنوَّة لله، وأنَّه سبحانه اتَّخذ ولدًا من الملائكة ـ الذين زعموا أنَّهم بنات الله! ـ أو من البَشر مثل المسيح الَّذي قال النصارى فيه: ابن الله، ومثل عُزير، الَّذي قال اليهود فيه: ابن الله، نقرأ:

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٦٨].

يعني: ما عندكم من حُجَّة تؤيِّدكم فيما قلتم، إنْ هو إلَّا قولٌ على الله بلا علم.

القرآن يُسمِّي الحُجَّة سلطانًا:

قال الحَبْر ابن عباس: كلُّ سلطانٍ في القرآن فهو الحُجَّة[1].

وهذا ثابت بالاستقراء والتتبُّع لموارد الكلمة في الكتاب العزيز.

يقول تعالى في شأن المشركين: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ﴾ [الحج: ٧١]. أي: يعبدون من الآلهة والأوثان ما لم تقم أيُّ حُجَّة عليه، لا من عقل ولا من نقل.

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

يعني: ما لم يؤيِّده بِحُجَّة، إنَّما هو من وحي أوهامكم وأهوائكم.

(١) علقه البخاري بصيغة الجزم (٨٢/٦) عند حديث رقم (٤٧٠٨)، وقال ابن حجر في الفتح (٣٩١/٨): على شرط الصحيح.

QaradawiBooks.com

وفي مجادلة هـــود لقومه: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ﴾ [الأعراف: ٧١].

وفي خطاب القرآن لمشـــركي العرب الَّذين عبَــدوا اللات والعُزَّى، ومناة الثالثة الأُخرى، نقرأ: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ [النجم: ٢٣]. أي: ما أنزل الله بها من حُجَّة ولا برهان، بل هي من تلقاء أنفسكم وآبائكم.

ونقـــرأ كذلـــك: ﴿أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ ۞ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الصافات: ١٥٦، ١٥٧].

يعنـــي: أم لكم حُجَّـــة بيِّنة مقنعة، فأْتـــوا بها إنْ كنتـــم صادقين في دعواكم.

وفي موضعٍ واحد في القرآن اختلف فيه، وهو قوله تعالى في مشهدٍ من مشاهد القيامة على لسان مَن أُوتيَ كتابَه بشماله: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ۞ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾ [الحاقة: ٢٨، ٢٩]. فقيل: المراد به: المُلْك والقدرة، أي: ذهب عني مالي ومُلْكـــي معًا، فلا مال لـــي ولا جاه، وقيل: هـــو على بابه، والمراد: انقطعت حُجَّتي، وبَطلت، فلا حُجَّة لي.

يقول العلَّامة ابن القَيِّم: «والمقصود: أنَّ الله سبحانه سمَّى علم الحُجَّة ســـلطانًا؛ لأنَّها توجب تســـلط صاحبها واقتداره، فله بها ســـلطان على الجاهلين، بل ســـلطان العلم أعظم من ســـلطان اليد. ولهذا ينقاد النَّاس للحُجَّة ما لا ينقادون لليد، فإنَّ الحُجَّة تنقاد لها القلوب، وأمَّا اليد فينقاد لها البدن. فالحُجَّة تأسر القلبَ وتقوده، وتذلُّ المخالف، وإنْ أظهر العِناد والمكابرة، فقلبه خاضع لها، ذليل مقهور تحت ســـلطانها. بل ســـلطان

الجاه إن لم يكن معه علم يُساس به، فهو بمنزلة سلطان السِّباع والأُسود ونحوها: قـدرةٌ بلا علم ولا رحمة، بخـلاف الحُجَّة، فإنَّـه قدرة بعلم ورحمة وحكمة، ومَن لم يكن له اقتدار في علمه، فهو إما لضعف حُجَّته وسلطانه، وإما لقهر سلطان اليد والسيف له، وإلَّا فالحُجَّة ناصرة نفسَها، ظاهرة على الباطل، قاهرة له»[(١)].

الشرك جهل لأنَّه دعوى بلا برهان:

ومن هنا اعتبر القرآن الشِّـرك من باب الجهل المطلق؛ لأنَّه محض دعوى، لا تسندها بيِّنة، ولا يشدُّ عضدها برهان، ولا يقوِّي ظهرها علم.

قرأنا في ذلك قوله سـبحانه: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الحج: ٧١].

وفي آية تحديد المُحرَّمات الأصلية والدائمة قرأنا قوله تعالى: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

ونقرأ في مقام آخر على لسان مؤمن آل فرعون: ﴿تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [غافر: ٤٢].

وفي الوصية ببر الوالدين: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ [لقمان: ١٥].

والشـرك كله ليس للمرء به علم، فهي صفة ثابتة دائمة لا تنفك عن الشرك.

(١) مفتاح دار السعادة (٥٩/١).

QaradawiBooks.com

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

وهذا الوصف: ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾، إنَّما هو قيد لبيان الواقع، الَّذي لا ينفك عن دعاء إلٰه مع الله، فَلا يُفهم منه أنَّه قد يكون مع المشرك يومًا برهان له به، وإنَّما جيء به على هذه الصيغة لتعظيم قيمة البرهان.

براهين يُرشد إليها القرآن:

وإذا كان القرآن يرفض كل دعوى لا يقوم عليها برهان يثبتها، فإنَّنا نجده - في مواطن شتَّى - يرشد إلى أنواع من البراهين أو الأدلَّة، ينبغي اعتمادها والاستناد إليها.

من هذه البراهين الَّتي هدى إليها القرآن العزيز:

(١) البرهان الحسِّي:

ونعني به ما يدلُّ عليه الحسُّ كالمشاهَدة ونحوِها. نقرأ في ذلك:

﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩].

﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف: ٥١].

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأحقاف: ٤].

﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان: ١١].

QaradawiBooks.com

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣، ٤].

﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦].

صحيح أنَّ المراد هنا النظر العقلي، ولكنَّه يبدأ بالنظر البصري.

(٢) البرهان السمعي:

ونعني به: البرهان المسموع من الوحي، الَّذي ثبت بقواطع العقل، والناطق بأوامر الربِّ ونواهيه، فإذا ثبتت نبوَّة نبي بالآيات القاطعة الدالة على أنَّه لا يمثِّل نفسه، وإنَّما يمثِّل إرادة الله الجليل، وجب الأخذ منه، والتلقِّي عنه، في كل ما يتعلق بأُمور التشريع والأمر والنهي، والتحليل والتحريم ونحوها، ولا يُقبل من أحد دعوى شيء من هذا إلَّا ببرهان وعلم من عند الله.

وفي هذا يقول القرآن للذين حرَّموا وحلَّلوا الأنعام من عند أنفسهم: ﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٣].

وحين قالوا: إنَّ الله شاء لنا هذا، على معنى أنَّه رضيه منَّا، قال: ﴿قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٍ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

وحين زعموا أنَّ الله أمرهم بالتَّعرِّي في طوافهم بالبيت قال: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨].

QaradawiBooks.com

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وفي موضع آخر يقول: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾ [الأنبياء: ٢٤].

ويقول أيضًا: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ [الزخرف: ٢١].

﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤].

﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣].

(٣) البرهان التاريخي:

وهو البرهان الَّذي يقوم على أساس الرواية المُوثَّقة عن أحداث سبقت، أو عن مشاهدة للآثار الَّتي خلفها أهلها في الأرض، المُعبِّرة بلسان الحال عمَّا كانوا عليه من قوَّة وسطوة وعمارة للأرض.

نقرأ في ذلك: ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ [الأحقاف: ٤]، فهذه الأثارة من العلم تشير إلى التاريخ.

﴿فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧، والنحل: ٣٦].

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [غافر: ٢١].

QaradawiBooks.com

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۞ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۞ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۞ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۞ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ [الفجر: ٦ ـ ١٠].

(٤) البرهان النظري أو العقلي:

وهو البرهان الَّذي طالب القرآن به المشركين أن يقيموه على صحَّة شركهم: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٢٤]، ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤].

القرآن يقيم الأدلَّة العقلية على القضايا العقديَّة الكبرى:

(أ) وجود الله:

وقد أقام القرآن البرهان العقلي للدلالة على وجود الله سبحانه: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۞ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦].

ولا يمكن أن يكونوا قد خُلقوا من غير شيء؛ لأنَّ هذا ينافي قانون العلِّيَّة أو السببيَّة، وهو أنَّ كلَّ مُسبَّب لا بدَّ له من سبب، وكل أثر لا بدَّ له من مؤثِّر، وكل صنعة لا بدَّ لها من صانع، وهذا مبدأ فطري لا ينازع فيه إلَّا مكابر. وإذا لم يُخْلَقوا من غير شيء، فلا يمكن أن يكونوا هم خالقي أنفسهم؛ لأنَّ الشيء لا يخلق نفسه، والمخلوق قبل خلقه عدم، والعدم لا ينشئ الوجود.

ولا يمكن أن يكونوا هم خالقي السماوات والأرض؛ لأنَّها مخلوقة قبل وجودهم، ولا يستطيع مخلوق أن يَدَّعي أنَّه خلقهما.

(ب) وحدانيَّة الله تعالى:

وهو البرهان الَّذي أقامه القرآن للدلالة على وحدانيَّة الله تعالى، وأنَّه

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

واحد لا شريك له، كما في قوله ﷻ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وقوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١].

وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢].

(جـ) التَّنزيه عن الولد:

وهو البرهان نفسُهُ الَّذي أقامه القرآن على تنزيه الله تعالى عن الأولاد والأبناء، الَّتي زعمها المشركون والنصارى لله، يقول تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٨].

وفي موضع آخر يقول: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٢، ٩٣]. والعبد لا يكون ولدًا.

وفي هذا يقول عمَّن قالوا: الملائكة بنات الله: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦، ٢٧].

فإذا كانوا عبادَه الخاضعين له، المطيعين لأمره، كيف يكونون أولاده؟!

وفي مقام آخر يردُّ عليهم بمنطق آخر فيقول: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

QaradawiBooks.com

(د) إنزال الكتب وإرسال الرُّسُل:

وهذا البرهان العقلي هو الَّذي أقامه القرآن على صحَّة إنزال الكتب وإرسال الرُّسُل، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ۖ قُلِ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩١].

بيَّن لهم أنَّهم لم يُعطوا الله تعالى حقَّه، ولم يصفوه بما ينبغي له من صفات الكمال، ولم يقدروه حقَّ قدره، إذ نفوا نفيًا مطلقًا إنزاله على بَشر كتابًا. والحكيم لا يدع عباده هَمَلًا، ولا يتركهم سُدًى، دون أن ينزل عليهم من كتبه، ويبعث فيهم مِن رسله مَن يعلمهم ما يحبُّه منهم وما يكرهه، ويقيم بينهم الموازين القسط، ويحكم بينهم فيما اختلفوا فيه، كما قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ﴾ [البقرة: ٢١٣].

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩].

(هـ) البعث والجزاء:

وهذا البرهان العقلي هو الَّذي أقامه القرآن كذلك للدلالة على حقيَّة البعث بعد الموت، والجزاء العادل في الآخرة، ثوابًا وعقابًا، وجنَّةً ونارًا. نقرأ في ذلك:

QaradawiBooks.com

دليل الخلق الأول:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [قٓ: ١٥].

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يسٓ: ٧٨، ٧٩].

خلق السماوات والأرض:

ثم يلفتهم إلى دليل آخر، وهو خلق الأجرام العظيمة في هذا الكون الواسع، ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يسٓ: ٨١].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

إحياء الأرض الميتة:

ومن البراهين الَّتي نبَّه عليها القرآن في قضيَّة البعث، وردَّ شبهات المنكرين والمستبعدين: إحياء الأرض الميتة الهامدة، حين ينزل عليها الماء، فتهتز وتربو وتُنبت من كل زوج بهيج، وما أشبه الإنسان بالأرض الَّتي خُلِق منها، وعاش فيها، يقول تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحْيَاهَا لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

QaradawiBooks.com

وقد تكرَّر هذا المعنى في سُـور عدَّة، وبأسـاليب شتَّى، لوضوحه، وقوَّة تأثيره في الخاصة والعامَّة على سواء.

بطلان التَّسوية بين الأخيار والأشرار:

ومن البراهين الَّتي سـاقها القرآن للدلالة على صحَّـة قضية البعث والجزاء: ما ينكره العقل الرشيد، والفطرة السليمة من التَّسوية بين الأخيار والأشـرار، بين المتَّقين والفُجَّـار، بين مَن عاش عمـره لفعل الخيرات وعمل الصالحات، ولم يلق إلَّا التنكـر والاضطهاد، وربما قتله الجبابرة والظالمون، ومَن عاش عمره في ارتكاب الموبقات، وإشاعة المنكرات، وسفك الدماء، ونهب الأموال، وهتك الأعراض، ومع هذا لم يلق جزاءه العادل في الدنيا؛ لأنَّه احتـال على القانون، أو كان أقوى من القانون، أو كان هو حارس القانون، ولكن كان كما قال المثل: «حاميها حراميها»!

إنَّ هذه التَّسـوية بين المختلفين في الإيمان والكفر، والخير والشر، هي الباطل الَّذي يتنزَّه الخالق الحكيم عنه، والحق ـ في نظر القرآن ـ هو جزاء الَّذين أساؤوا بما عملوا، والذين أحسنوا بالحُسْنى، يقول القرآن:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ۞ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٧، ٢٨].

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۞ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١، ٢٢].

* * *

QaradawiBooks.com

٧

رعاية سنن الله في الكون والمجتمع

ومن معالم «العقليَّة العلميَّة» الَّتي ينشئها القرآن: احترام السنن والقوانين الَّتي أقام الله عليها نظام الكون، ونظام المجتمع، وهي سنن وقوانين لها صفة العموم والشمول، فهي تحكم على النَّاس جميعًا، أبيضهم وأسودهم، عربهم وعجمهم، حاضرهم وباديهم، قويهم وضعيفهم. لا تُحابي أحدًا، ولا تَتحامى أحدًا، الكل في ميزانها سواء.

كما أنَّ لها صفة الثبات والدوام، فهي لا تتغيَّر ولا تتبدَّل، وهي تجري على الآخرين كما جرَت على الأوَّلين، وتعمل في عصر سفن الفضاء، عملها في عصر الجمل سفينة الصحراء.

يقول الله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

وقد ذكر القرآن كلمة «سنن» مجموعة منكَّرة، كما في هذه الآية، كما وردت مفردة ومُعرَّفة بالإضافة كما في الآيات الأخرى.

اقرأ في ذلك هذه الآيات من القرآن المكي:

﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦، ٧٧].

QaradawiBooks.com

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۝ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٢، ٤٣].

واقرأ في القرآن المدني: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

كان هذا تعقيبًا على قصَّة زينب بنت جحش وطلاقها من زيد بن حارثة مُتبنَّى الرسول ﷺ، وتحرُّجه من ذلك، حتَّى لا يقال: تزوَّج محمد امرأة ابنه! وفي السورة نفسها: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ۝ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ۝ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠ ـ ٦٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ قَـٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢٢، ٢٣].

والملاحظ: أنَّ هذه الآيات كلها ـ مكيَّة ومدنيَّة ـ: أكَّدت ثبات السُّنَّة واطِّرادها ودوامها، كما أنَّها جميعًا تتحدَّث عن السنن الاجتماعيَّة.

أعني: سنن الله في الاجتماع البشري: في النصر والهزيمة، والنجاة والهلاك، والبقاء والزوال.

ومن أجل ذلك أنكر القرآن ـ تعلم وممارسة ـ السحر، واعتبره من عمل الشياطين، ومن أساليب الكفرة، واعتبره كفرًا أو قريبًا من الكفر، وعدَّ تعليمه ممَّا يضر ولا ينفع. قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ

QaradawiBooks.com

ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٠٢].

والرسول ﷺ أكَّدَ وجوب رعاية سنن الله تعالى، بقوله وعمله وتقريره، كما هو واضح في سُنَّته وسيرته.

حينما كُسِفت الشمس يوم مات ابنه إبراهيم، قال الناس: كُسفت الشمس لموت إبراهيم، وقد كان شائعًا في اعتقادهم أنَّ الشمس لا تُكسفَ، والقمر لا يُخسَف، إلَّا لموت عظيم في الناس، ولو كان عليه الصلاة والسلام ممَّن يسكت على باطل لسكت على هذا القول الَّذي يُضْفي على أُسرته هالةً من العظمة والقدسية الزائفة، ولكنَّه أنكر ذلك ورفضه جهرة، وخطب في النَّاس قائلًا: «**إنَّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فادْعوا الله وكبِّروا وصلُّوا وتَصَدَّقوا**»(١).

وقد أنكر ﷺ كلَّ ما لا يقوم على السنن الطبيعيَّة والاجتماعية في أُمور الحياة والرزق والطب والتداوي والعلاقات المختلفة.

ومن هنا أكَّد الرسول ﷺ تحريم السحر، وجعله من الكبائر أو «الموبقات»، أي: المهلكات الَّتي يجب تحذير الأُمة منها، فقال: «**اجتنبوا السبع الموبقات: الشرك بالله تعالى، والسحر، وقتل النفس...**» الحديث(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٠٤٤)، ومسلم (٩٠١)، كلاهما في الكسوف، عن عائشة.
(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الوصايا (٢٧٦٦)، ومسلم في الإيمان (٨٩)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

وأنكر كذلك «التنجيم» الَّذي يقوم على التنبؤ بالغيبيَّات والمستقبليَّات، وربط ذلك بالنجوم، وحركاتها فيما زعموا، وهو الَّذي قيل فيه: «**كذب المنجِّمون ولو صدقوا**». وهو غير علم الفلك الَّذي يقوم على أساس من المشاهدة والحسابات الرياضيَّة.

يقول الرسول الكريم: «**مَن اقتبس علمًا من النجوم، فقد اقتبس شُعْبة من السحر، زاد ما زاد**»(١).

وشـدَّدَ النكير على اتِّخاذ التمائم والرُّقَى الجاهلية، وأمر بمراعاة الأسباب الطبيعيَّة في التداوي والعلاج.

روى عنه ابن مسعود قوله: «**إنَّ الرقَى والتمائم والتِّوَلة شرك**»(٢).

والتِّوَلة (بكسر التاء وفتح الواو): شيء يصنعه النساء (من ضروب السحر) للتحبُّب إلى أزواجهنَّ.

وقال: «**مَن علَّق تميمة فقد أشرك**»(٣).

إنَّ المسلمين في العصور الأُولى رعوا هذه السُّنن، واحترموا شبكة الأسباب والمُسبَّبات، فأقاموا حضارة مُثْلَى، نشأت في رحابها علوم كونيَّة ورياضيَّة، امتدت جذوعها، وبسقت فروعها، وآتت أُكلها بإذن ربها.

(١) سبق تخريجه صـ١٥١.

(٢) رواه أحمد (٣٦١٥)، وقال مخرِّجوه: صحيح لغيره. وأبو داود (٣٨٨٣)، وابن ماجه (٣٥٣٠)، كلاهما في الطب، وصحَّحه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٨٤٥).

(٣) رواه أحمد (١٧٤٢٢)، وقال مخرِّجوه: إسناده قوي. وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٤٩٢)، عن عقبة بن عامر.

QaradawiBooks.com

موسوعة الأعمال الكاملة
لسماحة الإمام
يوسف القرضاوي

الفصل السادس

الإعجاز العلمي في القرآن

- القرآن هو المعجزة الكبرى.
- الإعجاز العلمي للقرآن.
- ضوابط ومحاذير.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية

الإعجاز العلمي في القرآن

من خصائص القرآن الكريم: أنَّه كتاب «معجز». فقد جعله الله تعالى الآية الكبرى، والمعجزة العظمى لخاتم رسله محمد ﷺ، بل جعله الآية الوحيدة المُتحدَّى بها، فلم يتحدَّ المشركين ـ بأيِّ آية من الآيات الَّتي منحه الله إيَّاها على كثرتها وتنوعها ـ إلَّا بالقرآن. حتَّى آية الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وآية المعراج من المسجد الأقصى إلى السماوات العلى، إلى سدرة المنتهى، لم يعتبرهما القرآن آية يتحدى بها، إنَّما تحدَّاهم بالقرآن، وبالقرآن وحده.

فقد تحدَّاهم أن يأتوا بحديثٍ مثله، ثم تنزَّل، فتحدَّاهم بأن يأتوا بعشر سور مثله «مفتريات»!

ثم تنزَّل، فتحدَّاهم أن يأتوا بسورةٍ من مثله، ووقفوا أمام هذا التَّحدي ـ الذي تكرَّر في مكة، ثم في المدينة ـ عاجزين، بل في سورة البقرة المدنيَّة تحدَّاهم تحديًا آخر، إذ أعلن أنَّهم ـ برغم استعانتهم بمن شاؤوا ومَن استطاعوا ـ لن يفعلوا شيئًا، ولن يقدروا على إجابة التحدِّي، فقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].

QaradawiBooks.com

وهكذا حقَّت عليهم الغَلَبة، وخرست ألســنتهم الفصيحة برغم قوَّة الدوافع الَّتي تدفعهم إلى المغَالَبــة والمقاومة للتحدِّي، وصدق قول الله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

❊ ❊ ❊

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

القرآن هو المعجزة الكبرى

إلحاح المشركين في طلب الآيات الخارقة ورد القرآن الكريم:

كثيرًا ما طلب المشركون ـ وألحُّوا في طلبهم ـ آية كونيَّة خارقة، كالآيات الَّتي عُرِفت عن الرُّسل السابقين، مثل ناقة صالح، ومثل عصا موسى، ومثل ما آتى الله المسيح عيسى من إحياء الموتى وإبراء الأَكْمَه والأبرص بإذن الله، والنفخ في الطين المُصوَّر كهيئة الطير، فيكون طيرًا بإذن الله، ولكنَّ القرآن لم يجبهم إلى طلبهم، الَّذي حكاه عنهم في أكثر من سورة، وردَّ عليهم بأكثر من جواب.

نقرأ في سورة الأنعام قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧].

وفي سورة الرعد: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧].

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧].

QaradawiBooks.com

وقد بيَّن في أكثر من ســورة: لماذا لم ينزل عليهــم ما اقترحوا من الآيات الكونيَّة؟

ففي سورة الإســراء يقول تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾ [الإسراء: ٥٩].

ومعناهــا: أنَّ الآيات لم تحقِّــق الهدف من إرســالها، وهو الإيمان بالرُّسُل، بل كذَّبوا بالآيات ولم يعبؤوا بها!

وفي سورة الشعراء يذكر سببًا آخر، إذ يقول: ﴿إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤].

ومعناها: أنَّه لا يريــد أن يلجئهم إلــى الإيمان إلجــاءً بآية خارقة، تسوقهم إلى الإيمان وكأنَّهم مُكرَهون عليه.

بل المراد أن يدخلوا في رحاب الإيمان باختيارهم الحر، واقتناعهم العقلي الخالص، دون أدنى شائبةٍ لإكراهٍ ماديٍّ أو معنويٍّ ـ أو ما يشبهه أو يقترب منه ـ تخضع له أعناقهم، وتذلُّ له رقابهم.

وفي ســورة أُخرى يردُّ عليهم ردًّا جديدًا، وهــو أنَّ لديهم آية بَيِّنة، تكفيهم عن كل الآيات، وهي القرآن العظيم، يقول تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۞ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٠، ٥١].

كان يكفيهم هذا الكتاب آية كبرى، لو كانــوا يعقلون، ولكنَّه العناد والمكابرة والتعنُّت والإصرار على الباطل، هي الَّتي جعلتهم يبالغون في

QaradawiBooks.com

اقتراح الآيات. ولو أنَّهم أُجيبوا إلى ما طلبوا ما آمنوا، فهم يعرفون الحقَّ، ولكنَّهم يجْحدونه ظلمًا وعُلوًّا، أو بغيًا وحسدًا من عند أنفسهم من بعد ما تبيَّن لهم الحق.

وهذا ما ذكره القرآن بصراحةٍ مدهشة، في أكثر من موضع، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١].

ويقول ﷻ: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥].

القرآن هو المعجزة الكبرى:

أجل.. كان يكفيهم القرآن، لو كانوا يبحثون ـ بحق وصدق ـ عن الحقيقة، فهو آية الله الَّتي أعجزت البَشر أن يأتوا بمثلها، أو ببعضها.

وإعجاز القرآن للبَشر: موضوع رحْب بحث فيه الأقدمون، وزاد فيه المُحدَثون، ووجوه الإعجاز القرآني كثيرة، أظهرها: الإعجاز البياني والأدبي، وقد كتب فيه الكثيرون قديمًا، منهم: الإمام أبو بكر الباقلاني.

وكتب فيه الكثيرون حديثًا، مثل الأديب المعروف: مصطفى صادق الرافعي، وشيخنا الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه الفريد «النبأ العظيم»، والأستاذ سيد قطب في «التصوير الفنِّي في القرآن»، والدكتور بدوي طبانة في كتابه «بلاغة القرآن»، والدكتورة بنت الشاطئ في تفسيرها البياني للقرآن.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وهنـــاك لون مـــن الإعجاز أشـــار إليـــه القدمـــاء، وتوسَّـــع فيه المعاصرون، وهو ما تضمَّنه القرآن من تشريعات وتوجيهات وتعاليم، جمعت بين المثاليَّـــة والواقعيَّة، ومزجت بيـــن الروحانيَّة والماديَّة، ووازنت بين الدنيـــا والآخرة، ووفَّقـــت بين حرية الفـــرد ومصلحة المجتمع، وقد كتب في ذلك السيد رشيد رضا كتابه الشهير «الوحي المحمدي»، مجـــدِّدًا فيه التَّحدِّي بالقرآن من جديـــد بما تضمَّنه من مقاصد، وما دعا إليه من إصلاح.

كما كتب في ذلك الشـــيخ محمد أبو زهـــرة جملة مقالات تحت عنوان «شـــريعة القرآن دليـــل على أنَّه مـــن عند الله» نشـــرتها مجلة «المســـلمون» الشـــهرية، الَّتي كان يُصدرها الداعية المعروف الأستاذ سعيد رمضان رَحِمَهُ اللَّهُ.

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الإعجاز العلمي للقرآن
ضوابط ومحاذير

أمَّا اللونُ الآخر من الإعجاز الَّذي كثُر الحديث عنه في عصرنا وانتشر انتشارًا بالغًا، وأُلِّفت فيه الكتب، وعُقِدت له المؤتمرات، وأُنشِئت له هيئات، واختلف النَّاس بين مُؤيِّد له ومعارض، فهو ما يُعرف بـ «الإعجاز العلمي للقرآن».

ولا يشك متخصِّص متعمق في علمه، دارس للقرآن، معايش له: أنَّه قد تضمَّن إشارات علميَّة، بل حقائق علميَّة، تُعتبر من «باب الإعجاز»؛ لأنَّها فوق مستوى العصر الَّذي أُنزل فيه القرآن، والأُمة الَّتي أُنزل لها القرآن، والرجل الَّذي أُنزل عليه القرآن. فهو ـ باتفاق الجميع موافقين ومخالفين ـ أُمِّيٌّ من أُمَّة أُمِّيَّة، لا تكتب ولا تحسب. وهذا ما سَجَّله القرآن بجلاء: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

من هذه الحقائق الَّتي سَجَّلها القرآن، وسبَق بها العلم الحديث: أنَّ الماء أصل الحياة، وأنَّ الكائنات الحيَّة كلها مخلوقة من الماء، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [النور: ٤٥].

ومن هذه الحقائق: ظاهرة الازدواج أو «الزوجيَّة» في الكون كله، لا يقتصر ذلك على الذكورة والأُنوثة في الإنسان والحيوان، وبعض

QaradawiBooks.com

النبات كالنخيل، كما كان يعرف النَّاس في عصر القرآن، بل هي ظاهرة كونيَّة، وقانون كُلِّيٌّ عام، يشمل الإنسان والحيوان والنبات والجماد، وهو ما ذكره القرآن في قوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس: ٣٦]. وما أروع قوله تعالى في ختام هذه الآية: ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾؛ ليدلَّ على أنَّ هذه الحقيقة أكبر من علم النَّاس ومعارفهم في ذلك الزمان.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٩].

وقد كان بعض المُفسِّرين القُدامى يتأوَّل هذه الصيغة: ﴿كُلِّ شَىْءٍ ﴾ بأنَّ المراد بها «الأغلبيَّة» وليست على ظاهرها، والأصل هو بقاء الألفاظ والعبارات على ظاهرها، دون اللجوء إلى التأويل، إلَّا إذا وُجِد ما يمنع من ذلك، وقد أكَّد العلم الحديث هذه «الكليَّة» القرآنيَّة، وصدق ظاهر القرآن.

ومن هذه الحقائق: ما ذكره القرآن في أطوار تكوين الجنين منذ كان نطفة فعلقَة فمُضغة مُخلَّقَة وغير مُخلَّقة، إلى أن خُلِقت المُضْغة عظامًا، فكُسيت العظام لحمًا، ثم أنشأه الله خلقًا آخر، وهو تصوير دقيق لم يعرفه العلم والطب إلَّا منذ زمن قريب. كما شَهِد بذلك كبار الأطباء والعلماء المتخصِّصون في «علم الأجِنَّة».

يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٤].

QaradawiBooks.com

ويقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ﴾ [الحج: ٥].

ومن الحقائق العلميَّة قوله تعالى في بيان الطبيعة الجَماعيَّة للحيوانات والطيور: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ﴾ [الأنعام: ٣٨].

ومن الإشارات القرآنيَّة قوله تعالى في وسائل المواصلات، بعد أن ذكر الدوابَّ الَّتي كان يستخدمها النَّاس في تلك العصور في الانتقال: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٨].

فكأنَّما يشير إلى ما عرفناه في عصرنا من القطارات والسيَّارات والبواخر والطائرات والصواريخ وغيرها ممَّا نعلمه، وما لا نعلمه، ممَّا قد يأتينا به الغد المجهول. وهو نوع من الإنْباء بالغيب.

ومن الإشارات القرآنيَّة قوله تعالى في بيان عِظَم أجرام النجوم الَّتي يراها الإنسان في السماء صغيرة كأنَّها نقطة ضوء، وقد تكون أكبر من الأرض ـ كل الأرض ـ بملايين المرات: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥، ٧٦].

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾ [النجم: ٤٩].

ومن الإشارات القرآنيَّة قوله تعالى في تأييد النظرية الَّتي تفترض وجود كائنات حيَّة في عالَم الأفلاك: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ﴾ [الشورى: ٢٩].

QaradawiBooks.com

فقوله: ﴿وَمَا بَثَّ﴾ يعودُ على السماوات والأرض، وقوله: ﴿مِن دَآبَّةٍۚ﴾ يدل على الأحيـاء الَّتي تدبُّ على الأرض، وليس المـراد بها الملائكة قطعًا؛ لأنَّ الملائكة ممَّا «يطير» بجناحيه، وليس ممَّا «يدبُّ».

وفي آية أخرى ما يقطع بذلك، وهي قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٤٩].

ومن هذه الإشـارات ما ذكرناه من قبل في قولـه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ [سـبأ: ٤٦]. فقوله: ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ يشير إلى ما أكَّده علم النفس الحديث من تأثير الغوغائيَّة أو ما يسـمَّى «العقل الجَمعي» على سلامة الإدراك، وسَداد الحكم على الأشياء، لذا طلب من الإنسان أن يفكر وحده، أو مع صديق مخلص له، في هدوء وإخلاص، حتَّى يصل إلى الحقيقة.

والأمثلة كثيرة، والعلماء المتمكِّنون في علومهم الكونيَّة والرياضيَّة، بل والإنسانية، الَّذين يعايشون القرآن ـ ولهم ثقافة عربية وإسلامية مناسبة ـ يجدون روائع في هذا المجال، تُعجب وتروق وتُبهر.

وقد اجتهد أخونا الداعية الإسـلامية الشـهير الشـيخ عبد المجيد الزنداني بحماسه المعروف للإعجاز العلمي حتَّى أقام لهذا الإعجاز هيئة علمية في رابطة العالم الإسلامي، قدَّمت دراسات، وأقامت مؤتمرات.

ضوابط ومحاذير:

وكل ما أحذِّر منه هنـا، ما يقوم به بعض الكاتبيـن المتعجِّلين من افتعال وتمحُّل، لاسـتخراج معنى من آية يدخل في «الإعجاز العلمي»، وهو معنى مقحم على الآية متكلَّف لا ينبغي حمل كلام الله عليه.

QaradawiBooks.com

وذلك مثل قول بعضهم في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١]. ففسَّر النَّفسَ الواحدة بـ «الإلكترون» في «الذَرَّة»، وزوجها الَّذي خُلق منها بـ «البروتون»!

وهو اعتسافٌ لا تدلُّ عليه الألفاظ ولا السياق، بل السياق يرفضه تمامًا، بدليل قوله في تتمة الآية: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾!

ومثل ذلك ما زعمه بعضهم: أنَّ القرآن أشار إلى فكرة «تحطيم الذَرَّة» حين ذكر أنَّ هناك ما هو أصغر من الذَرَّة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

فإنَّ كلمة «ذَرَّة» عند العرب في عصر نزول القرآن، وبالتالي في القرآن: لا تدلُّ على المعنى الاصطلاحي الَّذي نعرفه اليوم في علم «الفيزياء». ولا يجوز أن نحمِل ألفاظ القرآن على المصطلحات الحادثة بعد عصر نزوله، لأنَّ ذلك يُعَدُّ شرودًا عن المنهج القويم في الفهم والاستنباط.

كما لا يجوز أن ندخل في هذا المجال «الفروض العلميَّة» الَّتي لم تزل موضع أخذ ورد، وجذْبٍ وشدٍّ، بين أهل الاختصاص من العلماء، فلا يليق بمن يتبنَّى هذه الفروض أن يحاول جرَّ القرآن الكريم لتأييد فرضه، وقد يثبت بطلانه بعد أمد، فنُعرِّض معه كلام الله تعالى للقيل والقال.

ومن ناحية ثالثة: لا يجوز أن يكون هذا الفهم الجديد للآية مبْطلًا

QaradawiBooks.com

للأفهام السابقة، بحيث لا ينبغي أن نتَّهم الأُمة كلها منذ عهد الصحابة ﷺ، بل ربما الرَّسُول نفسه، بأنَّهم لم يكونوا يفهمون الآية، وأنَّ كل ما ورد عنهم في تفسيرها باطل، وأنَّ المعنى الوحيد الصحيح هو ما فهمه الكاتب أو المفسِّر الجديد.

وإنَّما اللائق هنا أن يكون هذا المعنى إضافة جديدة، تُضَمُّ إلى ما سبق، ولا تبطله، فمن خصائص هذا القرآن: أنَّه «**لا تنقضي عجائبه**»(1).

وأعرف من إخواننا العلماء الطبيعيين المشغولين بدراسة القرآن، وبالثقافة الإسلامية عامة: مَن يحرصون كل الحرص على رعاية هذه الضوابط، واتقاء تلك المحاذير.

من هؤلاء أخونا الأستاذ الدكتور زغلول النجار أستاذ العلوم الجيولوجيَّة، وله كتابات متعددة في هذا الجانب، واتَّسمت بالتوازن، والبُعْد عن الغلو.

ومن هؤلاء صديقنا الأستاذ الدكتور عبد الحافظ حلمي أستاذ العلوم البيولوجية، وله أكثر من دراسة ومشاركة في هذا المجال.

ومن ذلك بحث قدَّمه في أحد المؤتمرات عن موقف علماء الطبيعة من الثقافة الإسلامية.

ما هو مطلوب من علماء الكون المؤمنين؟

وقد بيَّن في هذا البحث ماذا ينبغي على العالِم الطبيعي المؤمن بالله تعالى، وبرسوله الكريم، وبكتابه العظيم، فقال:

(١) رواه الترمذي في فضائل القرآن (٢٩٠٦) وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال. وضعفه الألباني في الضعيفة (٦٣٩٣)، عن علي بن أبي طالب.

QaradawiBooks.com

«ولكن ماذا هـو مطلوب من علمـاء الطبيعة المؤمنيـن؟! قلنا: إنَّ المؤمنين أُمِروا بالنظـر في آيات الكون. وقلنا: إنَّ هـذا النَّظر درجات. فالتعمُّق فيها فرض كفاية على القادرين عليه، ويرى الإمام الغزالي ـ في «إحياء علوم الدين» ـ أنَّ الطب والحسـاب اللذيْنِ لا يُسْتغنى عنهما في قوام أُمور الدنيا، من فروض الكفايات. أمَّا التعمق في دقائق الحسـاب وحقائق الطب فهو يعد فضيلة لا فريضة. ولكنَّني لست في حاجة إلى أن أزيد على ما قاله حُجَّة الإسلام ﵁ أنَّ المسـألة هنا تقديرية، وتختلف حدودها من عصر إلى عصرٍ، فلا شـك أنَّ مـا كان بالأمس فضيلة، قد يصبح اليوم فريضة.

وعلماء الطبيعـة المؤمنون مُكلَّفون أيضًا بتبصـرة غيرهم بعلومهم وبما انتهى إليه بحثهم. وعلـى القادرين منهم أن يتصدوا لخدمة كتاب الله العزيز. فمن قبل أُسِّسـت علوم النحو والصرف والبلاغة وفقه اللغة وما إليها من فنون العربية وآدابها، لأسباب أهمها تقديم العون لدراسة القرآن الكريم وتدوين تفاسير له. ومن ثَمَّ سُمِّيت بالعلوم الخادمة لعلم التفسـير الشـريف. وأعتقد أنَّ العلوم الطبيعيَّة الحديثة ينبغي أن تتقدَّم لتنال شـرف هذه الخدمة في هذا الزمان وهـذا بالتحديد هو وظيفتها العظيمة المتواضعة. ولكن على كل مَن يتصدون للقيام بهذا الواجب أن يتَّخذوا الأُهبة الكاملة للقيام به. ففضلًا عن تمكُّنهم في علومهم، عليهم أن يلمُّوا إلمامًا طيِّبًا بأسرار بلاغة القرآن، وأن يَطَّلعوا على أُمهات كتب التفسير اطِّلاعَ المتعلم المتأنِّي، لا اطِّلاع المتهَجِّم العجول، وعليهم أن يسـألوا أهل الذكر فيما لا يعلمون. وينبغي ألَّا يُترك هذا الأمر الجليل لكل مَن هَبَّ ودَبَّ!

QaradawiBooks.com

وآيات القرآن الكريم مُيسَّــرةٌ للنظر الفِطري البسيط، والنظر المتأمِّل المتعمِّق، لأنَّها أُرســلت للناس كافَّة وفي كل زمان. فالسماوات ـ مثلًا ـ آيات رائعة معجزة عند الأُمِّي وعند عالم الفلك المتخصِّص على السواء، كلٌّ منهما بقدر إدراكه. والإبل في خلقهــا آيات تبدو للبدوي وتخاطب فِطرته الســليمة، وما زالت ـ في الوقت نفســه، وهي بالذات ـ تتحدَّى بحوث العلماء في القرن العشرين.. وهكذا في عشرات من الأمثلة، وهذا سرٌّ من أسرار بلاغة القرآن: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

وعلى هذا فليس من الجائز ـ في رأيي ـ قبول تفسيرٍ عصريٍّ لآية من القرآن الكريم يجزم صاحبــه بأنَّه هو وحده المراد مــن الآية، وأنَّ هذا المعنى لم يتكشَّف إلَّا في هذا الزمان.. وإنَّما هو العلم، بطبيعته النامية المَرِنة، يفتح من مغاليق الأسرار كل يوم بابًا، ولا يبطل حديثُه قديمَه.

إنَّ تقديم هذه الخدمة لفهم القرآن الكريم ليس في حاجة إلى تمحُّل أو افتعال، فما أغنى كتــاب الله عن هذا كله الَّذي يقال بمناســبة وبغير مناســبة في هذه الأيام، والقول بما يســمَّى «الإعجــاز العلمي للقرآن الكريم» مســألة دقيقة للغاية، ويجب أن يوزن بموازين علمية وتاريخية دقيقة. والحرص على أن يوضع القرآن الكريم والعلم الحديث في سباق، حرصٌ له محاذيره، وليس له في كثير من الأحيان ما يبرِّره، ولِمَ كل هذا التكلف يا ســادَة؟ إنَّكــم لا تهدون مَــن أحببتم، فمجــرَّد العلم وحده لا يكفي للإيمان، إنَّما ينبغي أن تســبقَه هذه الفطرة الســليمة، والرغبة الأكيدة لمعرفة الحق.. ولا بــدَّ له من هذه الجذوة الَّتــي يُلقيها الله في قلوب عباده الَّذين ينشدون معرفته.

QaradawiBooks.com

وقد تأكد عندي هذا المعنى ـ على الأخص ـ عندما صعد أحد رُوَّاد الفضاء الروس خارج مدار الأرض، ورأى ما لم تره عينا بَشَر من مُلْك الله. فماذا قال؟ قال ساخرًا: إنَّني لم أر الله في السماء! وعندما صعد أمريكي مؤمن، ومرَّ بالتجربة نفسها، قال: لم أكن قريبًا من الله قربي منه في تلك اللَّحظة!

وما من شك في أنَّ بعض مَن حاولوا التعليق العلمي على تفسير آيِ الذكر الحكيم، قد خانهم التوفيق، كمن تهجَّم على الغيبيَّات بغير علم وبلا ضرورة، يُصوِّرها كما زيَّنها له خياله أو هواه، أو مَن تَحدَّثوا عن الذَرَّة وانشطارها، أو عن النفاذ من أقطار السماوات والأرض بسلطان العلم، أو أنَّ إتيان الله الأرض ينقصها من أطرافها: المقصود منه هو قصر محورها العمودي بمقادير محسوبة على مدى الآلاف أو الملايين من السنين، أو يتمحَّل المعاني ويشدُّ الألفاظ من تلابيبها مدلِّلًا على كرويَّة الأرض، وما إلى ذلك. فغنيٌّ عن القول أنَّ هذا كله مخالف للعلم وللتفسير والمنطق وسياق القرآن الكريم جميعًا. ومع أنَّ هذا يحتاج إلى رد وتصويب، إلَّا أنَّه ليس مبرِّرًا لأن ننكِص على أعقابنا، ولو من باب سدِّ الذرائع، وأذكر للمتمحلين والمفتعلين أنَّ هذه الأُمور كلها ليست عقائد، ثم إنَّها ليست في حاجة إلى كتاب عزيز أو رسول من السماء، والحال أنَّ الله قد وهب الإنسان خليفته في الأرض من المَلَكات ما يستطيع بها تحصيلها وإدراكَها.

ثم إنَّها لم تكن صالحة في معظم الأزمنة الماضية للدعوة إلى الإيمان بجوهر الدين، لأنَّها سلسلة من المقدِّمات والنتائج لكلٍّ منها أوانٌ مناسب له، ووسائل متطورة لإظهاره. ومع ذلك فالقرآن الكريم ـ كما ذكرنا ـ أطلق الفكر وحثَّ الإنسان على أن يعلم، ولكن بوسائل العلم ومداخله الطبيعيَّة، من التفكير والتدبُّر، وإزالة الغشاوات عن الأبصار والبصائر،

QaradawiBooks.com

وتحطيم الأقفال عن الأفئدة والعقول.. وكان هذا خيرًا وأبقى من أيِّ كتاب في العلم، لأنَّه مهما كبُر حجمًا أو عظُم شأنًا فهو كتاب محدود، أمَّا إيقاد جذوة الفكر وطلب العلم فهي هبةٌ لا تخبو ونعمةٌ لا تنتهي.

إنَّ موريس بوكاي، الطبيب والباحث الفرنسي، يقول في كتابه الَّذي نُشرت ترجمته العربية منذ شهور بعنوان: «دراسة الكتب المقدَّسة في ضوء المعارف الحديثة»: «لقد أثارت هذه الجوانب العلميَّة الَّتي يختصُّ بها القرآن دهشتي العميقة في البداية، فلم أكن أعتقد قط بإمكان اكتشاف عدد كبير إلى هذا الحدِّ من الدعاوى الخاصَّة بموضوعات عديدة التنوع ومطابقة تمامًا للمعارف العلمية الحديثة، وذلك في نَصٍّ كُتِب من أكثر من ثلاثة عشر قرنًا»[1] (مع تحفظي على لفظة «كُتِب». وهي في الترجمة الإنجليزية، الَّتي اشترك المؤلف نفسه في إعدادها، اللَّفظ المقابل هو «جمع» Compiled).

وهو ينتهي إلى أنَّ ما جاء في القرآن الكريم مطبوع «بإيجاز في القول والاتفاق مع المعطيات الحديثة للعلم». وأنَّه لم يجد في القرآن الكريم ما ينافي العلم الحديث. وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

إنَّ توضيح تفسير القرآن الكريم بما يناسبه من حقائق العلم، بالتحفُّظات الَّتي ذكرتها والشروط الَّتي ذكرت أهمها، مفيدٌ للمؤمنين، يثبِّت إيمانهم، ويزيل أوهامهم وشكوكهم، ويزيدهم هُدًى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤]. كما أنَّه قد يكون

(١) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة لموريس بوكاي صـ ١٤٤، نشر دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٨م.

QaradawiBooks.com

كذلك مقنعًا لغيرهم ممَّن يشرح الله قلبه للإيمان. هذا فضلًا عن تزويده طُلاب العلوم الدينيَّة وقارئيها بمقدار من الثقافة العلميَّة اللازمة لحُسن فهمهم لما يقرأون، ولإلمامهم بشيء من صميم طبيعة العصر الَّذي يحيون فيه، وهذا يعينهم ويزيد كفاءتهم لإرشاد النَّاس وهدايتهم، فضلًا عن تقريبه للفجوة بين أهل الثقافتين، وأخشى ـ إن لم نفعل هذا ونحرص عليه ـ تحوَّل كتاب الله من رسالة خالدة متجدِّدة الإعجاز والإقناع إلى تراث عتيق. وهذا هو غاية ما يبْتغيه أعداء الدين، ولكنَّه بإذن الله لن يكون.

وأخيرًا، ثمَّة أمر آخر ينبغي على علماء الطبيعة أن يفعلوه، وعلى الأخص إن كانوا معلِّمين. وهو أنَّه ينبغي عليهم أن يقدِّموا علمهم نابعًا من إيمانهم، ومنتميًا إليهم وإلى وطنهم وبيئتهم. فهناك عشرات من المواضع الَّتي يستطيعون فيها أن يُكسبوا دروسهم ومحاضراتهم ألوانًا إنسانيَّة جذَّابة للقلب والعقل معًا. بدلًا من كونها صفحات أو فصولًا مستوردة من علم الغرب، غريبة على سامعيها، دخيلة عليهم، ولا يسارعنَّ أحدٌ بالرد عليَّ بأنَّ العلم عالميٌّ لا وطن له، وأنَّ حقائقه صادقة في الغرب صدقها في الشرق، فهذا صحيح، ولكنَّني أعتقد أنَّ حقائق العلم يمكن أن تُقدَّم في أساليب جديدة قريبة إلى أفهام المستمعين، ونافذة إلى صميم كيانهم الذهني. وأؤكد لكم أنَّ هذا مستطاع دون أن ينتقص من دقة العلوم شيئًا. طبعًا مع التحفُّظ الواجب بتجنُّب التمحُّل والافتعال»[1].

* * *

(١) راجع بحث: موقف علماء الطبيعة من الثقافة الإسلامية للدكتور عبد الحافظ حلمي.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

موسوعة الأعمال الكاملة
لسماحة الإمام
يوسف القرضاوي

الفهارس العامة

- فهرس الأحاديث النبوية الشـــريفة.
- فهرس الموضوعات.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

الحديث	رقم الصفحة
أ	
اجتنبوا السبع الموبقات: الشرك بالله تعالى، والسحر، وقتل النفس...	٢٩٧
اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه	٩
اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي	٤٣
اللَّهُمَّ اغفرْ لقومي فإنَّهم لا يعلمون	١٠٨
اللَّهُمَّ إنِّي أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وبك منك	١٨٨
إنَّ الله بعثني معلِّمًا ميسِّرًا	٢٥٤
إنَّ اللهَ ضرب مثلًا صراطًا مستقيمًا، وعلى كَنَفَي الصراط سُوران لهما	٩٩
إنَّ الله لا يقبض العلمَ انتزاعًا ينتزعه من صدور النَّاس، ولكنْ يقبض العلم	٢٢٥
إنَّ الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا، ويضع به آخرين	٩٦
إنَّ الأمانة نزلت في جَذْر قلوبِ الرجال، ثم نزل القرآنُ	٩٩
إنَّ الأنبياءَ لم يورِّثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنَّما وَرِثوا العلم	٩٢
إنَّ الرقَى والتمائم والتِّوَلة شرك	٢٩٨
إنَّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته	٢٩٧

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
إنَّ لله أهلين من الناس، أهل القرآن هم أهل الله وخاصته	٩
أنَّ موسى قام خطيبًا في بني إسرائيل، فسُئِل أي الناس أعلم؟ فقال: أنا	٥، ٢٣٣
ب	
بعُثِتُ أنا والساعة كهاتين	١٩١
ت	
تفكَّروا في آلاء الله، ولا تَفَكَّروا في الله فتهلكوا، أو تفكروا في خلق الله	٣٢، ١٨٧
س	
سبحانك لا أُحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيتَ على نفسك	١٩٠
سلوني عما شئتم قال رجل: من أبي؟ قال: أبوك حذافة	٢٢٨
ف	
فإذا أحببته كنت سمعه الَّذي يسمع به، وبصره الَّذي يبصر به	٤٠
فجاء عصفور، فوقع على حرف السفينة، فنقر نقرة أو نقرتين في البحر	٢٣١
فما يمنعكم أن تتَّبعوني؟	١١٥
فهو يعمل بها ويُعلِّمها للناس	٢٠٩
في النار. فلما قفَّى دعاه، فقال: إن أبي وأباك في النار	٢٢٨
ق	
قتلوه قتلهم الله! هلَّا سألوا إذ لم يعلموا؟ إنَّما شفاء العِيِّ السؤال	٢٢٥
ك	
كان خُلُقه القرآن	٧
كذب المنجِّمون ولو صدقوا	٢٩٨

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
ل	
لا أُحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيتَ على نفسك	١٨٨
لا ترضينَّ أحدًا بسخَط الله، ولا تَحْمَدنَّ أحدًا على فضله، ولا تَذُمَّنَّ أحدًا	١٢٧
لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إلَّا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمها	٢٤٠
لا تنقضي عجائبه	٣١٢
لا حَسدَ إلَّا في اثنتين: رجلٍ آتاه الله مالًا فَسلَّطه على هلكته في الحق	٢٠٩
لا يقضي القاضي وهو غضبان	٢٦٧
ليس الخبرُ كالمعاينة	١٣٠
م	
ما الدنيا في الآخرة إلَّا مثل ما يجعلُ أحدكم أصبعَه في اليمِّ، فلينظر بماذا يرجع؟	١٤، ٥٢
ما المسؤولُ عنها بأعلمَ من السائل	١٩١، ٢٥٨
مَثَلُ المؤمن الَّذي يقرأ القرآن كمَثَلِ الأُتْرُجَّة، طعمها طيّب وريحُها طيّب	١٠٠
مَن اقتبس علمًا من النجوم، فقد اقتبس شُعْبة من السحر، زاد ما زاد	١٥١، ٢٩٨
من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتَّى يرجع	٢١٨، ٢٣٥
من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا سلك اللهُ به طريقًا إلى الجنَّة	٥
مَن سُئل عن علم فكتمه، ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار	٢٥٦
مَن علَّق تميمة فقد أشرك	٢٩٨
من كتم علمًا عن أهله، ألجِم يوم القيامة لجامًا من النار	٢٥٦
مَن يُرد الله به خيرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّين	١٠٨
منهومان لا يشبعان: طالب علم، وطالب دنيا	٢٢١

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
و	
وذلك الداعي على رأس الصراط: كتاب الله، والداعي من فَوْقِ الصراط	٩٩
ي	
يا موسى؛ إنِّي على علم من علم الله علَّمنيه لا تعلمه أنت	٢٣٤
يحمل هذا العلم من كلِّ خَلَفٍ عُدوله، ينفون عنه تحريف الغالين	٨٣

❋ ❋ ❋

غير مرخص للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

فهرس الموضوعات

• من الدستور الإلٰهي للبشرية ٤

• من مشكاة النبوة الخاتمة ٥

• مقدمة ٧

• الفصل الأول: مكانة العقل والفكر في القرآن الكريم ١١

❖ العقل ومجاليه في القرآن ١٣

مادة (ع. ق. ل) في القرآن الكريم ١٣

صيغة «أفلا تعقلون» ١٣

كلمة «تعقلون» في القرآن ١٦

كلمة «يعقلون» مثبتة ومنفية ١٧

الآيات الكونيَّة مجالٌ لعمل العقل ٢٠

❖ إشادة القرآن بأُولي الألباب والنُّهى ٢٢

العقل باسم الفؤاد ٣٠

❖ التفكر ومجالاته في القرآن ٣٢

الكون كلُّه مجال للتفكير ٣٣

«التفكُّر» في الجوانب المعنويَّة ٣٤

«التَّفَكُّر» في الآيات التنزيليَّة ٣٦

التفكُّر المخلص مثْنى وفُرادى ٤١

QaradawiBooks.com

سَعَة مجالِ الفكر في نظر القرآن ٤٤

❖ **الدعوة إلى التذكُّر والاعتبار ٥٥**

❖ **شهادات المنصفين من المفكرين الغربيين بعقلانية القرآن ٦٤**

• **الفصل الثاني: فضل العلم ومنزلة العلماء في القرآن ٧٣**

❖ **فضل العلم ومنزلة العلماء في القرآن ٧٥**

مادة «ع ل م» في القرآن ٧٥

معنى العلم وأقسامه ٧٦

فضل العلم ٧٩

دلالة آيات الوحي الأولى ٧٩

القسم بالقلم ٨١

لا يستوي عالم وجاهل ٨١

أهل العلم أهل الخشية من الله ٨٢

شهادة الله والملائكة وأولي العلم بالتوحيد ٨٢

تفضيل آدم على الملائكة بالعلم ٨٥

كلُّ الأنبياء آتاهم الله العلم ٨٧

نوح عليه السلام ٨٧

إبراهيم الخليل عليه السلام ٨٧

لوط عليه السلام ٨٨

يوسف الصديق عليه السلام ٨٨

موسى كليم الله عليه السلام ٨٩

داود وابنه سليمان عليهما السلام ٩١

الخضر صاحب موسى ٩٣

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ٩٣
محمد خاتم الرسل ﷺ ٩٣
تنويه القرآن بفضائل أولي العلم ٩٤
العلم حياة ونور ٩٦

❖ **الصلة بين العلم والإيمان** ١٠١
العلم الحقيقي يهدي إلى الإيمان ١٠٢
العلم عندنا دين، والدِّين عندنا علم ١٠٢
أثر العلم في الاهتداء والفضيلة ١٠٤
اختلاف سقراط وأرسطو ١٠٤
اختلاف علماء الإسلام في القضية ١٠٥
القول الأول «العلم يستلزم الهداية» ١٠٥
احتجاجات هذا الفريق ١٠٥
القول الآخر «العلم لا يستلزم الهداية» ١١٠
أدلَّة هذا الفريق ١١٠
أقسام الكفر ١١٥
حكم ابن القَيِّم بين الفريقين ١١٨
موانع الاهتداء إلى الحقِّ ١١٩

❖ **العلم سبيل اليقين** ١٢٤
درجات اليقين ١٢٩
درجة علم اليقين ١٢٩
درجة عين اليقين ١٣٠
درجة حق اليقين ١٣١

❖ **العلم شرط في كل منصب قيادي** ١٣٢

❖ **ذمُّ كلِّ أمرٍ قام على غير علم** ١٣٦

QaradawiBooks.com

١ ـ الجدال بغير علم ١٣٦
٢ ـ الخوض في الأعراض بغير علم ١٣٧
٣ ـ دعوى الجبريَّة بغير علم ١٣٧
٤ ـ دعوى التَّحريم والتحليل بغير علم ١٣٨
٥ ـ الشِّرك ضلال بغير علم ١٣٩
٦ ـ الإضلال عن سبيل الله بغير علم ١٤٠
ذم الجهالة والجاهلين ١٤١
ذم الجاهلية ١٤١
الإعراض عن الجاهلين ١٤١
من مظاهر الجهل الَّذي ذمَّه في القرآن ١٤٢
الهزل في موضع الجِد ١٤٢
تغليب العاطفة على العقل ١٤٢
الجمود على الأفكار الضالة والسلوك المنحرف ١٤٣
معصية الله من دلائل الجهل ولوازمه ١٤٥
الجهل المركَّب ١٤٦

❖ **العلم المذموم في القرآن ١٤٩**
العلم الَّذي يضر ولا ينفع «السحر» ١٤٩
التنجيم شُعْبةٌ من السحر ١٥١
العلم الَّذي يكتمه صاحبُه عن أهله ١٥٣
العلم الَّذي لا يعمل به صاحبه ١٥٤
العلم المادي الَّذي يعارض علم النبوة ١٥٥
العلم بظاهرة الحياة الدنيا مع الغفلة عن الآخرة ١٥٥
العلم الَّذي يغرُّ صاحبه بالثروة أو السُّلْطة ١٥٥
العلم الَّذي يؤدي إلى اختلاف الكلمة بغيًا بين أهله ١٥٦

QaradawiBooks.com

• **الفصل الثالث: العلم والفقه والحكمة في لسان القرآن** **١٥٧**

❖ **شمول العلم وتنوُّعه في لسان القرآن** **١٥٩**

العلم الكوني في القرآن ١٥٩

أمثال القرآن لا يعقلها إلَّا العالمون ١٦٠

أكثر النَّاس لا يعلمون ١٦٥

❖ **العلم عند سَلَف الأُمَّة** **١٧١**

❖ **أوَّل ما ينبغي أن يُعْلَم** **١٧٧**

• العلم بالله وصفاته مُقدَّم على كل علم ١٧٧

• العلم بقيمة الحياة الدنيا ١٨٠

• العلم برسالة الرسول ١٨٠

• العلم بالأحكام متأخر عن العلم بالعقائد ١٨٠

❖ **العلم الَّذي لا يُطلب** **١٨٢**

علم الغيب ١٨٢

العلم بحقيقة الذات الإلٰهيَّة ١٨٦

مفاتح الغيب الَّتي لا يعلمها إلَّا الله ١٩٠

علمُ السَّاعة ١٩٠

علم تنزيل الغيث ١٩٢

علم ما في الأرحام ١٩٢

وما تدري نفسٌ ماذا تكسب غدًا ١٩٣

وما تدري نفسٌ بأي أرض تموت ١٩٤

علم ما قبل التاريخ ١٩٥

علم حقيقة الرُّوح ١٩٦

QaradawiBooks.com

❖ **الفقه في لسان القرآن ١٩٧**
الفقه في القرآن المكي ١٩٧
نفي الفقه عن الكفار والمنافقين ٢٠١
كلمات من «ظلال القرآن» ٢٠٣
❖ **الحكمة في لسان القرآن ٢٠٥**
الحكمة نظرية وعملية ٢٠٥
مهمة النبي ﷺ تعليم الكتاب والحكمة ٢٠٧
الحكمة في «تفسير المنار» ٢٠٩
المراد بـ «الكتاب والحكمة» ٢١٠
الدعوة بالحكمة ٢١٣
• **الفصل الرابع: التعلم والتعليم في القرآن ٢١٥**
❖ **حثّ القرآن على التعلم ٢١٧**
القرآن يأمر بالتعلم عن طريق القراءة ٢١٧
التعلم عن طريق التلقي والمشافهة ٢١٨
فضل الكلب المعلَّم على غيره ٢١٩
طلب الزيادة في العلم ٢٢٠
❖ **سؤال أهل الذكر والخِبرة ٢٢٣**
حُسن السؤال ٢٢٥
❖ **الرحلة في طلب العلم ٢٣٠**
❖ **ممَّن نَتَعلَّم؟ وكيف نتأدب مع المعلم ٢٣٨**
أدب المتعلم مع المعلم ٢٤٠

QaradawiBooks.com

❖ **وسائل تحصيل العلم** **٢٤٥**

❖ **التعليم والبيان بعد التعلُّم** **٢٥٠**

الله خير مُعلِّم ٢٥١

رسل الله كلهم معلِّمون ٢٥٣

محمَّد إمام المعلمين ٢٥٣

العلماء ورثة الأنبياء في التعليم والبيان ٢٥٥

❖ **ألَّا يستحي من قول «لا أعلم»** **٢٥٧**

• **الفصل الخامس: تكوين العقليَّة العلميَّة في القرآن** **٢٦١**

❖ **تكوين العقلية العلمية في القرآن** **٢٦٣**

❖ **١ ـ رفض الظن في موضع اليقين** **٢٦٥**

❖ **٢ ـ عدم اتِّباع الأهواء والعواطف في مجال العلم** **٢٦٧**

❖ **٣ ـ رفض التقليد الأعمى للآباء والأسلاف** **٢٦٩**

❖ **٤ ـ رفض التبعيَّة للسادة والكبراء** **٢٧٢**

❖ **٥ ـ التعبُّد بالنظر العقلي** **٢٧٥**

❖ **٦ ـ لا تُقبل دعوى بغير برهان** **٢٨٢**

القرآن يُسمِّي الحُجَّة سلطانًا ٢٨٤

الشرك جهل لأنَّه دعوى بلا برهان ٢٨٦

براهين يُرشد إليها القرآن ٢٨٧

(١) البرهان الحسِّي ٢٨٧

(٢) البرهان السمعي ٢٨٨

(٣) البرهان التاريخي ٢٨٩

غير مرخص للطباعة
نسخة الكترونية
QaradawiBooks.com

(٤) البرهان النظري أو العقلي ٢٩٠
(أ) وجود الله ٢٩٠
(ب) وحدانيَّة الله تعالى ٢٩٠
(جـ) التَّنزيه عن الولد ٢٩١
(د) إنزال الكتب وإرسال الرُّسُل ٢٩٢
(هـ) البعث والجزاء ٢٩٢
دليل الخلق الأول ٢٩٣
خلق السماوات والأرض ٢٩٣
إحياء الأرض الميتة ٢٩٣
بطلان التَّسوية بين الأخيار والأشرار ٢٩٤

❖ **٧ ـ رعاية سنن الله في الكون والمجتمع ٢٩٥**

• **الفصل السادس: الإعجاز العلمي في القرآن ٢٩٩**

❖ **الإعجاز العلمي في القرآن ٣٠١**

❖ **القرآن هو المعجزة الكبرى ٣٠٣**
إلحاح المشركين في طلب الآيات الخارقة ورد القرآن الكريم ٣٠٣
القرآن هو المعجزة الكبرى ٣٠٥

❖ **الإعجاز العلمي للقرآن ضوابط ومحاذير ٣٠٧**
ضوابط ومحاذير ٣١٠
ما هو مطلوب من علماء الكون المؤمنين؟ ٣١٢

• **فهرس الأحاديث النبوية الشريفة ٣٢٠**

• **فهرس الموضوعات ٣٢٤**

❊ ❊ ❊

QaradawiBooks.com

فهرس كتب المجلد

٩٥ـ الصبر في القرآن الكريم ٥

٩٦ـ العقل والعلم في القرآن الكريم ١٣٥

* * *

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com